فهـــرس الــعــــدد

مغـزى ملتقيـات الفـكر الاسـلامى(1)

الأصـالـة هــى :
ان يكون الانسـان ابن عصره ، مـع البقـاء عـلى
اديـم مصره ، ودون أن يصبـح نسخـة غـيره !

مولود قاسم نايت بلقاسم

بسم الله الرحمن الرحيم ، والصلاة والسـلام على خاتم النبيئـين والمرسلـين ،

حضـرات الاخـوة ،

أود ، فى بدء هذه الكلمة ، أن أشكر المجلس البلدى الشعبى فى مدينة وهران على هذه البـادرة الطيبة ، البادرة البناءة ، البادرة الضرورية التى اتخذها باعطاء الاحتفال بالمولد النبوى الشريف هذا الطابع الممتاز ، هذا الطابع الحيوى ، هذا الطابع الشعبى ، هذا الطابع الرسمى ، هذا الطابع الشامل الكلى . ونرجو أن يكون هذا المثل قدوة لمدن أخرى فى البلاد ، تحتفل كلها فى المستقبل ان شاء اللـه بهذه الطريقة المنظمة ، المخططة مقدما ، على مستوى البلاد كلها فى نفس الوقت بالمناسبات الوطنية ، والمناسبات الاسلامية عامة ، بل والعالمية .

---

(1) المحاضرة التي ارتجلها السيد مولود قاسم نايت بلقاسم ، وزير التعليم الأصـلى والشؤون الدينية ، ليلة المولد النبوى الشريف فى قاعـة المركز الثقافى الاسلامى فى وهران (11 ربيع الاول 1397 هـ ـ يوم أول مارس 1977 م) .

وفى هذه الليلة المباركة ، والموضوع هو « مغـزى ملتقيات الفكـر الاسلامى » ، لا يسعنى الا أن أقول كلمـــة فى غاية الايجاز فى البدء ، حيث أننا سنعود اليها فيما بعد ربما بتوسع فى قاعة المغرب ، أقول لابد أن نعرج ولو بكلمة قصيرة جدا بـــهذه المناسبة ، مناسبة المولد النبوى الشريف الذى تحتفل به الجزائر هذه الليلة ويحتفل به معها مليار أو ألف مليون من المسلمين فى أنحاء المعمورة ٠

نعلم كلنا ما أتى به الاسلام ، ما أتت به الرسالة المحمدية للبشرية ، ليس فقط لأمة العرب اذ ذاك ، وليس فقط لأمة الاسلام التى هى أكبر منها فيما بعد ، ولـكن للبشرية جمعاء ، فى مختلف أنحاء الكرة الارضية ٠ ولا تزال البشرية تنعـم - وان كانت لا تعترف دائما - بثمرات هذه الرسالة التى هدت الانسانية ٠

واذا لم تصبح البشرية كلها مسلمة فانها كلها استفادت واستضاءت كثيرا بنـور الاسلام بطريقة أو أخرى ، ولا يزال يعترف الكثير منهم ، حتى من ألد أعداء الاسلام ، بهذا من حين لآخر من حيث يشعرون أو لا يشعرون ٠

واذا ما رجعنا الى العنوان بالضبط لهذا الحديث معكم وجدنا أنه : « مغزى ملتقيات الفكر الاسلامى » ، هذه الملتقيات التى تعقدها الجزائر سنويا بانتظام منذ عدة سنوات ، وكل سنة فى مدينة مختلفة من مدن القطر ، وأستطيع أن ألخص هذا المغزى فى ثلاث جمل قصيرة هى :

الأصالة هى أن يكون الانسان ابن عصره ، مـع البقاء على اديم مصره ، ودون أن يصبح نسخة غيره ٠ هذا الموضوع فى الواقع أشرت اليه منذ الملتقى الرابع الذى انعقد سنة 1390 هـ/1970 م فى قسنطينة فى كلمة افتتاحه تحت عنوان « الإنية والأصالة » . وحتى هذه الكلمة:« الإنية »ليست من ابداعنا ، فهى لذلك القطب ، ذلك النجم اللامع ليس فى تاريخ الاسلام وحده ، ولكن فى تاريخ الانسانية ، فى تاريخ الفكر الانسانى ، فى تاريخ الحضارة الانسانية العالمية ، وهو أبو على بن سينا ٠ فابن سينا هو الذى نحت هذه الكلمة ، كلمة الانية ٠ ما معنى الإنية ؟ من « إنى » ، وهى موجودة ، ومفصلة ومشروحة فى كتابه المشهور الاشارات والتنبيهات ٠

وبالنسبة للذين يتتبعون منكم هذه المواضيع باللغة الفرنسية فهناك مثلا سيدة فرنسية ، أستاذة مستشرقة معروفة ، ونستطيع أن نقول إنها فاضلة ، لانها كتبت بموضوعية ونزاهة عن ابن سينا وتراثه ، وهي الآنسة قواشون Goichon ، رسالة دكتوراه الدولة في السربون ، وفصلت هذا الموضوع بتوسع ·

كتب ابن سينا في الاشارات والتنبيهات ان الانسان عندما يحلق في الهواء ، أو يتصور نفسه محلقا في الهواء ، معلقا بين السماء والارض ، ليس ملتصقا بالسماء وقد أصبح منفصلا بعد عن الارض ، يحس بحالة غريبة · فكيف يشعر بنفسه ؟ ماذا يبقى له ؟ فجسمه يكاد يكون منعدما ، لانه غير مرتبط بشيء مادي ، بشيء جامد يتمسك به ، ويتشبث به · فماذا يبقى له في تلك اللحظة عندما يتصور نفسه معلقا بين السماء والارض ، كما في هذه القاعة حيث نتصور أنفسنا معلقين بين السقف والارضية، في الوسط ، معلقين في الهواء ، بدون أي شيء نتمسك به ، فيقول ابن سينا : لم يبق في تلك اللحظة للانسان الذي يوجد في تلك الحالة الا الشعور بنفسه ، بالروح ، بالنفس ، لا بالجسم ، لان الجسم يكاد يكون منعدما · فلم يعد له الا أن يشعر بنفسه فقط ، بإنيته ، يقول بإنيته : « اني واع بنفسي ، فاني اذن موجود » · يشعر بانعدام جسمه ، ولكن بوجود إنيته ، أي روحه ونفسه · ومن هنا أخذ ذلك الفيلسوف المعروف الذي تمجده أوروبا والعالم والذي ينسبون له وحده هذا الفضل ، وهو روني ديكارت ، كلمته المشهورة : أفكر cogito (je pense) ، فأنا اذن موجود : ergo sum (donc je suis) .

انه نفس تعبير ابن سينا ، الذي استعمله ديكارت · صحيح أنه نفس التعبير تماما اذا ما ترجم ترجمة معنوية صادقة ، فيتصور الانسان نفسه منعدما ومنفصلا عن الوجود الجسمي والمادي ، ومن تمام تلك اللحظة فالشعور بنفسه ، بروحه ، ذلك الوعي ، ذلك الشعور بالإنية ، هو الفكر عند ديكارت ، ومن ثم فالانسان وجوده بالفكر ، وليس بجسمه ، ولو كان بجسمه فقط لكان منعدما ·

أخذ ديكارت هذا المفهوم السيني بقرون بعد ذلك ، بعد ترجمة كتاب ابن سينا ، الاشارات والتنبيهات ، الى اللاتينية ، فمنه أخذ ديكارت هذا المفهوم وشرحه في كتابه

« حديث المنهج «Le discours de la méthode» وعنه أخذته البشرية كلها فيما بعد ، وان كانت ، كما قلت ، لا تشير دائما الى هذا المرجع ، لا تنسب الفضل لذويه ، وذلك غالبا بسبب التعصب الدينى ، أضيف اليه فيما بعد طابع ثان وهو الحقد الاستعمارى، حيث كانت الدول الاستعمارية تركز على تعقيد العالم الاسلامى ، لغرس عقدة النقص فيه ، بحيث لا يشعر بثقة فى نفسه ، ولا يرفع رأسه ، ولا يطالب باسترجاع استقلاله، وذاتيته ، وسيادته ، ومجده ٠

وبعد أن ذهب هذان العصران ، عصر التعصب بشكله الموجود فى القرون الوسطى وحتى بداية النهضة الاوروبية ، ثم العصر الاستعمارى الامبريالى الذى انضم اليه فيما بعد ، وزاد الطين بلة ، والطنبور نغمة ، كما يقول الأدباء القدماء ، فبعد أن زال هذان الجانبان بدأ الكثير الآن فى أوروبا يعترفون بهذا الفضل لذويه ، ويقرون لابن سينا أنه أبو هذه النظرية ، نظرية الإنية ، أو الهوية كما يقول اليوم اخواننا فى المشرق، عن جهل ، ونتبعهم نحن فى ذلك عن تقليد أعمى أفظع من الجهل ، ترجمة للفظ الاوروبى «Identité» ، عن اللاتينية id ، هو ، نفس ٠٠٠

ففى قسنطينة وفى الملتقى الرابع بالضبط سنة 1390 هـ (1970 م) ، أشرنا الى هذا فى كلمة افتتاح الملتقى تحت عنوان « الإنية والأصالة » ، الـذى يتلخص فيه مغزى ذلك الملتقى ٠ كيف يمكن للانسان « أن يكون ابن عصره ، مع البقاء على أديم مصره ، ودون أن يصبح نسخة غيره » ، ابن عصره أى مع زمانه ، على أديم مصره : أرضية بلاده ، واقفا بقدم ثابتة على أرضية بلاده ، لا معلقا بين بلدان ، وموزعا بين حضارات ، ومبعثرا بين ثقافات ، مشتتا ، ممزقـا ! وانما بكليته ، بتكامل شخصيته، بعناصره مجتمعة ، وفى نفس الوقت يكون ابن عصره ، يستفيد من تجارب الغير ، يستقى من ثقافات الحضارات البشرية كلها ، لانها كلها تكون شيئا متكاملا ، لانها كلها تكون وحدة ، لانه لا يمكن ان تنسب الى أية أمة من الامم ، فى القديم ، ولا فى الحديث ، ولا حتى فى المستقبل ، حضارة أو ثقافة بعينها ، وانما البشرية كلها شاركت بقدر متفاوت ، بدرجات متفاوتة ، فى هذا التراث البشرى المشترك المتكامل ٠

كيف يمكن الانسان اذن أن يكون ابن عصره ، أى لا يبقى جامدا ، خامدا ، هامدا ، ميتا ، مفكك الاجزاء ، مرتخى الاوصال ، لا ، بل أن يكون ابن عصره ، متتبعا لحوادث العصر ، متثقفا لآ خر الاكتشافات ، وليس فقط متتبعا لها ، بل مشاركا فيها ، أن يكون مشاركا فى هذه الاكتشافات ، مساهما فى هذه النظريات ، مساهما فى هذه الفروض العلمية التى تصبح فيما بعد مكتشفاته ونظرياته ؟ كيف يمكن له أن يساهم فى هذا وفى نفس الوقت يبقى نفسه ، هوهو ، بإنيته كاملة ، لا نسخة غيره ؟ كيف يمكن الانسان أن يكون ابن عصره مع البقاء على أديم مصره ودون أن يصبح نسخة غيره ، دون أن يصبح مشوها ، منسوخا ، ممسوخا عن ثقافته ، وعن هذه الانية التى تكلم عنها ابن سينا ، وعن هذه الأصالة ، وعن تقاليده ، وعن تراثه ، وعن عناصر شخصيته ، ومكونات ذاتيته ؟ كيف يمكن هذا ؟

هذا هو المشكل المطروح الآن على البشرية كلها ، على العالم كله ، اذا ما كنا كلنا نتتبع ما يكتب الآن فى العالم ، وما يذاع ، وما ينشر فى الكتب ، والمجلات ، والتلفزات ... الخ .

هذا هو المشكل، هذه هى الازمة، وهذا هو العلاج لأزمة الحضارة La crise de la civilisation وأزمة القيم La crise des valeurs ، كما يسميهما الاوروبيون ، الفرنسيون وغيرهم .

ما هو حلها ؟ حلها هو هذا ، ان يكون الانسان ابن عصره، أى يأخذ بآخر اكتشافات العلم ، بآخر ابداعات الفن ، بآخر اختراعات الصناعة ، وآخر انجازات الزراعة ومختلف أنواع النشاط البشرى ، وفى نفس الوقت يحافظ على عناصر شخصيته ، يبقى متمسكا بجذوره ، ملتصقا بأعماق أعماق عروقه .

قد يتذكر كثير من السادة الحاضرين هنا ممن حضروا الملتقى الثامن فى بجاية (1374 هـ — 1974 م) ما قاله الاستاذ الكبير ، وكان أستاذنا ، الدكتور زكى نجيب محمود ، الكاتب الشهير والفيلسوف الذى يعرفه الكثير منكم شخصيا أو من خلال كتبه ، ما أجاب به أحد الاخوان الجزائريين ، الذى ربما لم يكن موفقا فى النقد الموجه

للدكتور زكى نجيب محمود ، فانفعل الدكتور زكى نجيب محمود ، وهو المتزن ، وهو المعتدل ، وهو المنضبط ، وهو المتغلب على مشاعره ، وهو تلميذ برتراند راسل ، ومن دعاة المنطق الوضعى والمنهج العلمى فى الفلسفة ، ومع ذلك انفعل ، وتأثر ، ولم يستطع التغلب على نفسه ، ولم يستطع التماسك ، فاندفع وقال : « لا تنس يا بنى أننى ابن حضارة سبعة آلاف سنة » ! أى ابن الفراعنة . لا تنس يا بنى أننى ابن حضارة عمرها يتجاوز سبعة آلاف سنة ! هذا ما قاله أستاذنا الكبير الدكتور زكى نجيب محمود . هذا تجدونه أيضا اليوم لدى مجتمعات أخرى فى البشرية ، وخاصة لدى أكثر الامم الاوروبية تقدما ، واعتدالا ، ونضجا ، وتفكيرا ، ومنهجية ، وموضوعية ، ونزاهة علمية .. الخ .. الخ !

تجدون عندهم هذا الاعتزاز ، هذه المحاولة ، هذا التشبث بالجذور ، هذا التمسك بالأصول ، كى لا يبقى الانسان معلقا بين السماء والأرض ، ولا يشعر بنفسه مجردا من هذه الإنية . هذه هى مشكلة العصر اليوم فى أزمة الحضارة وأزمة القيم التى تعانى منها أوروبا ، وأمريكا الشمالية والجنوبية ، واليابان ، وما أدراك ما اليابان ! المحافظة حتى الآن على أصالتها ، وعلى عروقها ، وجذورها ، وثقافتها ، التى تعد بآلاف السنين ، ومع ذلك فهى الآن مع الاسف تشعر بنفسها مزعزعة ، مهددة ، مخلخلة فى أسسها ، مهلهلة فى قاعدتها ، نظرا لهذا التيار الجارف الذى ورد اليها من الخارج والذى يهددها فى كيانها ، يهددها فى وجودها ، يهددها فى انيتها وأصالتها .

الناس كلهم فى العالم يصارعون الآن هذه الأزمة ، وكلهم يحاولون الاقتراب من هذا المثل الأعلى الذى ينبغى لنا نحن أكثر منهم الاقتراب منه . فاذا كانوا – وهم الذين لم يعانوا محاولات السلخ، والمسخ، والنسخ الاستعمارية والامبريالية فى الماضى، وهم الذين لم يتعرضوا لتلك الهزات – ، يحاولون اليوم هذه المحاولات اليائسة ، كما يقول الاوروبيون ، للتمسك باصولهم ، وبجذورهم ، وبعروقهم ، وبأصالتهم ، وبإنيتهم ، فكيف بنا نحن الذين تعرضنا لقرون من الجمود ، كما كتب ابن خلدون فى القرن الرابع عشر الميلادى ، ولعصور من الهمود والخمود ، تلتها بعد ابن خلدون ، ثم للعهد الاستعمارى الطويل ، خاصة فى هذه المدينة ، مدينة وهران ، التى عاشت

ـ كما تعلمون ـ الاستعمار الاسبانى الذى دام ثلاثة قرون ، ثلاثة قرون ، نعم ! دخل الاستعمار الاسبانى سنة 1507 الى مدينة وهران وخرج سنة 1792 ، ثلاثة قرون كاملة عاشها هنا ، بانقطاع دام ثلاثين سنة فقط ! هذا بالنسبة لمدينة وهران وبعض المدن الاخرى كذلك فى البلاد • ثم عانت البلاد كلها استعمارا أفظع وألعن ، وهو الاستعمار الفرنسى الذى كان يمتاز عن الاستعمار الاسبانى بالمنهجية العلمية، المنهجية الشيطانية، المنهجية الابليسية ، التى كانت منظمة ، مضبوطة ، محكمة ، مدروسة ، مخططة أكثر ، وكلها ترتكز على هذا المسخ ، على هذا النسخ ، على هذا السلخ من الإنية ، ومن الأصالة ، ومن الذاتية ، ومن الشخصية •

اذا كانت هذه الدول كلها تعمل وتقوم بهذه المساعى الجبارة لتحافظ على إنيتها من الاندثار ، وعلى أصالتها من الانجراف ، فكيف بنا ونحن الذين تعرضنا لما تعرضنا لـــه ؟

انه ينبغى لنا أن نحرص أكثر من هذه الامم كلها على هذه الإنية وعلى هذه الأصالة، بتحقيق هذا المثل الاعلى : وهو أن نكون أبناء عصرنا ، مع البقاء على أديم مصرنا ، على أديم بلادنا ، على أرضيتنا الطيبة ، على أرضيتنا الثابتة ، وألا نصبح نسخة غيرنا •

بعد ذلك لا يمنعنا أى شىء أبدا من أن نأخذ عن الغير ، وأن نرنو الى السماء ، وأن ننظر فى جميع الاتجاهات المختلفة ، عندما نضمن لأنفسنا هذه الأرضية الثابتة ، هذا الأساس المتين ، وعندما تكون أرجلنا منغرسة فى أديم هذه الأرض ، متشابكة مع عروقنا ، ضاربة فى جذورنا ، جذور الأجداد ، عروق الأسلاف ، بقيمهم ، بمزاياهم ، بفضائلهم • وهذا لا يمنعنا طبعا من أن ندرس تاريخنا بكل نقد ، وبكل تجرد ، وبكل موضوعية ، وبكل نزاهة ، حتى لا تتكرر أخطاء الماضى •

اذن علينا أن نكون أبناء عصرنا ، على أديم مصرنا ، ودون أن نصبح نسخة غيرنا • أما اذا أصبحنا نسخة غيرنا فكأننا لم نفعل شيئا • نستطيع ، ليس فقط نستطيع ، بل يجب علينا أن نستفيد من أحدث تجارب الانسانية فى المجالات المختلفة للحياة البشرية ، فى المجال العلمى ، والاجتماعى ، وفى المجالات الاقتصاديـــة والثقافية

المختلفة من صناعة ، وزراعة ، وفن ، وتربية ، وتعليم ، ولكن بشرط ألا نأخذ منها الا ما يلائم ذاتيتنا ، الا ما ينسجم مع هذه العناصر المكونة لشخصيتنا ، وإنيتنا ، وأصالتنـا ٠

هذا هو المقصود بالذات من مغزى هذه الملتقيات كلها التى نعقدها فى مختلف مدن القطر ، والتى تختلف جداول أعمالها حسب المدينة التى ينعقد فيها الملتقى من سنة الى أخرى ، وفى جميع هذه الملتقيات قاعدة ثابتة ، صلبة ، قائمة ، دائمة ، دائبة ، تبقى لازمة ملازمة : هى تناول فترات هامة من تاريخ تلك المنطقة بتوسـع وبطريقة شاملة كاملة بقدر الامكان ، وكذلك دراسة جوانبها الحالية ، دراسة تلك المدينة ، تلك المنطقة كلها فى الماضى والحاضر ، بالمحاضرات والمناقشات ، وبالزيارة أيضا لآثارها ومنجزاتها ٠ (1)

يبقى السؤال : ما الهدف من خلال هذا ، يعنى ليس فقط الغاية نفسها ، ولكن الهدف من خلال تحقق هذه الغايات ، أو غاية الغايات ؟ من الذى يتوجه اليه هذا النداء ؟ وأقول لكم طبعا هم بالدرجة الاولى الشباب ، الشباب هو الذى نركز عليه لانه هـو المستقبل ، هو الذى يسلم هذا المشعل ، يسلم القيم التى تلقاها عن جيـل الكفاح التحريرى ، جيل فاتح نوفمبر وما سبقه ، وما هيأ له ، ولكن خاصة المرحلة الاخيرة التى هى فاتح نوفمبر ، يبلغ الاجيال عن كيف استرجعت هذه البلاد كيانها ، كيف استرجعت هذه البلاد سيادتها ، كيف استرجعت هذه البلاد عزتها ٠ ولهذا لا أقول أبدا استقلال الجزائر ، بل أقول : استعادة استقلال الجزائر ، استعادة الجزائر ، استرجاع حرية الجزائر ، لا حرية الجزائر ، واستقلال الجزائر ، وانما استعادتهما ٠ هذه الفترة ينبغى أن تبقى دائما حية، ويبقى هذا المشعل يسلم ويبلغ من واحد الى آخر، على مر الاجيال، ولا ننسى أبدا أننا تعرضنا للذوبان ، تعرضنا لأكبر كارثة كان يمكن أن تؤدى بنا نهائيا ، لولا رحمة من ربنا ، ولولا جهاد من استشهد ، ولولا تضحية من لا يزالون ، ولولا ذلك الصبر من الشعب كله ، وذلك العناد ، وتلك المصارعة ، مصارعة من سوء

(1) انظر أيضا المحاضرة « اهتمام الامم بأيامها » الملقاة فى نفس المساء والمنشورة فى الأصالة عدد 44 بتاريخ ربيع الثانى 1397 ـ افريل 1977 م ٠

الحظ لآثار أخطاء أسلافنا في القرون الاخيرة · نعم ، أخطأوا ، وضعفوا ، وتهاونوا ، وارتكبوا أغلاطا ، وقصروا في مجالات مختلفة ، وأدى ذلك كله الى ما أدى اليه فيما بعد ، وما نزال نعاني منه حتى الآن ولأمد يعلم الله طوله !

اذن علينا أن نسلم هذا المشعل لاجيال المستقبل ، لاجيال الغد · ولابد دائما من التركيز على هذه النقاط ، وعلى هذه الإنية · تذكرون كيف حارب شعبنا الحلف الاطلسي بكامله · بأى شيء حاربه ؟ بالروح ، بالمعنويات قبل كل شيء ! كان الكثير يقولون : من هؤلاء ؟ ماذا يقصد هؤلاء الذين يريدون ان يحاربوا دولة مثل فرنسا ؟ بأى شيء ؟ بالكلام ؟ بالشعارات ؟ بالملصقات على الجدران ؟ وبالخربشات على الاعمدة ؟ هل لديكم طيارات ؟ هل لديكم مترايوز[1] ؟ هل لديكم رشاشات ؟ هل لديكم دبابات ؟ هل لديكم مسدسات على الاقل ؟ ومع ذلك حارب أناس بتلك الروح ، بتلك الشحنة المعنوية ، بتلك البطارية ،كما يقول اخواننا الشرقيون ، بتلك البطارية حاربوا الحلف الاطلسي بكامله ، وليس فقط فرنسا ، بل الحلف الاطلسي بكامله ، حاربوه بتلك القوة المعنوية ، بتلك الشحنة الروحية ! بتلك البطارية المعنوية حاربوا القوة المادية الغاشمة التى كان يمكن أن تمحقهم محقا ، وتسحقهم سحقا ، لولا ذلك اللب ، ذلك الامل ، تلك الروح القوية التى ردت المادة ، ردت القوة الغاشمة !

كان الجهاد ، أو الثورة كما يقول البعض اليوم ، اذ ذاك كانوا يقولون الجهاد ، الثوار كانوا يسمون اذ ذاك المجاهدين ، وحتى الجريدة لسان حالهم كانت تسمى المجاهد ، ولا تزال والحمد لله ، والكفاح نفسه كان يسمى الجهاد · بهذا استطاع الشعب أن يقاوم ، بتلك الروح ، بذلك الايمان بالثواب فى الدار الآخـرة وباستحقاق الكـرامة بالاستشهاد فى هذه الدنيا ، ونيل احترام الغير ، واحترام الذات · هذا كله متضمن فى هذه الكلمة : الاصالة · وهذا ما ينبغى أن نبلغه . وهذا ما نحاول أن نركزه فى شبابنا من خلال هذه الملتقيات · ومغزى هذه الملتقيات هو هذا بالذات ! يتركز فى هذه الجمل الثلاث : أن يكون الانسان ابن عصره ، مع البقاء على أديم مصره ، ودون أن يصبح نسخة غيره !

(1) رشاشات .

تبقى المواضيع التى تختلف ، والشخصيات التى ندعوها كل سنة من بلدان مختلفة ، ومن اتجاهات مختلفة ، ومن أديان مختلفة ، ومن مذاهب مختلفة فى داخل الدين الواحد، ومن ايديولوجيات مختلفة ، ومن قارات مختلفة ، اذ ندعو من القارات الخمس ، ندعو من استراليا ، وأمريكا ، وآسيا كلها ، من آسيا العربية المسلمة ، وآسيا الوثنية ، وان كان الذى يأتينا من اليابان الى حد الآن مسلما ، وهو الاستاذ عبد الكريم سايتوح ياباني أسلم ، أستاذ فى الاقتصاد فى جامعة من جامعات طوكيو ، ولكن دعونا آخرين ، دعونا من اتجاهات مختلفة من ايديولوجيات مختلفة ، ومن تيارات اقتصادية مختلفة ، ومن اتجاهات يمينية ويسارية ، منطرفة ، ومتوسطة ، وفوقها ، وتحتها ، الخ ... بجميع اللوينات (1) ، كما يقول الرسامون .

والمقصود من ذلك هو هذا النقاش ، هو هذا الحوار الخصب بينهم والشباب ، ليستفيد الاخيرون من المنهجية العلمية ، ليستفيدوا من آخر الطرق المستحدثة التى تستعمل فى البلدان المختلفة ، التى تقدمت علينا ، وقد كان تقدمها علينا انطلاقا من تراثنا . اذ بدأوا يتقدمون عندما بدأنا فى التراجع ، أو على الاقل فى الهمود ، والخمود ، والجمود فى نفس المكان ، ـ والذى لا يتقدم طبعا يتراجع ، هذه هى القاعدة المعروفة ! ـ استفادوا منا ، وأخذوا عنا كل ما أخذوه ، ولماذا لا نأخذ منهم نحن الآن وقد أخذ أجدادنا الاولون عن أجدادهم ؟ لنا سابقة فى هذا ، فحتى فى المجال الادارى ـ فى العهد الاسلامى الاول ـ كانت الادارة ـ كما تعلمون ـ باليونانية فى جانب من البلاد العربية ، وكانت بالفارسية فى الجانب الآخر ، عند المناذرة بالفارسية ، وعند الغساسنة باليونانية ثم بعد باللاتينية ، ولكن تغلبوا على ذلك كله بالعزم ، تغلبوا على الحالة التى كانوا فيها من تأخر ، ويكفيها اسم الجاهلية ، وبفضل تلك الدفعة ، تلك الشحنة ، تلك البطارية الروحية التى تتلخص فى كلمة الاسلام وما أتى به من نور للامة العربية ، وللامة الاسلامية التى تتجاوزها ، وللبشرية كلها ، استطاعوا أن يصبحوا فى مدة قصيرة جدا نسبيا فى تاريخ الحضارات ، وتاريخ الاجيال ، وتاريخ تطور العمران ، أن يصبحوا سادة البشرية وأساتذة الانسانية . بهذه الشحنة الروحية ، بهذه القوة المعنوية .

(1) nuances, Schattierungen.

وهذه هى التى نحاول ـ بقدر الامكان ـ أن نغرسها فى الشباب ، مضافا اليها ـ كما قلت ـ أحدث الطرق العلمية ، أحدث المناهج التى استفادت منها البشرية ، التى تمخضت عنها جهود متواصلة عبر هذه القرون الاربعة عشر التى عاشتها البشرية منذ فجر الاسلام ، منذ نزول القرآن ، منذ كلمة اقرأ ، منذ نزول اقرأ الذى كان منطلقا جديدا للبشرية كلها . هذا ما نحاول أن نغرسه فى شبابنا بهذه الطرق .

قد يقول البعض منا ـ وقالوه لنا فعلا ـ لماذا تدعون من هذه البلاد أو تلك وهى مسيحية مثلا ، فربما كان الاستاذ الفلانى ، الالمانى ، أو الفرنسى ، أو السويدى ، أو الاسترالى ، أو الايطالى ، أو الامريكى ، أو اليابانى ، أو الروسى ، أو الاسبانى ، أو الانجليزى ، أو كذا ، يهوديا ، أو مجوسيا ، أو شيوعيا ، أو مسيحيا ؟ فنحن نقول ندعو هؤلاء الاساتذة ، العلماء المتخصصين ، الكتاب ، المفكرين ، من الجامعات ، من مختلف التخصصات ، من الاقتصاد ، من التشريع ، ومن القانون ، ومن الفلسفة ، والتاريخ ، وتاريخ الحضارات ، وتاريخ الاديان المقارن ، والفكر عموما ، ندعوهم لهذا النطاح ، ونحن هنا فى قلب وهران ، فى مكان غير بعيد عن موقع معركة خنق النطاح ، ـ ويطول بنا الحديث لو عرجت بها الآن ـ أقول اننا ندعوهم لهذا النطاح ، ولقدح الزناد ، ندعو هؤلاء الاساتذة من مختلف البلدان ، والاديان ، والمذاهب ، والايديولوجيات لنستفيد من منهجيتهم العلمية . فقد تقدموا علينا الآن ، وقد كان استفاد أجدادنا من أجدادهم ، وتقدمنا عليهم ، وعلمنا البشرية ، واستفادت البشرية من منطلقنا ، وليس فقط من منطلقنا ، بل من قمتنا ، من الاوج الذى وصلنا اليه انطلقت هى ونحن بقينا هناك ، بل تراجعنا ! ويا ليتنا على الاقل بقينا هنا !

والآن آن لنا ، حان الوقت ، لان نستفيد من تلك الطرق ، وليس هناك من أى عيب أبدا فى أن نستفيد من أحدث الطرق لاى بلد كان ، ومن أية ايديولوجية كانت ، ومن أى منهج كان ، ومن أية قارة كانت ، ومن أية سياسة كانت ! العلم علم ، والتجربة تجربة ، نأخذ منها ما يوافقنا ، ونترك الآخر بروح نقدية ، بروح موضوعية ، بروح فاحصة ، بروح ماحصة .

أما اذا أتانا أستاذ بنظرية لا تلائمنا ، يعني يريد مثلا أن يبث فينا دعايته ، فنحن لا ندعوه مرة أخرى • فمن هؤلاء الاساتذة الذين نأتي بهم من هذه البلدان أو تلك من مختلف أنحاء العالم قد يكون فيهم الكثير ممن لا نرضى عنهم ، ولا يرضون عنا • ومع الاسف فحتى في العالم الاسلامي مصائب ، وربما كانوا أحيانا ـ ان سمح سيبويه بهذا التعبير ـ أكرث من الخطر الذى يأتينا من الاوروبى أو الامريكى • مع الاسف هذا هو الواقع ، واقعنا • ولكن نأتي بهم للنخبة ، نأتي بهم للشباب الجامعي ، ولشباب السنتين النهائيتين من التعليم الثانوى ، ونحاول دائما اختيار مجموعة أخرى من الاساتذة من حيث الكم والكيف ، أو من حيث الكفاية والكفاءة ، أى من حيث العدد ، ومن حيث الاقتدار والنزاهة ، يكونون معهم ليردوا عليهم عند اللزوم ، وليصححوا الاخطاء •

ومن هنا تتحقق لدينا عدة فوائد من هذه الملتقيات ، ومن هذا القدح للزناد بين هذه المذهبيات كلها ، والايديولوجيات ، والاديان ، والحضارات ، والثقافات ، واللغات ، التى تأتينا من القارات الخمس ، ونحن نجتمع فى قسنطينة ، أو فى وهران ، أو فى الجزائر العاصمة ، أو فى تيزى وزو ، أو فى بجاية ، أو تلمسان ، أو فى عنابة ، [illegible]امس ، أو فى ورجلان اليوم ، أو فى باتنة ، أو بلعباس ، أو قالمة ، أو غيرها غدا •

هذا هو المقصود بها • هو أولا ، أعيد وأكرر ، ولن أمل ولن أكل من تكرارى هذا ، هو أن نعلم شبابنا أن يحرص على أن يكون ابن عصره ، مع البقاء على أديم مصره ، ودون أن يصبح نسخة غيره ! ويتعلم من هؤلاء الاساتذة المنهجية العلمية التى يمتازون [illegible] عنا اليوم ، وينبغى أن نعترف بهذا ، ويأخذ كذلك المعلومات لديهم ، اذ سبقونا [illegible] من الامور ، ويتعلم أيضا طريقة استعمال المراجع ، ويأخذ عنهم المراجع ، و[illegible]ريقة النقاش ، ومقابل ذلك يفيدهم شبابنا بدوره ، لانهم يطلعون بذلك على [illegible]نا ، كيف ننقدهم فى هذه النقطة أو تلك ، كيف نرد عليهم فى هذا الاتجاه [illegible] كيف نفضح ذلك التأويل المقصود ان كان مقصودا ، ذلك التأويل [illegible] ، ويستفيدون من هذا ، ويصححون مواقفهم ، ويراجعون أنفسهم ، ويعدلون مما يكتبون ، ومما ينشرون ، ويذيعون •

... الفوائد كلها تجتمع لدينا من خـــلال هذه الملتقيات ، أو سوق الافكار ، كما سماها ... وهى خصبة ، وكسب ، وفيها كل الفائدة ، وليس فيها أبدا من جانب سلبى ... فى نظرنا على الاقل ، وهو ما أكدته لنا التجارب ، وأكده كل من كتب عنها فى المشرقين والمغربين ، والشمال والجنوب .

... عندما يأتينا أستاذ مثل الاستاذ هرمن لاى ، من جامعة برلين ، من جامعة هومبولد ... المعروفة الشهيرة ، ببـرلين الشرقية ، فى جمهورية ألمـانيا الديمقراطية ، الشيوعية ... المسلمون ، ويقول فى ملتقى عنابة : « ان كتاب الكليات فى الطب لابن رشد كان ... جامعة يينا » ـ وهى من كبريات جامعات ألمانيا ، وتوجد الآن فى القطاع الشرقى ... حتى القـرن التاسع عشر » ، أو يقول الاستاذ بيلافسكى ، مـن جامعـة فرصوفيا ... بولونيا ، « ان كتاب القانون لابن سينا كان يدرس فى جامعة كراكوفيا فى ... حتى القرن الثامن عشر » ، ثم يلح الاستاذ هيرمان لاى على طلبتنا قائـلا : « لتكن ... ثقـــة فى تراثكم وفى أصالتكم ، وتمسكوا بقيمكم الروحية والعلمية ، وتقدموا الى الامام ، وتعلموا أيضا ما تقوم به البشرية اليوم » ، أظن أن هذا الكـــلام، بالنسبة ... يفيد شبابنا أحسن من أى كلام تقوله أية شخصية اسلامية على مستوى القمة ... لشبابنا المعقد ، الشباب الاسلامى عموما « المصاب بعقدة الخواجة » ـ أى ... والامريكى ـ كما يقول أستاذنا الكبير الفيلسوف عثمـان أمـــين ، اذ يأتينا ... من هذا العالم الذى يغايرنا ، الذى هو بعيد عنا ، من قارة أخرى ، ودين ... وجنسية أخرى ، ويقول هذا الكلام لشبابنا ، أظن أنه فى الصميم بالنسبة لهم ، ... يتكلم من منطـق ومنطلق تعيشهما بلـدان أوروبا الغربية والشرقية ، وأمريكا ... يسمى بالعالم الغربى عموما ، فى هذه الازمة التى تجتاح العالم اليـوم ، وتكتسح المجتمعات ، وقد تكنس الحضارات كلها ، اذا ما استمرت الامور بهذه الطريقة ، وواصلت ... هذا المنوال .

وما دمنا بصدد ذكر كتاب ابن سينا في الطب ، أود أن أقول اننا سنعود اليه فى الكلمة الاخرى ، فى قاعة المغرب ، اذ دام استعماله فى أوروبا لمدة أطول ، ودرس فى جامعات أخرى الى ما بعد القرن الثامن عشر ، سنعود اليه فيما بعد (1) ٠

ظاهر اذن أن المقصود من هذه الملتقيات هو تعـزيز هذه القـيم ، وتعلـيم ابنائنا واخواننا ، ونحن نتعلم كلنا ، وأقول لكم بكل صراحة اننى شخصيا ، اذ أركز الجانب الاكبر من اهتمامى على الترتيب المادى والتنظيم فى القاعة وغيرها ، استفيد مع ذلـك كثيرا من اللحظات التى يتركها لى التنظيم ، أستفيد كل الاستفادة ، أستفيد الاستفادة العليا من تلك الشذرات التى تبلغنى من المنصة ، التى أسمعها من الاساتذة ، من أساتذة قمم ، أساتذة بارزين فى بلدانهم وعلى المستوى العالمى ، على الاقل الكثير منهم ، وأستفيد من كل كلمة يقولونها ٠

وأظن أننا كلنا نستفيد من تلك المعلومات ، ونستفيد من المنهجية ، ونصحح بدورنا لكثير من أولئك الاساتذة ، مسلمين وغير مسلمين ، وخاصة هؤلاء الاخيرين ، الاخطـاء الكثيرة التى ورثوها عن الماضى ولا تزال عالقة بهم الى اليوم ، راسبة فيهم ، تطفو من حين الى آخر الى السطح ٠ ولابد أن نصحح الافهام ، ونصحح الاوضاع ، وأن نعيد الامور الى نصابها ، بهذه الطرق ، بهذه المنهجية العلمية ، بهذا النقاش الخصب ، بهذا النقـاش الحر ، من المنبر الحر ، ونترك لاى انسان الحق فى أن يقول أى شىء يريد ، مـا دام فى الموضوع ، مهما كان رأيه مخالفا لآراء الآخرين ، وهذا هو المقصود ، اذ الفائدة كـل الفائدة فى اختلاف الآراء ، وفى اللقاء بين المختلفين فى الآراء ، والمنهجيات ، والمذهبيات، ليحصل هذا القدح للزناد ، ليحدث هذا النطاح ، هذا الصراع بينهم ، الصراع العلمى ، الصراع المنهجى العلمى ، ليستفيد الجميع ، ويحصل للجميع من هذا النطاح اللقاح !

وقد اعترف لنا الكثير بأنهم استفادوا بعضهم من الآخر ، ويستفيدون كل مرة ٠ والعبرة ــ كما قلنا ــ بالشباب أكثر ٠ فالاساتذة يستفيد بعضهم من الآخر ، ولـكن الفائدة الكبرى تعود خاصة على الشباب ، الذين هم المقصود بالذات ٠ تعلمون أن كثيرا

(1) انظر « اهتمام الاسم بأيامها » لصاحب المقال فى عدد 44 من الأصالة بتاريخ ربيع الثانى 1397 هـ ــ أفريل 1977 ٠

من المؤتمرات والملتقيات التى تعقد لمثل هذه الامور تركز فى الغالب على مجموعة من الاساتذة المتقدمين فى السن ، ولكن خاصة من حيث التقادم فى الافكار ، والمناهج ، وتحجر الذهنيات ، وليست العبرة بالسن فقط ، لان هناك مثلا الشيخ سليمان هنا بيننا كبير فى السن ، وكبير فى العلم ، ولكنه من حيث الروح فى الشباب الاول حقيقة ، وليس مجاملة له ، وآخرون أيضا ٠ رأيتم مثلا الاستاذ محمد عبد الله عنان ٠ الكثير منكم قد لا يتفق معه ، وقد رددت عليه مرارا فى مناسبات عدة ، بخصوص رأى له فيما يتصل بالدولة العثمانية ، ولكنه من حيث علمه ، وأدبه ، ومنهجيته العلمية ، وبحثه ، وهو الآن فى الثمانين ولا يزال ينقح ، ويراجع ، ويصحح ، وينقب ، ويطالع ، ويكتب ، ويخربش فى المكتبات ، فى الاسكوريال فى اسبانيا ، وفى جامعة ليدن فى هولندا ، وفى أوبسالا فى السويد ، وفى جامعة يينا فى ألمانيا الشرقية ، وفى مكتبات برلين ، وفى مكتبة اللغات الشرقية ، ومكتبة سانت جنغييف ، ومكتبة السوربون ، والمكتبة الوطنية فى باريس ، ومكتبات انجلترا ، وغيرها ، فضلا عن المكتبات فى البلدان العربية، وقد تجاوز الثمانين ، وما زال ينشط ، ويجرى ، ويسعى ، ويتنقل ، ويرحل ٠ انه فقط بوجوده فى الملتقى ، ولو لم يتكلم ، لهو درس لنا ، نتعلم منه ، بمحض وجوده ، حتى لو بقى ساكتا فى المنصة ، نستفيد منه كل الاستفادة ، نظرا لهذا السعى ، ولهذا الجهد ، وذكرته كمثل فقط ، ومن أحسن الامثلة ٠

وتعرفون كلكم عثمان الكعاك ، وبحوثه ، واطلاعاته ، وسعيه ، وتنقيبه فى العالم كله ، العالم الغربى والشرقى ، ولم يترك أية شاردة فى أى بلد ٠ هؤلاء كلهم ، بمحض وجودهم فقط بيننا نتعلم الكثير والكثير منهم ، ونريد أن نغرس هذا فى شبابنا ٠

هذا هو المغزى من هذه الملتقيات التى نحرص كل الحرص على أن تكون بالدرجة الاولى للشباب ٠ وهذا هو الذى يميزها أيضا عن ملتقيات أخرى تنظم فى بلدان أخرى ، عربية ، أو اسلامية عامة ، أو فى غيرها من العالم ٠ انها غالبا ما تعقد فى أمكنة خاصة محصورة ، وعلى مجموعة من الاساتذة مقصورة ، وغالبا ما يكونون متقدمين جدا فى السن ، من ذوى التخصص حقيقة ، ولكن أبحاثهم تبقى محصورة ومخنوقة بين الجدران الاربعة لتلك القاعة ، ولا تخرج الا بعد مدة طويلة ، وحتى اذا خرجت تبقى محصورة

ومقصورة على مجموعة من المتخصصين أيضا ، بينما نحن نـــركز بالدرجة الاولى على الشباب ، ونجمع بين عـــلم وحكمة الكبار وحماس الشباب ورغبتهم فى البحـــث ، والتنقيب ، والاطلاع ، والمطالعة ، واستخلاص النتائج بأنفسهم ، والتحصيل على عناصر الحكم بجهدهم ، بروح نقدية ، بروح علمية ، ومنهجية دقيقة حديثة • هذا هو الفـرق الكبير • لان الشباب هم ضمان الاستمرار ، هم الذين يجسمون الاستمرار لهذا الفكر ، ولهذا العمل ، وهم الذين يبلغون المشعل غدا لاجيال أخرى •

ولهذا نستعمل أحيانا نوعا من الصرامة مع الجميع ، بنية صادقة حسنة ، مـــع الجميع ، أساتذة ، وطلبة ، وغيرهم ، وخاصة مع الطلبة ، نستعمل الصرامة كل الصرامة معهم عندما يخرجون عن الجادة ، ويحدثون الفوضى ، أو يضيعون ثانية ودقيقة واحدة من الاستماع الى الاستاذ المحاضر أو المناقش ، لاننا نرى أن عليهم أن يستفيدوا من كل لحظة ، ومن كل كلمة تقال ، وعليهم أن يردوا ، ويناقشوا ، وهم يطلعون الى المنصة •

وهنا أود أن أسأل : فى أى ملتقى فى العالم رأيتم الطلبة يطلعون الى المنصـــة ، ويردون على علماء أعلام ، وعلى أساتذة كبار فى الجامعات المختلفة من الشرق والغرب ؟ فى أى بلد ؟ لم يحدث هذا الا فى الجزائر !

وقد أشاد الكثير بهذه الطريقة ، أشاد بها الدكتور محمد الفحام ، شيخ الازهـــر سابقا ، على اثر الملتقى السادس للفكر الاسلامى فى العاصمة سنة 1392 هـ (1972 م) ، كما أشاد بهـا فى الصحف والمجـلات أساتذة كبار فى جامعات أوروبية ، ويابانية ، وأمريكية كثيرة ، مثل الدكتور سايتو من طوكيو ، وألجار من هارفارد ، وعبد الغنـي من اوزبكستان ، وغوميث وايبالثا من مدريد ، وكوخفاسر من ألمانيا ، وبونو من روما ، الذى القى محاضرات فى جامعات ايطالية ونشر فى المجلات والصحف، ومنها فى الاوسرفاتورى رومانو ، لسان حال الفاتيكان ، مقالات عديدة ، عن مميزات هذه الملتقيات ، كما أشاد بها أخيرا ، بعد ملتقى ورجلان ، الدكتور أحمد كريم غاى ، وزير الخارجية سابقا فى السينغال والامين العام حاليا لمؤتمر الدول الاسلامية ، وقال انه ينبغى أن نطلب مـن البلدان كلها أن تعير هذا الجانب ، جانب الشباب ، هذه الاهمية ، لتركز على الشباب فى جميع الملتقيات التى تنـــظم ، كما هو المعمول به فى ملتقيات الفكر الاسلامى فى الجزائر ، لانهم هم المقصود ، لانهم هم الاهم ، ليستمروا فى تبليغ هذه الطريقة ، طريقة

الجمع بين عناصر متكاملة ، بين الأصـــالة ، والتراث ، والقيم ، من جهة ، والمعاصرة أو ضرورات العصر الحديث والتفتح على العالم وتقدم العلم ، من جهة أخرى ·

وهذه الصيغة : الأصالة والمعاصرة ، استعملناها لاول مرة فى هذه المدينة بالذات ، فى وهران ، فى الملتقى الخامس سنة 1391 هـ (1971 م) ، عندما قلنا ان هناك فريقـين اثنين متصارعين ، متضادين : احدهما القطب الشمالى ان شئـــتم ، والآخـر القطب الجنوبى ، ذهنيا ، فى الذهنية · احدهما ينادى ، باسم الاخـــلاق ، وباسم العادات ، وباسم التقاليد ، وباسم القيم ، وباسم المحافظة : أن علينا أن نغلق جميع الابواب ، بل حتى النوافذ ، حتى لا تتسرب الينا تيارات غريبةوأفكار دخيلة ، وحتى لا تنجرف الينا ايديولوجيات،ومذهبيات ، وآراء لا تتفق وما نشأنا عليه ، وما نريد الحـــرص عليه · والآخر يقول ، باسم التفتح ، والتقدم ، والثورية ، والتطورية ، والعالمية ، والمعاصرة ، انه لا ينبغى فقط أن نفتح النوافذ ، والابواب ، بل ينبغى لنا أن نفتح،زيادة عن النوافذ والابواب ، شيئا آخر أيضا ، وهذا هو الاهم ، وبيت القصيد هنا ، وهى السقوف ! ينبغى أن ننزع حتى السقوف !

نحن قلنا لا ، لسنا مع الذين يدعوننا باسم التقاليد ، وتقاليدنا فيها ما هو صالح وما هو طالح ، كما هى فى جميع المجتمعات ، وفى جميع الحضارات ، وكما هى فى جميع الثقافات ، نقول : لســـنا مع الذين يدعوننا باسم التقاليد ، والقيم ، والمحافظة ، الى اغلاق الابواب ، بل وحتى النوافذ ، ويريدون أن نقبع فى الظلمات ، ونختنق لانعـدام الاوكسيجين ، الذى هو اكسير الحياة ، ولا مع أولئـك الذين يدعوننا باسم الثورية ، والتقدمية ، والانفتاحية ، والانبطاحية ، والتطورية ، الى عدم الاكتفاء بفتح النوافـذ والابواب،ويطالبوننا بنزع السقوف والرفوف ! قلنا لسنا مع هؤلاء ولا مع أولئك. لا نريد مع الاولين الاختناق والعماء ، ولا مع الآخرين « الكشفة » والتعرض للزوابع والهزات ! بل نريد ان نجمع بين الفضيلتين ، نريد أن نفتح النوافذ ، وحتى الابواب عند اللزوم ، ولكن نريد إلى ذلك ان نحتفظ بالسقوف والرفوف !

هذا ما نادينا به هنا فى وهران سنة 1971 ، فى الملتقى الخامس ، وهو ما كررناه ، واطلنا فيه ، وأكدناه ، وتوسعنا فيه ، فى اطار نقطة بعينها فى الملتقى الثامن للفكر الاسلامى فى بجاية سنة 1394 هـ (1974 م) ، وهو «الإنية والأصالة مع التفتح والعالمية» ، بأن نفتح النوافذ ، والابواب أيضا عند اللزوم ، على أن نتـــرك السقف على حاله ، ليمنعنا من الزوابع ، ومن الهزات ، والمفاجآت السيئة !

هذا ما قصدناه ، وما نرمى اليه من خلال هذه الملتقيات ، وهذا مغزاها ٠

والسلام عليكم ورحمة الله تعـالى وبركاته ٠





النقطة 1

المجتمع التاهرتى في عهد الرستميين

د. احسان عباس
أستاذ بالجامعة الامريكية
بيروت ـ لبنان
وأستاذ زائر بجامعة برنستون
(الولايات المتحدة الامريكية)



ان قوة النواة الاباضية في تاسيس مدينة تاهرت (تيهرت) وفى انشاء الدولة الرستمية أمر يقبل دون منازعة أو شك ، أو تحفظ ، وخاصة اذ أصبحت تلك الفرقة بعد مقتل الامام أبى الخطاب (سنة 144 هـ) بحاجة ماسة الى ايجاد كيان ذاتى ، جغرافى وادارى ، بمنأى عن نفوذ الاغالبة ، ولكن أولئك الاباضية الذين تعاونوا على تاسيس المدينة كانوا أيضا ينتمون الى عدة قبائل منها لماية ولواتة ورجالة ونفزاوة (1) .

وان الخشية من المنافسة بين رؤسائهم ـ « اذ كان كل قبيل منهم فيه رأس أو رأسان أو أكثر يدير أمر القبيل » ـ (ابن الصغير : 321) (2) ـ هى التى حفزتهم

الى اختيار رئيس ليس له من قبيلة تمنعه أو تتعصب له ، وهذا يعنى ان الرستميين الذين تعاقبوا على حكم تاهرت (من سنة 160 ـ 296) لم يكونوا سوى أسرة حاكمة ، وانهم رغم تكاثرهم حتى أصبحوا يمثلون وحدة من تلك الوحدات الكثيرة التى أصبح يتألف منها المجتمع التاهرتى ، ظلوا يعتمدون على كفايتهم الشخصية وعلى الجند والمحالفات الآتية وروابط الولاء وأحيانا على روابط المصاهرة فى سياسة الدولة ، ومع كراهية الاباضية لمبدأ الوراثة فى الحكم ـ وهو أمر جر الى بعض الانقسامات المذهبية وقوبل أحيانا بالنقد الشديد ـ (3) فان هيمنة الامر الواقع ، أعنى البحث عن حاكم **فاضل ، ليس له سند قبلى** ، هو الذى كان يتحكم الى حد كبير فى اختيار الامام ، وظل كذلك حتى النهاية ، حتى ان مثل هذا السؤال : « هل يكون حاكم من غير الرستميين ؟ » ، استبعد فى كل مرة استبعادا تاما ، لدى جميع الفئات التى يتكون منها المجتمع التاهرتى ، رغم امكان طرحه أحيانا ، ولعل السيرة الفاضلة التى رسمها الائمة الثلاثة الاول عبد الرحمن وعبد الوهاب وأفلح ـ على التوالى ـ هى التى رسخت فى اذهان التاهرتيين على اختلاف انتماءاتهم أن الرستميين ، من الناحية العملية أيضا ، هم خير من يحقق للمجتمع العدالة والامن والمساواة ، ويؤثل الحياة العلمية والعمرانية على أرسخ القواعد والاصول ، وزادتهم يقينا بأن تجرد الرستميين من روابط العصبية هو الذى يقوى اعتمادهم كثيرا على قوتهم المعنوية المستمدة من الدين .

ومع ان العامل الجغرافى من حيث المنعة والحصانة كان أساسيا فى اختيار الموقع الملائم لبناء المدينة ، فانه لم يكن العامل الوحيد الهام ، بل كانت هناك عوامل أخرى كثيرة من أهمها : خصب الموقع وقابليته للاستثمار الزراعى (4) والنمو التجارى (5) برا وبحرا ومنها صيانة التماثل بين العناصر التى سيتألف منها المجتمع ـ على قدر الامكان ـ وكان هذا يعنى ـ قبل كل شىء ـ الاحتفاظ بالنواة الاباضية قوية غالبة فى العدد والتنظيم وكان ذلك أمرا سهلا فى البداية ، لان العناصر السكانية الاولى كانت فى الغالب كذلك ، بل ان تلك النواة زادت قوة بهجرة قبائل نفوسة ، ودعمها للدولة ،

واضطلاعها برعاية المؤسسات الحيوية فى المدينة مثل : اختيار القضاة ، وادارة بيوت الامــوال ، وانكار المنكر فى الاســواق ، والاحتساب على الفساق (337) ، كما كان الشراة (6) رقباء على تصرفات الامام فى أحكامه وصدقاته واعشاره ، ومشايخ القوم مرجعه فى الشورى ، فاذا اجتذبت الجمهورية الناشئة اليها مهاجرين جددا ، فــان هؤلاء كانوا ممن يود ان ينعم ببركات الاستقرار والامن والعدالة والرخاء الاقتصادى ، وهم يدركون تمام الادراك أنهم ينظرون الى ظل دولة قد تختلف عنهم فى المذهب ، ولكنهم كانوا يعلمون أيضا ان الخلافات المذهبية لدى تلك الجمهورية الناشئة التى تتسع ساحة العدل فيها للجميع لا تحل بالتخرب والاستنفار والاحتكام الى السيف ، وانما يتم الخوض فيها عن طريق الحوار الهادى ، ويمثل الواصلية ـ وهم احدى فــرق المعتزلة ـ أول العناصر التى لم تكن تجــد فى السيطرة الاباضية تهديدا لوجودها فكان مجمعهم قريبا من تاهرت ، وكان عددهم نحو ثلاثين ألفا ، يسكنون فى بيــوت كبيوت الاعراب (7) ، وقد كان الحوار مستمرا بين الفريقين ، وحتى حين احتكــم الواصلية الى السيف فى أيام الامام عبد الوهاب لم يكف عــن خطته فى طلبهــم للمناظرة (8) ، وظلت المناظرة مثابة الفريقين بعد ذلك (352) ، وبعد هدوء الفتنة التى كادت تعصف بالدولة أيام أبى حاتم ثاب الناس الى ما ألفوه من هذا اللون من الحوار ، ويحدثنا ابن الصغير عن هذه المرحلة الاخيرة بقوله : « ومن بالبلد من فقهاء الاباضية وغيرهم لم يطالب بعضهم [بعضا] ولا سعى بعضهم ببعض ، وكانت مساجدهم عامــرة وجامعهم يجتمعون فيه ، وخطيبهم لا ينكرون عليه شيئا ، الا أن الفقهاء تناشجت المسائل فيما بينهم ••• ومن أتى الى حلق الاباضية من غيرهم قربوه وناظروه ألطف مناظرة ، وكذلك من أتى من الاباضية الى حلق غيرهم كان سبيله كذلك » (363) ، وهذه الروح السمحة هى التى كفلت التضامن للمجتمع التاهرتى فى معظم أيــام الرستميين ، وساعدت على لأم الجراح التى كانت تسببها الانقسامات أحيانا •

الا أن هذا التماثل السكانى ـ رغم اعتماده على محور ثابت ـ لم يظل كما بــدأ لعــوامل ثــلاثــة :

أولهــا : كثرة العناصر المهاجرة وتعدد انتماءاتها •

وثانيها : الانقسامات الداخلية بين الاباضية أنفسهم ، وتكون فرق جديدة انشقت على الفرقة الام واخذت تناوئها ، مثل النكارية والخلفية •

وثالثها : نشوء طبقة كبيرة من الاثرياء تتحدى قدرة نفوسة على تطبيق الاحكام ، وتمثل ـ رغم انقسامها أحيانا وتضارب مصالحها ـ قوة ضغط اقتصادى وسياسى .

وفى وقت قصير نسبيا تعقد المبنى الاجتماعى فى تاهرت ، على أساس الانتماء المذهبى والقبلى والعرقى والاقتصادى ، وتعددت ضروب الولاء وأنواع التحالفات ، وكثرت الانقسامات والتوجهات بحسب ما تمليه المصالح المختلفة ، وكان مما حال دون انصهار هذه العناصر لا تشبثها بانتماءاتها القديمة وتباعد المسافات بين تلك الانتماءات وحسب ، بل استقلال كل منها فى حى خاص فى المدينة ، ولجوء كل منها ـ بدافع التخوف والحذر ـ الى بناء الحصون التى تأوى اليها اذا شبت نار الفتنة. فبينا تاهرت فى أيام السلم جمهورية نموذجية ، اذا بها فى أيام الفتن شبه مهجورة ، قد غادرها كثير من سكانها ولجأوا الى حصونهم ودب فيها التنافر والتناحر ، فتعطلت فيها المصالح التجارية والعلمية ، وقامت فيها تحالفات جديدة وحاول كل حلف منها ان يقضى على الحلف الآخر .

ويكاد نمو تاهرت ان يكون أسطوريا : ولو صدقنا ابن الصغير لقلنا ان هذا التطور تم فى أقل من ثلاث سنوات ، أيام الامام عبد الرحمن بن رستم ؛ فمن قرية صغيرة ريفية الطابع فقيرة تقبل المساعدات المالية من وفد البصرة لتبنى بها قوة تدافع بها عن نفسها وتشترى الكراع والسلاح اللازم لها وتنعش الفقراء والمحتاجين ، اذا بها مدينة غنية عامرة قد غرست فيها الجنات وأجريت فيها الانهر ، واتخذت فيها الارجاء والمستغلات ، وابتنيت القصور ، وافتليت الخيول ، وكثرت العبيد والخدام ، وأصبحت قادرة على ان تقف فى وجه من تحدثه نفسه بغزوها ، حسبما شاهدها الوفد البصرى الذى زارها مرة ثانية بعد قرابة ثلاث سنوات من زيارته الاولى (324 ـ 325) . وكلام ابن الصغير صحيح فى جملته لولا عامل الزمن ، فان تاهرت بنيت قبل ان يصبح عبد الرحمن اماما بزمن غير قصير ، واستمر عبد الرحمن فيها بعد البيعة مدة تناهز عشر سنوات أو تزيد (160 ـ 168 أو 171) وهذا قد يعنى ان ما شهدته تاهرت من نمو لم يتم فى فترة قصيرة وانه لابد من تصحيح الزمن بين الفترتين اللتين زارها فيهما وفد البصرة .

الا ان هذا النمو نفسه هو الذى شجع تدفق المهاجرين اليها ، وكانت سيرة عبد الرحمن فى اسباغ العدالة واقرار الامن دون تمييز بين المواطنين الاصليين والغرباء عاملا هاما آخر فى توالى الهجرات « فأتتهم الوفود والرفاق من كل الامصار وأقاصى الاقطار فلم يكن احد ينزل بهم من الغرباء الا استوطن معهم وابتنى بين اظهرهم ، لما يرى من رخاء البلد وحسن سيرة امامه وعدله فى رعيته وأمانه على نفسه وماله » (324) وفى زمن الامام عبد الوهاب استمر هذا النمو ، الا ان الصبغة العسكرية غلبت على ما عداها لحاجته الى القضاء على الفتن وتوطيد اركان الدولة ، بل والطموح الى التوسع الخارجى ، حتى اجتمع له من الجيوش ما لم يجتمع لاحد قبله (328) ومع الزمن انضاف الى هذه الجيوش جند هاجروا من افريقية ، وكان الامام يدفع لهم مرتباتهم كغيرها من مرتبات القضاة ورجال الشرطة وغيرهم ـ من مال الجزية وخراج الارضين ، وتلك هى السنة التى سار عليها الامام الاول عبد الرحمن .

وقد بلغ ازدهار تاهرت ذروته فى أيام الامام الثالث أفلح بن عبد الوهاب ، وفى مدة حكمه الطويل الذى امتد ـ فى بعض الروايات ـ خمسين سنة ـ انتقلت تاهرت الى دور التضخم العمرانى من كل النواحى فهى مركز زراعى هام ، وملتقى تجارى ذو شأن ، وهى أيضا مركز علمى ، وذات وزن سياسى ، بل ان التغير قد لحق الامام نفسه فلم يجد حرجا فى ابتناء القصور بعد ان ظل جده يسكن دارا متواضعة يطينها بنفسه اذا احتاجت لذلك ويكتفى من مطعمه بقرصته تلت بالسمن والملح وليس لديه من الاثاث الا حصير فوقه جلد ووسادة ينام عليها (323) ؛ ولقد ازدادت الاموال فى ايدى الناس ، وتنافسوا فى العمران وبلغت المدينة اقصى درجات الاتساع والامتداد ، فالى جانب الاحياء الاصلية التى استوطنتها القبائل ، وشاركها فيها بعض المهاجرين الاوائل ، يمكن ان يميز الناظر اليها فى زمن الامام افلح ثلاث وحدات جديدة : حى الاجناد المهاجرين بكثرة من افريقية وقد أصبح هذا الحى من بعد ـ فى القرن الثالث ـ هو سرة المدينة نفسها ، والعدوة عبر نهرمينة التى بنتها نفوسة ، ومنطقة القصور والضياع واكثرها فى الضواحى ، حيث الجنات والبساتين .

كذلك يستطيع المرء ان يميز ثلاث درجات من الاستيطان والمستوطنين حتى عهد الامــام أفلــح :

1 ـ فهناك الاستيطان الحضرى ويشمل المدينة وسكانها ـ على مختلف انتماءاتهم وقصور الاثرياء منهم فى الضواحى ٠

2 ـ وهناك الاستيطان القبلى المستقر ، وتمثله القبائل التى تحيط بالمدينة من جهاتها المختلفة ، ومنها لواتة وزناتة ومطماطة وهوارة ، وقد ذكر البكرى القبائـل التى كانت تقطن حول المدينة فعد فى جنوبها لواتة وهوارة وفى غربها زواغة وفى شمالها مطماطة وزناتة (9) ولعل هذا الوصف ينطبق على ما كانت عليه الحـال ، فى عهد الامام الثالث ٠

3 ـ والاستيطان القبلى المتنقل وتمثله بعض القبائل التى كانت تقصد الى تاهرت وضواحيها وأحوازها انتجاعا للكلأ فى أيام الربيع ، مثل مزاتة وسدراتة ، وكانوا يأنسون بوجود اخوانهم من القبائل نفسها ممن يقطنون المدينة ، ويجدون لديهم البر والاكرام كلما حلوا (328) ، ولا ريب فى أنهم كانوا يبعثون شيئا مــن الحيوية فى الاسواق التجارية ، حتى اذا انتهى موسم الرعى عادوا الى أوطانهم ٠

وكان الذين يمثلون الاستيطان الحضرى « أخلاطا من الناس » (10) ولعل تسمية تاهرت « عراق المغرب » (11) انما تشير الى كثرة العناصر العراقية التى هاجـرت اليها ، فقد كان فيها كثير من البصريين والكوفيين ، ولكل ناس منهم مسجد معروف بهم ، كما هاجر اليها عدد من القرويين كان لهم أيضا مسجد ورحبة (324) وعدد من الاندلسيين لعل اكثرهم كانوا من البحريين الذين اتخذوا لهم مراكز متعددة عـلى ساحل المغرب ، وشاركوا فى بناء وهران ، ووجدوا فى النشاط التجارى فى تاهرت ومرفئها ما يحقق أهدافهم (12) وكان بعض المنتسبين الى الاندلس اباضيين ، وقـد كان منهم اثنان فى رجال الشورى السبعة الذين سماهم الامام عبد الرحمن ليختاروا اماما من بينهم ، وهما : الفقيه مسعود الاندلسى ، وعمران بن مروان الاندلسى (13) ، ولولا زهد مسعود فى الامامة لوقع الاختيار عليه دون عبد الوهاب ، وفيما عدا ذلك

لا يميز الاندلسيون بدور واضح فى حياة المدينة أو فى الانقسامات التى شهدتها من بعد .

وكانت البنية الاجتماعية فى المدينة تتركب - بشكل رئيسى - من القبائل والعرب والعجم ، اما القبائل فهى التى كانت تمثل العصب الاساسى للمدينة عند تأسيسها ، وتقف بينها لماية ونفوسة موقفا متميزا ، الاولى لحلف قديم بينها وبين عبد الرحمن ابن رستم ، والثانية لمكانتها فى تسيير المصالح المختلفة فى الدولة ، ومن بين هذه القبائل مزاتة وسدراتة ولواتة ، وكلها تسند الدولة وتجد فى استمرارها سندا لها أيضا ، وفى مزاتة يقول الامام عبد الوهاب : « ما قام هذا الدين الا بسيوف نفوسة وأموال زناتة » (14) وهى قولة قد تعنى ان مزاتة كانت ذات ثراء عريض ، ولكن الاهم من ذلك استعدادها للتضحية والسخاء بالمال قل ذلك المال أو كثر ، كذلك ظلت لواتة دائما فى صف الامام الرستمى عند تقلب الاحوال ، وقد زادت رابطتها بالرستميين منذ ان اصهر اليها الامام عبد الوهاب ، وقد بقيت لواتة فى المدينة حتى أخرجتها منها هوارة فى فترة الفتن أيام أبى بكر ، ولا حاجة بنا الى القول ان هذه القبائل كانت اباضية المذهب ، وأما العرب فلا نعرف على وجه التحديد من أين وفدوا، ولا من أين هاجرت أغلبيتهم انتماء ، ويبدو أنهم كانوا من أقطار مختلفة وقد احتفظ أكثرهم بمذاهبهم الاصلية ، وكان معظمهم من الحنفية والمالكية ، واختار بعضهم مذهب الاباضية ومن هؤلاء محمود بن بكر الذى كان يؤلف الكتب فى الرد على مخالفى الاباضية ويرد على الفرق فى مقالاتهم (352) وأما العجم فانهم قد يكونون - رغم غموض دلالة اللفظ - من الفرس ، وليس واضحا كيف جاءوا الى تاهرت ومن أين جاءوا ، ولعل انتساب الرستميين الى الفرس كان مشجعا لهم على الهجرة ، وقد كان لهم دور بارز فى أيام الفتن والانقسامات .

وفى نص ابن الصغير ترد لفظة « المسيحيين » (345 - 359) وأنهم كانوا فى خاصة الامام أبى بكر ، وأنهم كانوا من وجوه أهل البلد ، واشتهر منهم فارس اسمه بكر بن عبد الواحد ، ان موقع اللفظة غريب لأننا لم نألف استعمالها ، وانما تورد المصادر بدلها لفظ « النصارى » على التحديد،أو لفظ « الروم » أو « الفرنجة » ، وقد

قرأها سليمان الباروني « السمحيين » (15) ، ومرة أخرى لا نعرف فى فرق الاباضية فرقة تحمل هذا الاسم وغاية ما يمكن ترجيحه ـ ان صحت التسمية ـ أن جماعة ممن رفضوا انشقاق خلف بن السمح بن أبى الخطاب ، ظلوا يتشبثون بانتمائهم الى السمح نفسه ، وهاجروا الى تاهرت وسندوا الدولة الشرعية ، وكانوا فى خاصة الامام ومن وجوه أهل البلد ، واذا افترضنا ان اللفظة عند ابن الصغير قد تصحفت فهذا لا يعنى وجود فريق من النصارى فى مجتمع تاهرت أو استبعاد وجود عدد من اليهود أيضا ـ لما كان لتاهرت من أهمية تجارية افريقية متوسطة وقد مر بنا أن الامام كان يأخذ مرتبات الموظفين من أموال الجزية والخراج ، ولفظة « الجزية » تستدعى حتما وجود بعض الذميين ، والا كان ذكرها غير ذى معنى ، ولعل من اللافت للنظر ان أعلى موضع فى المدينة كان يسمى الكنيسة ، (كانت دارا لاثنين من أوسع الناس نفوذا فى عصرهما وهما أحمد ومحمد ابنا دبوس (345 ـ 362) .

ومع ازدياد الثروات نمت عند القارين من السكان ، اعنى فى المدينة نفسها وبين القبائل المحيطة بها ، طبقة كبيرة جدا من العبيد والخدم ، وكانت الحركة التجارية مع بلاد السودان ـ عن طريق ورجلان ـ تزيد فى عدد هذه الفئة على الدوام ويمكن للمرء ان يتصور ان هؤلاء العبيد لم يتخذوا للخدمة فى منازل الاثرياء وقصورهم وحسب بل كان يتألف منهم ـ على الاغلب ـ أكثر العاملين فى المزارع والبساتين والارحـاء .

ويتحدث المؤرخ ابن الصغير عن طبقات المجتمع التاهرتى ـ من خلال الاحداث التاريخية ـ على نحو قد يوحى بشىء من الاضطراب ، فهو يذكر « **العوام** » ويذكر الى جانبهم « **أهل الحرف** » (16) كانهم فئتان متمايزتان ، ويضع فى مقابل الفريقين « **القبائل** » (356 ـ 357) ، ثم يتحدث عمن يسميهم وجوه **أهل البلد** ، وعددهم لا يزيد على مائة ، ويصفهم بأنهم حماة البلد وانهم خرجوا منها مع الامام الرستمى ، وبقى فى المدينة « **العامة** »و« **مشايخ البلد** » (359) وبذلك يرسم خطا فارقا بين وجوه أهل البلد ومشايخ البلد ، وفى موضع ثالث يذكر « **وجوه أهل المدينة** » وفى مقابلهم « **القبائل** » « **والاباضية** » ويبدو ان سبب هذا الاضطراب ليس استعصاء بعض هذه

المصطلحات على التحديد وحسب ، بل لان المؤرخ نفسه يتحدث وفى نفسه تفرقة راسخة بين الاباضية وغيرهم ، فهو حين يذكر العوام وأهل الحرف انما يتحدث عن حركة مناهضة للاباضية استبعد فيها أخذ رأى القبائل ، ولعل هذه القسمة ان تشير أيضا الى تمييز بين الاجناس فالقبائل بطبيعة الحال من البربر ، والعوام وأهل الحرف يمثلون ــ فيما يبدو ــ عناصر غير بربرية ، وحين تحدث عن وجود أهل البلد المائة ، فانما كان يعنى جماعة بعينها من ذوى النفوذ ــ ايا كان منتمى افرادها ــ التفت حول أبى حاتم وخرجت معه **بعد خروج العجم ونفوسة** واذن فان من تبقى من العامة ومشايخ البلد انما يشير الى الجماعات غير الاباضية أيضا ، وحين يضع وجوه أهل المدينة فى مقابل « القبائل » و « الاباضية » فانه يستعمل هذا المقياس فى التفرقة كذلك ، غير ان هذه التفرقة لا تدل على ميل المؤرخ بمقدار ما تدل على حقيقة الصراع الدائر أيام الفتن ، فهو صراع بدأ بين الاجناس (العرب ضد العجم) ثم تحول الى صراع مذهبى يريد ان يقرر لمن يكون الفوز بالسيطرة فى المجتمع التاهرتى ــ كما سيجىء تفصيله ــ وهو يدل أيضا على طغيان العناصر المهاجرة ، بحيث لم تعد ترضى بأن تحتفظ النواة الاباضية بقوتها فى توجيه الدولة ، وذلك هو ما أشرت اليه فى أوائل هذا البحث ٠

واذا نحن تجاوزنا ما أملته أوضاع الانقسام فى تمايز الفئات المتناحرة ، وجدنا ان مشايخ البلد ــ باقرار المؤرخ نفسه ــ لم تكن تستقل بهم فئة دون أخرى ، فكان هناك مشايخ من الاباضية ومشايخ من غيرهم ، وان (وجوه البلد) كانوا موجودين فى كل فئة ، ففى العجم مقدموهم ، وفى القبائل على المستوى القبلى ، والمذهبى ــ وفى العرب ، وفى الجند ، وجوه ، وفى طليعة (وجوه البلد) الرستميون انفسهم وهؤلاء جميعا يمثلون ــ فى أيام السلم ــ اصحاب النفوذ ، ومنهم كما يقول المؤرخ حماة البلد والموجهون لسياسته ومصالحه ، سواء أتدخلوا فى ذلك فى الخفاء أو العلن ، وتقابله طبقة العامة ــ وهى تمثل الاغلبية من حيث العدد ، وربما كان معظمها من أصحاب الدخل المتوسط أو من ذوى الملكيات الصغيرة ، وكثير من افرادها لم يكتسب علما أو فقها يلحقهم بوجوه البلد أو بالخاصة ٠ وقد يصح ان نسأل هنا : ما هى نسبة الفقر فى هذه الطبقة ؟ اننا نعرف انه كان فى تاهرت فى الفترة الاولى مــن

تأسيسها فئة من الفقراء والمحتاجين ، ولكن السياسة الاسلامية الراشدة التى جرى عليها الامام عبد الرحمن كانت كفيلة بان تنعش هذه الفئة ، فبعد تقبل المساعدات من وفد البصرة ـ أول مرة ـ وتوزيع ثلثها على المستحقين من فقراء وضعفاء ، أصبح البلد مكتفيا ذاتيا ، اذ نظم جمع الصدقات ، وكان ما يتحصل منها كل عام من الشياه والجمال يباع ، ثم يحصى الامام من فى البلد وحوله ويعرف عدد الفقراء والمساكين « فاذا علم عددهم امر باحصاء ما فى الاهراء من الطعام ، ثم أمر بجميع ما بقى من مال الصدقة (بعد ان يدفع الى عمال الصدقات مرتباتهم) فاشترى منه اكسية صوفا وجبابا صوفا وفراء وزيتا ثم دفع فى كل أهل بيت بقدر ذلك » (327) • وليس من شك فى أن هذه السياسة لم تتوقف ، وان لم ينوه بها على نحو واضح ، لتمسك أكثر الائمة بتطبيق الشريعة تطبيقا دقيقا ، وسيرهم الفاضلة فى خاص حياتهم ، ولوجود الشراة الذين لم ينفكوا قائمين بالامر بالمعروف والنهى عن المنكر ، فى كل مرحلة • بل الطبيعي ان الصدقات زادت وقل المحتاجون ، عندما تعددت فرص العمل، وكثرت الموارد ، فالفقر ـ بالمعنى العام ـ لم يكن داء يهدد المجتمع التاهرتى ، أو يتعذر فيه علاجه • ولكن لابد لنا من ان نتذكر فى هذا الصدد ان نمو الطبقة الثرية واتساع دائرتها قد زاد فى عدد من يتصل بها من الحواشى والاتبـــاع ، وهؤلاء يصبحون مع الزمن عالة على غيرهم ، وأن تعطل تطبيق النظام أيام الفتن كان أيضا يعطل تحصيل الصدقات وصرفها فى الوجوه المقررة وان تملك الفتن كانت تقضى بالحرق والنهب والخراب لا على املاك الاغنياء فحسب ، بل على مقتنيات الطبقـــة الوسطى وما دونها أيضا • وحين كتب ابن حوقل عن تاهرت بعد منتصف القرن الرابع (وكانت دولة الرستميين قد زالت منذ زمن) قال : « وقد تغيرت تاهرت عما كانت عليه ، وأهلها وجميع من قاربها من البربر فى وقتنا هذا فقراء بتواتر الفتن عليهم ودوام القحط وكثـــرة القتل والموت » (17) وقول ابن حوقل ينطبق على الفتن التى شاهدتها تاهرت أيام الرستميين انفسهم ، مثل ما ينطبق على الفتن التى اصابت المدينة بعد عهدهم •

اما الخاصة أو « وجوه البلد » فربما كانت فى البداية تعتمد فى تميزها على النسب، أو على العلم ـ كما كانت حال الفقهاء ، من جميع الفئات ولكن نمو الملكيات وموارد

الثروة خلق طبقة تعتمد فى تميزها على الغناء ، وكثيرا ما كانت العوامل الثلاثة تجتمع معا ، فى تمييز الفرد ، مثلما ان المال وحده كان كافيا ليفعل ذلك وقد وجد اثرياء عن طريق الزراعة مثل ابى جرنى الذى كانت زكاة غلاته آلاف الاحمال من البر والشعير وقيل ان اندر زرعه كان يرى من مسافة أيام كالجبل (18) كما وجد اثرياء عن طريق القنية للمواشى والدواب مثل ابن زلغين الذى يقال انه كان يملك ثلاثين ألفا من الابل وثلاثمائة ألف رأس من الغنم واثنى عشرة ألفا من الحمير (19) غير ان التجارة كانت بوجه خاص هى الباب الواسع الذى دخل منه كثيرون الى طبقة الخاصة ، اذ كانت مجالا مفتوحا يزاوله اناس من جميع الفئات فقد كان عبد الوهاب نفسه تاجرا ، هيأت له تجارته ثراء ضخما ، وقد تحدث عن نفسه وعن أبى جرنى وابن زلغين بقوله : « لو لم اكن الا أنا وابن جرنى وبن زلغين لاغنينا بيت مال المسلمين بما علينا من الحقوق الشرعية (20) وكذلك حاول افلح مزاولة التجارة فى عهد لم يكن فيه قد حصل على كفايته من العلم . (21)

وكان الثراء فى فئة العجم أوضح منه عند غيره ، ولذلك تميزوا ببناء القصور فابتنى ابان وحمويه قصرين لهما باملاق ، وبنا شخص اسمه عبدالواحد قصرا ظل يعرف باسمه من بعد (336) وبلغ من ثراء مقدم العجم المعروف بابن وردة أن كان له سوق كامل، وبلغ من نفوذه أن كان صاحب شرطة الامام افلح لا يجسران يدخل سوقه (336) ومع ان الثرى خلف الخادم كان من الموالى ، فانه استخدم ثراءه فى سند الفئات العربية فى الفتن . وكذلك يمكن ان يعد التاجران الثريان أبو محمد الصيرفى وابن الواسطى من العرب لانهما وقفا معهم فى الصراع بينهم وبين العجم (347) وكان لمحمد بن حماد منزل على بعض اميال من المدينة يقال له الثلث (أو الثلة) قد جمع الاشجار والانهر والمزارع والنخل والقصور (338) وكان محمد بن عرفة الذى قام بدور الحاكم الفعلى أيام ابى بكر بن افلح من كبار التجار ومن ذوى القصور ولديه الكثير من الحشم والعبيد وكان اذا خرج من قصره تجمهر الناس من حوله ، وساروا بين يديه فى مواكب كثيرة (358) وليست هذه الاسماء الا امثلة ضئيلة لطبقة كبيرة أوصلها الثراء الى ان اصبحت ذات اثر بالغ فى توجيه الحياة السياسية فى المدينة .

ولا ريب فى أنه كان هناك كثير من وجوه الخير استغل فيها مثل هذا الثـراء ، لا فى سند الدعوة وحسب ، بل فى مجالات عمرانية أخرى مثل الانفاق على طلبـة العلم ووقف الحبوس على المساجد وانشاء المستشفيات وبيوت الضيافة للغرباء ، اقول هذا على سبيل التقدير ، لان مصادرنا القليلة قد سكتت عن هذه النواحى · لكن تلك المصادر نفسها كانت صريحة فى التحدث عن استغلال تلك الثروات الطائلة فى الصراع بين فـئات المجتمع التاهرتى ·

وليس غريبا ان يبدأ تاريخ الصراع فى أيام الامام افلح ، فان بدايته تتفق وتلك الموجة الطاغية من الثراء ، واشتعل أول الامر بين القبائل المحيطة بالمدينة · ولا يتردد ابن الصغير فى ان ينسب الـبدء باثارته الى الامام افلح نفسه مصورا انه كان سياسة ارتاءها ذلك الامام فقد كان يخاف ان تجتمع الايدى عليه فتزيل ملكه ولهذا ارث العداء بين كل قبيلتين متجاورتين ، فتحركت الخصومة بين لواتة وزناتة وبين لواتة ومطماطة ، ثم امتد الصراع ـ بسعى افلح نفسه ـ فشب بين الجند والعجم وربما كان هذا التصوير قائما على المبالغة أو على تجاهل الاسباب الاخرى التى كانت كفيلة بأن تذكى نـــار العداء بين فريق وفريق ، وابن الصغير نفسه يذكر ان القبائل حول تاهرت كانت قد اكتسبت الاموال واتخذت العبيد والخيول ، ونالها من الكبر ما نال أهل المدينة ، وبعبارة أخرى : استشعرت عظمة الغنى ونعمة الاستقرار معا ، وفى مثل هذا الموقف لم تكن بحاجة الى جهود افلح ليبذر الشقاق فيما بينها ، فان المنافسة وحب الظهـور والحزازات الصغيرة ـ مع عدم الانشغال بمكافحة عدو أو ترقب خطر ـ من شأنها ان تفعل ذلك ، ولو صدقنا ان افلح قد انتهج هذه السياسة ـ لانه لم يكن يعتمد عــلى عصبية ـ فانها سياسة قد تنجح وتؤمن مغبتها ما دام الحاكم قويا ، ولكنها ستكون سببا فى استمرار الفتن ، وعجز الحكام اللاحقين الذين لم يكونوا يتمتعون بمثل قوة افلح ـ عن كبـح جماحها ؟ وهى سياسة من شأنها ان تجعـل الفتـن المتلاحقة ـ فى المجتمعات التى تؤمن بالثأر ـ قانون الحياة لان كل فتنة تصبح ردا على فتنة سابقة ، كلما سنحت الفرصة ·

وتلك هى حقيقة ما اصاب المجتمع التاهرتى بعد افلح فان الانقسامات المختلفة هى التى أصبحت تتحكم فى حياة البلد ومستقبله ، فهناك النزاع بين القبائل ، والضغائن بين القبائل وأهل الحواضر ، ثم هناك الانقسامات والتحالفات بين العناصر التى يتكون منها مجتمع المدينة ٠

وكانت الشرارة الاولى فى ذلك الصراع ثأرا لفرد ـ بدافع العصبية ـ فقد قتل محمد بن عرفة ، صهر الامام أبى بكر ، بتدبير من الامام نفسه وبتحريض من بعض الرستميين ويبدو أن ابن عرفة كان عربيا ، ولذلك قام العرب يطالبون بثأره ، فاصطدموا بالجند المؤيدين لابى بكر ، غير ان هذه البداية ما لبثت ان تطورت الى القتال على أساس عرقى ، فان العجم عندما رأوا فريقى العرب والجند يقتتلان ، ظنوا الفرصة سانحة لاخذ بعض الاحياء العربية على غرة وقالوا : « قد أمكننا فى العرب والجند ومواليهم وأتباعهم ما نريد ، فقوموا بنا مع اشتغالهم بأنفسهم حتى نثب على طرف المدينة فتقتل مقاتلتهم ونخرب ديارهم ونميل على سائرهم فنهلكهم فيعنو لنا السلطان » (345) ، وحين نذر العرب والجند بما يحاوله العجم تهادنوا واصطلحوا ، وقاموا بأجمعهم نحو العجم فقتلوا منهم خلقا كثيرا ٠ وهنا يبرز دور الثرى خلف الخادم الذى كان يعين العرب بماله ، فانه لم يرض عن اجلاء العجم وترك بيوتهم خالية ، بل حرض على حرق تلك البيوت ، وذات يوم دارت المعركة فى درب النفوسيين ، واضرم فيها العرب والجند النار ، وكان بعض الدور لنفوسة ، التى كانت قد اعتزلت الحرب ، فغضبت نفوسة لحرق دورها ، واتحدت مع العجم وضمت اليها أبا اليقظان ومعه الرستميون ، ودارت رحى حرب زبون استغرقت عدة سنوات ، وقد مرت تلك الحرب فى مرحلتين ؛ فى الاولى كان الانتصار لنفوسة والعجم حتى كادوا يبيدون وجوه العرب وابطالهم ، وفى الثانية ضعف العجم ونفوسة والرستميون ، فانحازوا الى عدوة نفوسة ، وبنوا لهم حصنا يلجأون اليه ، ومرة أخرى يبرز دور الثراء والاثرياء فان أغنياء التجار من امثال الصيرفى وابن الواسطى أعانوا العرب ليبنوا لانفسهم حصنا مقابل حصن أعدائهم ٠ وكانت نتيجة هذه الحرب المريرة جلاء المغلوبين عن المدينة : نزل العجم على بعد مرحلتين من تاهرت ، ونزلت الرستمية بموضع يقال له

اسكدال الى جنوب تاهرت ، على مسيرة يوم أو يزيد قليلا ، ونزلت نفوسة بقلعة عرفت باسمها (346 ـ 348) ؛ ومع كل ذلك لم تنطفىء نار الفتنة ، اذ كانت لواتة القبيلة الاباضية لا تزال فى المدينة ، فلما هاجمتها هوارة أعانها من تبقى فى المدينة من السكان ، فاضطرت لواتة الى الارتحال والنزول بحصن يعرف باسمها ، وكاتبت لواتة ابا اليقظان ، فغادر اسكدال وجاء حتى نزل بموضع يقال تسلونت عند منابع نهر مينة ٠

من الواضح اذن ان الحركة بدأت عرقية ، ثم اتخذت شكل الصراع المذهبى ، فان كل من اجتمع حول أبى اليقظان كانوا من الاباضية ، وأكثر من بقى فى المدينة لم يكونوا كذلك وزحفت الاباضية مع أبى اليقظان لاسترداد المدينة وظلت الحرب بين الفريقين مستعرة مدة سبع سنوات ، وهى مدة كافية للقضاء على كل ما كانت بلغته تاهرت من ازدهار علمى وحضارى ٠ وقد تمكن أبو اليقظان من دخول المدينة ، دون مؤاخذة لاحد بما سلف ، وحاول جهده انهاضها من كبوتها واعادة النظام والامن الى ربوعها ، وقد كان أبو اليقظان بحق نموذجا للزهد والورع والتواضع والعدل ومحبة الخير والرغبة فى نشر العلم حتى افتتنت به نفوسة الجبل : « وكان اذا ضرب سرادقه وأتت وفودهم لا ينامون الليل حول فسطاطة شأنهم التهليل والتكبير من أول الليل حتى الفجر ، فاذا صلوا الفجر معه خرجوا بأنفسهم الى الارض فناموا » (354) ، ويبدو أن استعلاء شأن الاباضية اثناء الفترة الطويلة التى قضاها أبو اليقظان فى الحكم ، قد أحنقت بعض أهل المذاهب الاخرى ، وملأت الصدور والنفوس بالتحفز ، ولهذا عمدت تلك الفئات عند وفاة أبى اليقظان الى بيعة امام جديد دون استشارة القبائل والاباضية ، ومن الحق ان الامام الذى بويع كان رستميا بل كان ابن أبى اليقظان نفسه ولكنه كان قبل الامارة قد أصبح ذا شعبية بين فتيان العوام (من غير الاباضية) بل أصبح منقادا لتوجيهات فقيهين حنفيين هما أبو مسعود الكوفى وأبو دنون ، ومعهما شخص ثالث من رؤساء السنة يعرف بعلوان بن علوان (أو رعلان) وكان هؤلاء ـ كما يقول ابن الصغير المالكى أو حسبنا بذلك شهادة ـ « قد طمعوا ان يبيدوا خبر الاباضية ويطفئوهم » (358) ٠

كان ذلك الامام الجديد هو أبو حاتم يوسف بن محمد أبى اليقظان ، ومرة أخرى تتحدد الفتنة على أساس مذهبى ، وتفرغ المدينة من أكثر اباضييها ، اذ جاء كل فريق الى حصنه: الرستميون ذهبوا الى حصنهم بطرف لواتة ، وبقية العجم لجأوا الى حصن خاص بهم ، وكذلك فعلت نفوسة ، وغادر أبو حاتم المدينة ومعه من وجوهها نحو مائة رجل ، وبقيت العامة ومشايخ البلد (طبعا من غير الاباضية) يتوقعون الحرب ، وأخذ من بقى فى المدينة يقولون : « ان القبائل رمتنا عن قوس واحدة ، والاباضية قد كلبت علينا وهم لا يكفون عن حربنا » (360) .

ان حلقات هذا الصراع كانت نتيجة حتمية لطغيان المصالح المتضاربة ، وتجاوزها قدرة الحاكم السياسى الذى يضطر – لعدم وجود عصبية تؤيده أو جيش يسنده – الى الاتكاء على فريق دون فريق آخر . ويبدو ان الجيش النظامى الذى كونه الامام عبد الوهاب كان قد ضعف أو مزقته الانتماءات المتضاربة ، اذ لم نعد نسمع شيئا عن « الجند » بعد جولتهم فى صف العرب ضد العجم أيام أبى بكر .

اننا لا نريد ان نلقى هنا هذا السؤال الذى يوحى بالجواب : ترى كم كانت هذه الصراعات التى تتخذ المذهبية لبوسا لها تخفى مطامح الطبقة الغنية ؟ وقصارى ما يمكن ان نقوله هو ان الاغنياء قد لعبوا دورا بارزا فى كل مرحلة من مراحل ذلك الصراع ، وهكذا حكموا على المجتمع التاهرتى بالشنآت وعلى العمران بالخراب . واهدروا الاموال فى الباطل ، وقضوا على النشاط العلمى بالتراجع ، وفى رسالة لابى اليقظان ما يومىء الى هذه الحقيقة الاخيرة اذ يقول : « واعلمو رحمكم الله ان أهل العلم القائمين بهذه الدعوة قد انقرضوا وقلت الخلوف منهم » (22) . وقد كانت الفتن مجالا للفساد وانتشار الرذائل وظهور السراق وقطاع الطريق ، حقا ان جراح المجتمع التاهرتى كانت تلتئم كلما فاء الناس الى أنفسهم واستأنفوا الحياة الآمنة وعاد التسامح الاباضى ليقول « عفا الله عما سلف » ولكن طول فترة الخلافات تركت المجتمع التاهرتى مسلوب القوة منخوب العزيمة ، وهذا هو ما أدى الى التخاذل الاخير ، وسقوط المدينة – دون مقاومة – فى يد العبيديين .

تعليقـــــات

1 ـ تاريخ ابن خلدون 6 : 112 .

2 ـ كل ما يرد بين قوسين فى النص من اشارة الى الصفحات ، فانه يشير الى تاريخ ابن الصغير المنشور فى Ca سبتمبر 1975 .

3 ـ يورد ابن الصغير لرجل من الاباضية قوله عند بيعته أبى بكر ابن أفلح : « الله سائلكم معاشر نفوسة ، اذا مات واحد جعلتم مكانه آخر وسم تجعلوا الامـــر للمسلمين وتردوه اليهم فيختارون من هو أتقى وأرضى » (340) ولكن ابن الاوز نسب ان الحمـــق والجنون فلم يكن احد يستمع الى كلامه .

4 ـ تطنب المصادر الجغرافية فى وصف ما كان عليه حال منطقة تاهرت من خصب ، فيقول اليعقوبى (البلدان : 20) نقلا عن احد الرستمية وهـو أبو سعيد عبد الرحمن ابن محمد بن ميمون بن عبد الوهاب انه يزرع فيها العصفر والكتان والسمسم وغير ذلك من الحبوب ؛ ويصف ابن حوقل ما فيها من أشجار وبساتين وضروب الغلات (صــــورة الارض : 86) ويكرر الادريسى ما يقوله ابن حوقل (وصف افريقية 60) ويتحدث البكرى عن ثمارها وبخاصة سفرجلها (66) وكذلك صاحب الاستبصار (178) .

5 ـ فى هذا الصدد ، يمكن أن نذكر صلة تاهرت التجاربة عن طريق مرسى فـروخ وغيره بتجارة البحر المتوسط ، ثم يصلاتها بالمشرق والمغرب ، وعلى نحو خاص ببلادالسودان.

6 ـ الشراة فى اصطلاحهم ـ تقريبا ـ لفظ يطلق ويراد به جماعة تتركب مـــن أربعين رجلا فما فوق ذلك ، اشتروا آخرتهم بدنياهم ، بمعنى انهم تخلوا عن الـدنيا ، وعاهدوا الله على انكار المنكر والامر بالمعروف بدون مبالاةولا خوف من الموت (الازهار الرياضية 2 : 210) .

7 ـ البكـــــرى 67 .

8 ـ الازهار الرياضية 2 : 122 ـ 124 .

9 ـ البكـــــرى 67.

10 ـ كتاب البلدان : 14 (ط . ليدن 1860) .

11 ـ المصدر السابق نفسه ، وهذا مختلف ـ في رأيي ـ عن قول المقدسي انها « بلخ المغرب » فالمقدسي انما ينظر الى طبيعة الجو ، وكثرة الخيرات •

12 ـ أنظر بحثا كتبته عن هؤلاء البحريين في مجلة الابحاث (بيروت 1970) •

13 ـ الازهار الرياضية 2 : 99 وتاريخ أبي زكرياء 54 ـ 55 •

14 ـ الازهار الرياضية 2 : 273 •

15 ـ الازهار الرياضية 2 : 231 ـ 269 •

16 ـ يقرن مرة بين « العوام » و « الفرسان » (ص : 357) ولكن النقطة الثانية غريبة ولعلها مصفحة •

17 ـ صورة الارض : 93 •

18 ـ الازهار الرياضية : 137 •

19 ـ مختصر تاريخ الاباضية : 34 •

20 ـ الازهار الرياضية 2 : 137 •

21 ـ ذكر الباروني نقلا عن سير الشماخي ان أفلح عزم مرة على التوجه الى بلاد السودان قصد التجارة • ولكن والده خرج اليه ـ كأنما يودعه ـ واخذ يسأله عن الامور الفقهية المتصلة بالبيع والشراء فلما وجده غير متمكن في هذه الناحية قال له : ارجع يا أفلح عما قصدته حتى تستعد لهذا الامر والا اطعمتنا الحرام من حيث لا تدري (الازهار 2 : 195) والقصة تشير إلى فترة مبكرة لم يكن أفلح قد تمكن فيها من العلم ، ولكنها لا تنفي انه ربما زاول التجارة من بعد •

22 ـ الازهار الرياضية 2 : 241 •

ابن الصغير
مؤرخ الدولة الرستمية

الدكتورة وداد القاضي
أستاذة بالجامعة الامريكية
ـ بيروت ـ لبنان
وأستاذة زائرة بجامعة هارفارد
(الولايات المتحدة الامريكية)



يحتل ابن الصغير مكانة هامة متفردة بين المؤرخين فيما كتبه عن الدولة الرستمية بتاهرت (162 ـ 296) وذلك لعدة أسباب ، أهمها أنه كان من سكان تاهرت أيام جانب من حكم الرستمية لها ، فكان شديد الاطلاع على ما كان يحدث بها ، شديد الصلة بمن يعرف الدقيق من أخبارها ، كما كان في الوقت نفسه من غير المنتمين الى المذهب الاباضي السائد فيها ، فكان قادرا على أن ينظر اليها بعين المعايش لها والمراقب الخارجي لاحوالها في آن معا • فاذا أضفنا الى هذا أن كتابه في أخبار الائمة الرستمية هو أقدم كتاب وصلنا عن دولة بني رستم عرفنا لماذا نفرد صاحبه بالتمييز •• ومن ثم بالدراسة•

وقد تنبه الباحثون من قبل الى أهمية كتاب ابن الصغير ، فقام المستشرق موتيلينسكى بالتنويه به وبتلخيصه باللغة الفرنسية فى أواخر القرن الماضى (1) ، ثم عاد فنشره كاملا مع ترجمته الفرنسية فى أوائل هذا القرن (2) ، وظلت هذه النشرة على علاتها هى النشرة المعتمدة لدى الباحثين ، وقد جرت طباعتها مؤخرا فى المجلة التونسية Cahiers de Tunisie سنة 1975 (3) . كذلك قام كل من **موتيلينسكى وليفيتشكى بعمل** بعض الملاحظات من هذا الكتاب ، وقارناه بغيره من مصادر الاباضية (4) ، وخرجا من ذلك بنتائج جد مفيدة ، وكان ليفيتشكى هو صاحب المقالة التى ظهرت عنه فى الطبعة الجديدة من الموسوعة الاسلامية (5) .

ورغم ذلك كله ، فان موضوع ابن الصغير مؤرخ الدولة الرستمية ما زال مفتوحا لمزيد من الدراسة والتعمق ، وليس هذا المقال الا محاولة متواضعة فى هذا السبيل على قدر ما تسعف به المصادر المتيسرة .

لا تتجاوز معظم معلوماتنا عن ابن الصغير ما قد يستشفه الدارس من بين سطور كتابه التاريخى . أما اسمه فلا نعرف منه سوى شهرته « ابن الصغير » ، وأما أصله فالارجح انه مغربى (6) من مواليد تاهرت (7) وأما سنة ولادته فمن غير الممكن تحديدها بدقة ، وكل مانعرفه عن نفسه فى هذا المجال أنه لحق بعض أيام أبى اليقظان ابن أفلح وامارته وحضر مجلسه فى المسجد الجامع بتاهرت (8) ، وأنه كان صغيرا ينادى بـ « يا بنى » خلال تلك الفترة (9) ، فهذا يعنى ان ولادته يجب أن تكون تمت بين سنتى 265 و 270، نظرا لان أبا اليقظان توفى سنة 281 (10) .

وكان ابن الصغير سنى المذهب ، يدل على ذلك أن أحد الاباضية خاطبه مرة بقوله : « من أين زعمت وزعم أصحابك وغيرهم من الحجازيين والعراقيين ؟.. » (11) — يعنى بذلك المالكية والحنفية وقد أكد الشيخ سليمان البارونى غير مرة على أن ابن الصغير كان مالكيا (12) ، غير انى لم أعثر على ترجمة له فيما وصلنا من طبقات المالكية . ومهما يكن الامر فان ابن الصغير كان صريحا فى تبيان اختلافه عن الاباضية عقيدة عندما قال فى أوائل تاريخه ان يأخذه على القوم براءتهم ممن والاه رسول الله صلى الله عليه وسلم

وقال : من كنت مولاه فعلي مولاه (12) ، فهذا في نظره كاف يدخل المرء في منحى الغلو (13) • وقد دعا هذا الموقف الموالي لعلي بن أبي طالب المستشرق البولندي ليفيتشكي الى الاعتقاد بأن ابن الصغير كان متشيعا « علوي الهوى » (15) الا ان هذا الاستنتاج ليس سليما ، فان حديث « من كنت مولاه فعلي مولاه » من الاحاديث الثابتة الصحيحة لدى أهل السنة (16) •

وقد نشأ ابن الصغير بتاهرت ، وعمل فيها منذ سن مبكرة في التجارة ، اذ كان له دكان يبيع فيه ويشتري في حي الرهادنة منها وهو بعد يتردد على العلماء لطلب العلم (17) • وكان ابرز من اخذ عنهم آنذلك أبو عبيدة الاعرج ، العالم الاباضي الكبير ، الذي كان متضلعا في الفقه والكلام والوثائق والنحو واللغة (18) ، وقد درس عليه ابن الصغير اللغة اذ أنه يصرح بأنه قرأ عليه كتاب اصلاح الغلط لابن قتيبة في جلسات عديدة (19) ، ومن المحتمل انه أخذ علم الكلام أيضا كما سوف ابينه من بعد • ولا نعرف هل درس ابن الصغير الفقه على أبي عبيدة الاعرج ، ولكن الامر المؤكد انه لم يكن يشعر بالحاجز المذهبي بينه وبين الاباضية في دراسة الفقه ، وهو يخبرنا انه أخذ عن بعض الرستميين كتاب مسائل نفوسة الجبل للامام عبد الوهاب بن عبد الرحمن ابن رستم فدرسه ووقف عليه (20) •

هذه الثقافة العربية الاسلامية المتنوعة المتفتحة جعلت من ابن الصغير عالما مرموق القدر بين العلماء بتاهرت ، وكان اختلافه عن الاباضية في المذهب يجعله عرضة للدخول مع علمائها في المناظرات ، فكانت تظهر في هذه المناظرات معرفته الفقهية واللغوية والنحوية ، كما كان جو المناظرات يزيد من حدة مقدرته الكلامية ويجعله اشد اتصالا بالحياة العلمية بتاهرت • وقد روى لنا هو نفسه (21) كيف ناظره الشيخ الاباضي أبو الربيع سليمان في مسألة خيار البنت البكر الصغيرة في الزواج بعد ان تدرك ، وكيف رد عليه وعلى غيره من مناظريه في الموضوع نفسه بما يسند موقف أهل السنة ، فكانت هذه الحادثة شديدة الدلالة على ان المناظرين من الاباضية كانوا يرون له منزلة في القوة بينهم ، وعلى ان ابن الصغير كان ذا نزعة نحو الجدل على طريقة المتكلمين مع مقدرة ظاهرة فيه ، وذلك أمر كان يسعف عليه جو تعدد المذاهب والفرق والاحباس

في تاهرت (22) ، وكثرة المناظرات التى كانتا تعقد بها (23) كذلك كانت هذه الحادثة بينة الاشارة الى معرفة ابن الصغير الدقيقة باللغة وباستعمالات الحروف ، والى انه قد يتخذ من الاباضية مناظريه موقفا لا يخلو من العنف والشدة ·

وقد صرح ابن الصغير انه سجل ما دار بينه وبن « غير واحد » من العلماء حول هذه المسالة فى نقاش ، قال : « وقد جمعت ما دار من جميع ذلك بينى وبينهم مما اعتلوا به ومما يدخل لهم أو ما ذكروه » (24) ، فهل يعنى ذلك انه جمع هذا فى كتاب ؟ ذلك أمر ممكن ، غير ان الكتاب هذا ـ ان كان جمـــع ـ لم يصلنا ، ولا نعرف من مؤلفات ابن الصغير غير تاريخه فى الائمة الرستميين ·

موضوع الحديث فيما يلى :

يغطى تاريخ ابن الصغير أخبار الرستميين منذ ولاية عبد الرحمن بن رستم حتى الولاية الثانية لابى حاتم يوسف بن محمد أبى اليقظان بن أفلح ، أى انه يتوقف عند السنوات القليلة السابقة لانهيار الدولة الرستمية ، ومن ثم لا يظهر فيه أى خبر عن ايامها الاخيرة · وهذا الوضع لا يخلو من الغرابة ، وهو يفترض احد أمرين : اما ان يكون ابن الصغير قد توقف عن كتابة تاريخه لدى هذا الحد لحادث طرأ عليه ، كفقدان الاهتمام بالموضوع ، أو الهجرة من تاهرت ، أو الوفاة ، أو غير ذلك ، واما ان يكـون قد أتم هذا التاريخ ولم تصلنا البقية الباقية منه · ويبدو ان الشيخ سليمان البارونى كان يعتقد اعتقادا جازما بأن الامر الثانى هو الصحيح اذ انه يشير غير مرة « ما وقفنا عليه من تاريخ ابن الصغير » (25) أو « فيما لدينا منه » (26) ويقول مع الاسف على ما فقد ولم نعثر له على خبر كلما بحثنا عنه (27) ·

والحقيقة ان هذا التقدير هو التقدير الصحيح ، ويؤكد نص هام فى قلب تاريخ ابن الصغير نفسه ، وذلك هو القول فى فرس يعقوب بن أفلح الاشقر انه « لم يكن بالمغرب مثله قبله ولا بعده به يضرب المثل الى اليوم » (28) فقوله « الى اليوم » يعنـى بعد مدة غير قصيرة من أيام يعقوب بن أفلح ، ويعقوب هذا كان امام الرستمية مباشرة قبل أبى حاتم يوسف الذى به ينتهى كتاب ابن الصغير ·

من هنا يمكننا القول ان ابن الصغير استمر فى كتابة تاريخه بعد زمن من سقوط الرستميين ، والارجح أنه دون تاريخهم حتى نهايته ، ولم يفقد اهتمامه بموضوعهم ، ولم تحدث وفاته فى أيامهم ، ولا عجب فى ذلك بطبيعة الحال ، اذا تذكرنا انه كان شابا لا يزيد سنه عن 31 سنة عندما سقطت تاهرت ودولتها بيد أبى عبد الله الشيعى سنة 296 . وتجدر الاشارة هنا الى أن هذا التقدير بفترة مما قرره موتلبنسكى تاريخا لتاليف ابن الصغير كتابه ، اذ جعله بعد عشرين سنةتقريبا من وفاة أبى اليقظان (أى فى حدود سنة 201) (29) ، غير أن محاولة تحديد سنة بعينها لكتابة الكتاب أمـــر لا يخلو من التحكم ولا يسعف عليه مـا وصلنا من الاخبار . أما قول ليفينشكى أن الكتاب كتب فى حدود سنة 290 (30) ، فما أظنه يستند الى أسس قوية . على أنـه لابد من الاشارة الى أن ابن الصغير ـ فيما يبدو ـ لم يكتب تاريخه كله دفعة واحدة ، ولا شك فى أن جانبا منه قد كتب والرستمية بعد فى الحكم وتاهرت عـلى ازدهارها المعهود فى ايامهم ، على الاقل حتى فترة ولاية أفلح بن عبد الوهاب (31) .

متى ضاع ما ضاع من هذا الكتاب ؟ ليس هناك من جواب قاطع على هذا السؤال ، الا أنه يمكن الترجيح انه ضاع فى فترة مبكرة نسبيا ، وذلك بدليل ظاهرة غريبة فيما وصلنا منه ، تلك هى ان هذا الذى وصلنا يمثل صورة من الكتاب اختارها احد الناس فى فترة لا نعلمها ، ولا يمثل الكتاب كاملا كما كتبه ابن الصغير . فالكتاب ـ مثـلا ـ ليس له عنوان مؤكد ونص أوله « ذكر بعض الاخبار فى الائمة الرستميين منقول من ابن الصغير (32) ، أو شىء منقول من كتاب ابن الصغير ... » (33) ، وهناك ثلاثة مواطن فيه تدل على حدوث حذف من النص الاصلى منه يعبر عنه بـ (الى أن قال) (34) وكذلك هو الحال بالنسبة لموطنين آخرين يقطع فيهما النص ليضاف ، وقال (35) على أساس العودة الى النص الاصلى لا على أساس العودة الى الرواية . فهذه الظواهر كلها تدعو الى الاعتقاد الجازم بأن ما بين أيدينا هو جانب من تاريخ ابن الصغير نقله عنه أحد الناس ، ولم يتوقف عند فترة أبى حاتم يوسف منه الا لانه لم يجد ما يليها فيه ، وهذا يرجع ضياع القسم الاخير منه فى فترة مبكرة نسبيا .

ويدل ما تبقى من تاريخ ابن الصغير على أن مؤلفه كتبه بدواعي عديدة كانت كافية للتغلب على الحاجز المذهبي بينه وبين من يؤرخ لهم · وأول هذه الدواعي احساسه القوي بالانتماء الى تاهرت المدينة ، وذلك أمر يلاحظه الدارس من أن ابن الصغير يكاد لا يذكر شيئا عن أحوال الرستميين خارج تاهرت ، ويجد المرء صداه في محاولته الدائبة للربط بين أسماء الاماكن من تاهرت كما جاءت في الوقائع التاريخية القديمة وبين اسمائها كما هي عليه في ايامه (36) . كما يجد صداه في تدقيقه الشديد في تحديد الاماكن التي تجري فيها الاحداث في أيامه ، وأوضح مثل عليها وصفه لابي اليقظان في مجلسه ، قال : « وحضرت مجلسه ، وقد جلس للناس **خارج المسجد الجامع مما يلي الجدار الغربي** ·· ورأيته يوما ثانيا في **مصلى** الجنائز ·· وكان اذا جلس في المسجد الجامع جلس على وسادة من أدم مستقبل **الباب البحري** ، وله **سارية تعرف** به يجلس اليها ، ولم يكن غيره يجلس اليها » (37) ، فكأن ابن الصغير كان يؤرخ لتاهرت وليس وحسب للاباضية من سكانها وحكامها ·

كذلك كان من دواعي التأليف في بني رستم لدى ابن الصغير حب الاستطلاع الذي كان يتميز به منذ الصغر فيما يبدو ، ونحن نسمع أنه منذ أن كان صبيا صغيرا ، زمن أبي اليقظان ، شغل ذهنه أن القاضي محمد بن عبد الله ، قاضي أبي اليقظان ، استعفى من القضاء ورفض أن يدلي بسبب استعفائه لابي اليقظان ، ملمحا له تلميحا وحسب الى أن له مآخذ على بعض بنيه · فما كان من ابن الصغير ـ الصبي ـ الا أن اتجه الى مولى لمحمد القاضي هذا ، واسمه سليمان ، وقال له : « ما السبب الذي كره منه محمد بن عبد الله القضاء حتى ألقى الخاتم والقمطر »وشافه ابا اليقظان بما شافهه به؟ (28) ، واذا ذاك أخبره سليمان بالسبب · والذي يبدو لي ان حب الاستطلاع لدى ابن الصغير مع سكنى تاهرت جعلت عنده معينا من المعلومات ما لبث ان وضعها في تاريخه لبني رستم ·

غير انه يجب ألا ننسى ان المكانة العلمية التي حصلها ابن الصغير بتاهرت ، والمناورات التي دخل فيها مع فقهاء الاباضية ، فضلا ، عن صلته بالعلماء لاجل طلب العلم هناك ، وطبيعة التنوع في فئات السكان في المجتمع التاهرتي ، واتصاله بمختلف

هذه الفئات تاجرا صاحب دكان كل هذا قد انشأ نوعا من الالفة الشديدة بينه وبين الاباضية وغيرهم من أصحاب المذاهب بتاهرت ، وجعل الفرق بينه وبينهم يحتل مكانا هامشيا فى قرارة نفسه فلا يتحكم فيه لدى اقدامه على كتابة تاريخهم . بل يجعله أقرب الى ان يكون خاليا من الهوى المذهبى الموجه على وجه العموم .

وكانت مصادر ابن الصغير فى تاريخه تتألف من نوعين أساسيين هما : الرواية الشفوية والمشاهدة . اما المشاهدة فانها لا تبدأ قبل فترة أبى اليقظان ، واما الرواية الشفوية فانها تسيطر على الجزء الاكبر من الكتاب . ولا يسمى ابن الصغير أيا من رواته باستثناء أحمد بن بشير (بشر) فى عهد أبى اليقظان (39) ، ولا يسند رواياتهم سندا مسلسلا خلا فى موضع واحد فى قصة حبس أبى اليقظان ببغداد (40) ، اما فيما عدا ذلك فهو يقول : « حدثنى بعض من أثق به » (41) أو « حدثنى غير واحد » (42) أو « على ما حدثنى به أهل المعرفة » (43) أو « وقد حكى لى جماعة من الناس » (44) غير أنه فى معظم الاحوال ينص على أن من سمع الاخبار منهم هم من الاباضية بالذات (45) (وسماهم مرة « الشراة » (46)) يروونها عن أسلافهم أو آبائهم ، وبذلك يكون معظم تاريخه مأخوذا عنهم ، دون أن يمنعه ذلك من الافادة من أخبار غيرهم وقد نص غير مرة على انه أخذ أخباره من بعض الاباضية وغيرهم .

وقد كانت القاعدة الاساسية فى المنهج التاريخى الذى اتبعه ابن الصغير بالنسبة لروايات الاباضية خاصة ، وللروايات الاخرى اجمالا عامة ، هو الامانة التامة فى النقل . يحركه على ذلك عامل أخلاقى بحت قال : « وكانت له (أى لعبد الرحمن ابن رستم) قصص حكوها ، لا يمكن ذكرها الا على وجهها ، وان تم الصدق فيها ، **ولا أحرفها عن معانيها ، ولا أزيد فيها ولا أنقص منها** اذ النقص فى الخبر والزيادة فيه **ليس من شيم ذوى المروءات ولا من أخلاق ذوى الديانات** » (47) . وقد كان هذا المنهج يفرض عليه أن يثبت أشياء كثيرة ترفع من شأن الرستميين الاباضيين ، وكان هذا يعنى أن قدرا من التمجيد سوف ينال من يغايرونه مذهبا ، وكان هو نفسه واعيا بهذا ، ولكنه كان أيضا مصرا على ان يغلب الامانة فى النقل على اتباع الهوى ، وقد قال بعد أن وضح منهجه كما هو مذكور أعلاه : « وان كنا للقوم مبغضين ولسيرهم

كارهين ولمذاهبهم مستقلين .. ذكرنا سيرهم على ما اتصل بنا وعدلهم فيما ولوه » (49).
وقد كانت نتيجة هذا المنهج ان حفل كتاب ابن الصغير بالاخبار الطيبة عن مختلف الائمة الرستميين فى عدلهم ونزاهتهم وزهدهم وصرامتهم وعلمهم ومكانتهم (50)، كما حفل بالاخبار الطيبة عن مختلف علماء الاباضية أيامهم (51) – ومنهم من قابله ابن الصغير ودرس عليه، كما مر – وكان كتابه فى مواطن عدة تغنيا « طروبا » بما آلت اليه حالة تاهرت من الازدهار فى عهد العديدين من بنى رستم (52).

على أن الامانة العلمية لم تمنع ابن الصغير من ممارسة حسه النقدى للروايات بصفته مؤرخا. فكان يتنبه احيانا الى نقص أساسى فى الرواية ويشير اليه، كما فعل عندما ذكر ان راوية خبر حبس أبى اليقظان ببغداد لم يسم له من كان الخليفة المقتول ولا من كان الخليفة القائم ببغداد آنذاك (53). وكان فى أحيان أخرى يلحظ اختلاف الروايات فيعلق على ذلك بقوله « والله أعلم » (54). فاذا كانت الروايات تدور حول موضوع خطير فى ذاته خطير فى نتائجه وجدته يشعر بالتحرج الشديد، وقد ظهر ذلك منه مرتين : الاولى عندما جاء فى الرواية ان أفلح بن عبد الوهاب عمد الى سياسة « فرق تسد » من أجل أن يسيطر على القبائل المتناحرة، فكان ان أدى ذلك الى تنافر النفوس ووقوع الحرب، وازاء هذا الامر الخطير وجد ابن الصغير ألا بد من أن يبرىء نفسه من نسبة مثل هذه السياسة للامام أفلح فقال : « فيما قالوا، والله أعلم » (55) والمرة الثانية فى قصة تأليب وجوه الرستميين لابى بكر ابن أفلح ضد ابن عرفة فان هذا التأليب أدى الى ان اقترحوا عليه ان يقتل ابن عرفة فقام بتنفيذ نصيحتهم وقتله غيلة. فالرواية هنا ذهبت الى ان أبا اليقظان بالذات هو الذى قام بتحريض أبى بدر على ابن عرفة وباقتراح قتله، ونظرا للمكانة التى كان أبو اليقظان يحتلها – اماما عادلا – فى دولة الرستميين ولدى ابن الصغير نفسه، فان ابن الصغير وجد نفسه يعلق على هذه الرواية بقوله : قالوا، المنفرد بهذا الكلام أبو اليقظان خاصة دون سائر اخوته وأعمامه، فالله أعلم أى ذلك كان (56) كذلك قد يعمد ابن الصغير الى تقصى الحقيقة اذا اختلفت الروايات بشأنها، فاذا اخفق اعترف بذلك، وهذا مذهب يمكن الاستدلال عليه بوضوح من قوله فى المرأة التى تزوجها أبو بكر ابن أفلح هل هى

أخت ابن عرفة أو بنته ؟ « حتى أنا شككت فى البنت أو الاخت » (57) ، وذلك بعد أن تكرر فى الرواية الشك من الرواة فى هذا الموضوع (58) ، فكانه قد حاول استقصاء الامر ولكنه لم يخرج بنتيجة • وعندما كان ابن الصغير يجد رواية مخالفة تماما لما يعرفه يقينا ، كان يثبت نص الروايتين ويذكر ما هو الذى سمعه وعرفه حقا. قال فى قضية افتراق الاباضية زمن عبد الوهاب بن عبد الرحمن : « وعلى يديه افترقت الاباضية وافترق كبراؤهم وتسمى منهم قوم بالنكار ، وتسمى قوم بالوهبية **وهذا الاسم لست أعرفه** ، وقد سمعت أنهم انما تسموا بهذا الاسم لاتباعهم عبد الوهاب • والذى أعرف من أسمائهم على ما حدثنى به أهل المعرفة ••• فرقة منهم يسمون باليزيدية ، يريدون من اتبع عبد الله بن يزيد ، وبالعمرية ، يريدون من اتبع عيسى بن عمر وبعده أحمد ابن الحسين » (59) •

على أن ابن الصغير كان – على وجه العموم – قليل التدخل بشكل مباشر صريح فى الروايات التى يرويها عن غيره وحيث أن معظم هذه الروايات كان قصصى الطابع فقد جاء تاريخه والعنصر القصصى أغلب عليه ، كما أشار الى ذلك الاستاذ موتيلنسكى (60). وهذا الاتجاه أضعف الناحية التقريرية الصرف فى الكتابة الا أنه – بالمقابل أكسبه تفردا عظيما بين المؤرخين اذ منح كتابه قدرا « كبيرا » من التفصيلات وقدرا أكبر من الحيوية والقدرة على الايحاء بالاستنتاج بدلا من التحكم فى الاستنتاج من الاصل • وانما يعود الفضل الى ابن الصغير فيما تعرفه من تفصيلات عن وفد أحل البصرة الاول الى تاهرت ، ثم وفدهم الثانى اليها زمن عبد الرحمن بن رستم (61) ، وكذلك الامتحان الاول الذى امتحن به الشراة أفلح بن عبد الوهأب (62) ، وعن الاحداث التى وقعت لابى اليقظان ابن أفلح ببغداد (63) ، وعن قصة أبى بكر ابن أفلح مع محمد بن عرفة ، وما نتج عن ذلك من أمور خطيرة (64) ، وهذه القصص تتضمن – زيادة على التفصيلات – جملا شديدة الايحاء للقارىء ، كما جاء فى كيفية اختيار أبى بكر للامانة « واجتمعت الاباضية فلم يصيبوا فى اولاد أفلح اذ فقدوا أبا اليقظان ارجح عندهم من ولده أبى بكر» (65) أو كما جاء فى أحوال الناس والقبائل زمن أبى بكـر « والكلمة واحـدة مجتمعة ،

والدعوة واحدة ، والناس مقيمون على أحوالهم ، الا أن الضغائن بين القبائل وأهل الحواضر فى الصدور على ما كانت عليه أيام أبيه»(66) ٠

على انه يجب الا نبالغ فى وصف روايات ابن الصغير عن غيره بالقصص فان جانبا لا بأس به منها كان تقريريا ٠ اخباريا الى حد بعيد ، ولعل أفضل النماذج عليه ما جاء فى وصف حال أبى اليقظان زمن ولاية أخيه أبى بكر ، فقد جاء فى الرواية عنه :

« فصرف النظر فى المدينة وأحوازها الى أخيه ابى اليقظان مع ما ظهر له من الكفاية مع أدب المشرق والاخذ بالحزم فيما رآه من ولاية بنى العباس وسيرهم ٠ وكان أبو اليقظان يركب الى أعلى مسجد فى المدينة فيجلس فيه ، فمن تكلم اليه من الناس عن العمال والقضاة وأصحاب الشرطة، نظر فى ذلك نظرا «شافيا» ، وأجرى الحق على من رضى وسخط ، عظم قدره أو صغر ، ولم تأخذه فى الله لومة لائم ٠ فحمد له الشراة ذلك ٠ وحمد له أخوه فعله ٠ فاذا كان آخر النهار ، دخل عليه وأعلمه بما حدث فى يومه من خبر وحكم ، وان لقيه مشتغلا قال لمن علم انه يصل اليه : اقرأ على الامير السلام وقل له : أصبحت مدينتك اليوم هادئة وأمست هادئة ٠ واذا كان فى الليل ركب وطاف فى المدينة حتى اقصاها ، ويحكم فى الامر الضرورى ، ويأمرهم اذا حدث حادث ان يوافوا داره ٠ فاذا حكم جميع ذلك انصرف الى داره ٠ فاذا كان بالغداة ، غدا الى باب أخيه فان وجده جالسا أعلمه بما كان فى المدينة من حدث ان كان حدث ، وهدوء ان كان هدوء ، فلم يزل كذلك حتى جلب قلوب الناس واستراءت اليه ومالت » (67) ، وحتى فى هذا النموذج التقريرى تظهر لنا ميزات روايات ابن الصغير فى تفصيلاتها المفيدة وحيويتها الموحية ٠

على أنه كانت هناك ميزة أخرى لروايات ابن الصغير عن غيره ، وذلك بخاصة فى الروايات التى رواها عن غير الاباضية ـ وأحيانا عن الاباضية انفسهم ـ وذلك انها اظهرت الجانب السلبى من سير الائمة الرستميين ، فكشفت بذلك عن جانب من تاريخ الرستمية ربما لم تكن لترضى ان تكشف عنه المؤلفات التاريخية الاباضية الصرف ايامهم ، وذلك جانب لم يكن ابن الصغير يتحرج من روايته بسبب أنه لم يكن اباضيا ، كما انه كان يظهر أنه بتدوينه يتمشى مع « الامانة » التاريخية التى كان يتمسك بها ٠

ولعل ابرز نموذج يعطى فى هذا المجال ، الرواية التى رواها عن « جماعة من الاباضية وغيرهم » فيما يتعلق بولاية أبى بكر ابن أفلح وقصته مع محمد بن عرفة ، فانهـا احتوت على عبارات جارحة فى حق أبى بكر ، مثل « فكانت الامارة بالاسم لابى بكر وبالحقيقة لمحمد بن عرفة » (68) ، ومثل « وكان أبو بكر يحـب اللذات ويميل الى الشهوات » (69) ، كما انها تضمنت ــ كما سبقت الاشارة اليه ــ تصويرا تفصيليا لكيفية مقتل ابن عرفة بالحيلة بتدبير أبى بكر (70) ، وما حدث على اثر ذلك من حروب طاحنة بين مختلف الفئات بتاهرت ــ تلك الحروب التى بدأت بهدف واضح ، لكنهـا ما لبثت أن تحولت ــ بنص ابن الصغير ــ الى تعبير عن « حمية الجاهلية » (71) ، والى قتال ينشب « سمعة ورياء » (72) ٠

وكما كانت روايات ابن الصغير عن غيره حافلة بالتفصيلات والحيوية والقصص والكشف عن مساوىء الرستميين فضلا عن محاسنهم وحفلت التقارير التى رواهـا مشاهدة أو معاصرة بهذه العناصر نفسها ، ولعل أفضل ما يمكن ان يمثل هذه العناصر مجتمعة ما رواه من سبب استعفاء القاضى محمد بن عبد الله ، قاضى أبى اليقظان من القضاء ٠ وقد مر من قبل كيف قاده حب الاستطلاع الى معرفة تفصيلات هذه المسألة فلما سأل عنها سليمان مولى القاضى أجابه بان جارية لجأت الى القاضى مرة فى الليل وشكت اليه ان زكريا ابن الامير أبى اليقظان أخذ ابنتها من بين يديها ، وان ابنها لم يرض ان يلحق بابن الامير خوفا من أن يعمد عامل من عماله أو لص من لصوصه الى قتله ٠ فغضب القاضى غضبا شديدا ، وقام فى الليل يبحث عن زكريا ليحضر البنت لامها منه ٠ وعندما لم يجده ، أوصل الام الى بيتها وذهب فى اليوم التالى الى أبى اليقظان ورمى بخاتمه وقمطره اليه ، وترك منصب القضاء (73) ٠ فهذه القصة تظهر الجانب الايجابى من دولة الرستميين (تحرى القاضى) والجانب السلبى أيضا (عدوان زكريا ابن أبى اليقظان) فى تفصيلات كثيرة شديدة الحيوية ، قصصية الطابع ، عظيمة الايحاء .

على ان مشاهدات ابن الصغير اعطت كتابه فيما دونه عنها بعدا جديدا نابعا من طبيعة صلته هو بالناس فى تاهرت زمن الرستميين ٠ عالما فقيها ، وذلك أمر لم يكن قد ظهر فى أى من الروايات التى نقلها عن غيره فيما يتعـلق بالفترة قبل حـكم

أبى اليقظان . فقد صور لنا فى تاريخه بحيويته المعتادة جانبا لا يستهان به من الحياة العلمية بتاهرت ايامه فذكر لنا عددا من علمائها من الاباضية ووصفهم وصفا دقيقا . فعيسى بن فرناس (أو فناس) « عندهم من الورع بمكـان » (74) وابن الصغير (أو ابن الحفير) كان « لسانهم فى الفقه ، ولم يكن فى ورع عيسى » (75) ومحمود بن بكر كان غالبا فيهم تذكر عنه البراءة من أمير المؤمنين على بن أبـى طالب ، وكان مدرعهم الذى يذب عن بيضتهم ويدافع عن دينهم ويرد على الفرق فى مقالاتهم ويؤلف الكتب فى الرد على مخالفيهم » (76) ، وعبد الله بن اللمطى صدرهم فى التناظر مع المعتزلة (77) وأبو عبيدة الاعرج ، أستاذ ابن الصغير ، « كلهم مقرون له بالفضل ، معترفون لــه بالعلم ، مسلمون له بالورع اذا اختلفوا فى الامر من الفقه أو من الكلام ، صدورا عن رأيه ، وقد رأيت أنا هذا الرجل وجلست اليه فما رأيت فى سود الرؤوس رجــلا أخشع منه » (78) ، وعبد العزيز بن الآوز « كان له فقه بارع وله رحلة نحو المشرق ، ولكنه سفيه اللسان خفيف العقل ، ينزهون مجـالسهم عن حضوره ويستغنون عنه فى معضلات مسائلهم » (79) . وقد ذكر ابن الصغير الى جانب العلماء عددا من خطبـاء الاباضية المقدمين زمن أبى حاتم ، وهم ابن أبى ادريس وأحمد التيــه وأبو العباس ابن فتحون وعثمان بن الصفار وأحمد بن منصور (80) ، ولم يقوم ابن الصغير كـلا منهم ، ولكنه تحدث بتطويل نسبى عن الخطابة زمن الرستميين مشيرا الى أن الخطباء كانوا لا يستعملون الا خطب على بن أبى طالب ما عــدا خطبة التحكيم ، وحتى هذه الخطبة أقر بعضهم استعمالها مرة (81) كذلك اهتم ابن الصغير ـ فقيها عالما مناظرا ـ بتدوين شىء عن المناظرات التى كانت تعقد بين الفرق ، واعطــى نموذجين منها فى تاريخه . واحدة جرت بين ابن اللمطى وبعض المعتزلة (82) ، وأخرى جرت بينه هو نفسه وبين بعض الاباضية ، وقد مرت الاشارة اليها (83) . وقد لاحظ فى هذا المجال كثرة الاخذ والرد والنقاش بين مختلف الفئات المذهبية التى كانت تسكن تاهــرت واعطانا نصا دقيقا جدا عنها زمن أبى حاتم حين قال : « ومن أتى الى حلق الاباضية من غيرهم قربوه وناظروه الطف مناظرة ، وكذلك من أتى من الاباضية الى حـلق غيرهم كان سبيله كذلك » (84) .

بقى أن يتوقف الدارس ليتساءل : هل كان ابن الصغير فى رواياته عن غيره مجرد ناقل أمين يكرر ما يسمعه ببساطة متناهية ـ كما يشير اليه الاستاذ موتيلينسكى (85) . ولا يتدخل الا حيث تدعو الحاجة القصوى الى التدخل ؟ وهل كان فيما رواه عن مشاهداته يسجل تسجيلا عشوائيا ما يراه ماتا بصلة الى تاريخ الائمة الرستميين فهو من ثم له مكان فى كتابه عنهم ؟ وبكلمات أخرى : هل كان ابن الصغير مجرد راوية للتاريخ أم أنه كان مؤرخا ذا فهم معين للتاريخ • يرى التاريخ بواسطته خاضعا فى تطوره لعوامل بعينها تتحكم فيه تحكما شبه حتمى وتقرر بذلك النهاية التى سوف يؤول اليها فى مرحلة ما من حياة أمة ما ؟ ان الراوية للتاريخ والمؤرخ كلاهما يتحكمان فى مدوناتهما عن طريق ما يختارانه دون غيره ليكون جزءا من تاريخهما ، وانما الفرق بين الراوية للتاريخ والمؤرخ ان الاول منهما لا تنتظم اختياراته أية قواعد فكرية ، ثابتة تفسر ما مضى من أحداث التاريخ وتنبىء بما سوف يقع منها فيه وذلك على عكس الثانى • فاين مكان ابن الصغير فى هذا كله ؟

ان القراءة الدقيقة لتاريخ ابن الصغير تدل على أن ابن الصغير لم يكن مجرد راوية للتاريخ وانما كان مؤرخا حقا يعى تماما ما الذى يريد ان يدرجه فى تاريخه عن الروايات وما الذى يريد أن يحذفه منها منه ، وانه كان صاحب تصور واضح لبنية الدولة الرستمية منذ نشأتها ، ولماهية الاسس التى قامت عليها ، وكيف كانت هذه الاسس تحمل فى طياتها عناصر قوتها وضعفها معا ، فكانت مسؤولة عن صعودها السريع أول الامر ، ثم عن انحدارها باتجاه الانهيار فيما بعد •

فمنذ الصفحات الاولى التى تتعرض لفترة عبد الرحمن بن رستم ، مؤسس الدولة الرستمية نجد انفسنا أمام روايات معينة ـ تحكم ابن الصغير باختيارها دون شك ـ تبين طبيعة فهم ابن الصغير لاسس هذه الدولة • ونظرا لاهمية هذا القسم ، لابد من التعرض لرواياته بشىء من التفصيل • ففى قضية تنصيب عبد الرحمن بن رستم ، يورد ابن الصغير رواية واحدة تنص على ان السبب الذى دعا الاباضية الى اختيار عبد الرحمن للامامة من دون سائر مشايخ الاباضية أنه « لا قبيلة له يشرف بها ولا عشيرة له تحميه » (86) • فذلك من شانه أن يمنع حدوث الاختلافات بين القبائل

والعشائر الذين يكونون عصب السكان للدولة الجديدة . فهذه الرواية تبرز عامل تعدد القبائل فى المجتمع الجديد ، وتتخوف (أو تتوقع) حدوث اختلافات فيه قائمة على العصبية القبلية السائدة فيه ، وتنبىء بشكل غير مباشر بدخول عنصر جديد على المجمع هو عنصر الرستمية ، وفى الوقت نفسه تجعل من عامل الرابطة العقيدية عاملا ثانوى المكانة الى حد ما بين العوامل التى تنحل فيه ، وذلك خاصة باهمالها العامل « المذهبى » فى شخص ابن رستم ، داعيا من دعاة أبى عبيدة التميمى الى المغرب وعاملا لابى الخطاب على افريقية (87) . كذلك يورد ابن الصغير بتطويل كبير الرواية عن قدوم وفدين من أهل البصرة من الاباضية الى تاهرت زمن عبد الرحمن بن رستم (88) وهى رواية تبرز دور المال فى تغيير المجتمع التاهرتى الناشىء ، وتبين كيف قاد هذا العنصر الى انتعاش تاهرت انتعاشا اقتصاديا هائلا ـ عمرانا وتجارة ـ ثم كيف جعل هذا الانتعاش تاهرت مستقطبا لمختلف الاجناس من الناس ، من الكوفة ومن البصرة ومن القيروان وغيرها ، فاستقروا بها استقرارا ، نهائيا ، مضيفين بذلك الى المجتمع الجديد عناصر جديدة غير قليلة . كذلك تفسح روايات ابن الصغير مكانا كبيرا لسيرة ابن رستم فى الناس وتبرز مدى عدله وزهده وبساطة عيشه وعدم استسلامه الى الحياة المرفهة عندما أصبح المال متوافرا بكثرة فى مدينته (89) .

ان هذه الروايات ـ مجموعة ـ تدل على خط واضح فى التصور من جانب ابن الصغير لاساس الدولة الرستمية ، اذ هو يقوم على قطبين رئيسيين متوازيين هما : التعدد فى الاجناس والقبائل المكونة لها ، والدور الاساسى الذى يقوم به المال فى تكوين شخصيتها . واذا كان القطب الاول يحمل فى ذاته خطر التنافر والتصادم بين الفئات المختلفة ـ عصبية قبلية أو عرقية أو مذهبية ـ وكان القطب الثانى يحمل فى ذاته خطر الاستسلام الى الرفاهية والتنافس وسوء الاستعمال ، فان صمام الامان فى الوضع كله هو حسن سيرة الامام فى الرعية على أساس من الدين القويم ، وامساكه بزمام الامور حتى لا تختل فيقع المحذور الكامن وراء القطبين المشكلين لها . اما ناحية العقيدة ـ الاباضية بطبيعة الحال ـ فانها لا تشكل قطبا أساسيا فاعلا فى هذه الدولة ـ بحسب هذا التصور .

وقد قام ابن الصغير ــ انطلاقا من هذا التصور لاساس الدولة الرستمية ــ بحصر رواياته عن الائمة الرستميين بعد عبد الرحمن فى اطارات ثلاثة هى : تعدد الاجناس ودور المال وسيرة الامام ، كما كانت الاحداث كلها تقريبا تفسر فى تاريخه على أساس من وجود التوازن أو الاختلال فى واحد من هذه العوامل ، أو فيها جميعا فى آن معا ·

فالافتراق المذهبى الاول فى فترة عبد الوهاب بن عبد الرحمن ليس له أساس دينى عقيدى صرف ــ كما هو لدى أبى زكريا مثلا (90) ــ وانما هو ناشئ عن قيام الحزازات بين قبيلة مزاتة وغيرها من القبائل من ناحية وبين الرستمية من ناحية أخرى فى قضية من يتحكم باختيار ولاة الامور (91) · والافتراق المذهبى الثانى أيضا ناشئ عن تحرك العصبية فى بعض قبيلة هوارة ضد عبد الوهاب ورهطه (92) . وكلا الافتراقين ادى الى قيام الحروب بين الفئات المتصارعة · كذلك تعزو روايات ابن الصغير الاستقرار الذى نعمت به الدولة الرستمية زمن أفلح بن عبد الوهاب الى توفر عنصر المال توفرا عظيما بين الناس ، من ناحية (93) حتى أن القبائل أصابت منه الشئ العظيم (94) ، والى تمكن أفلح ، من ناحية أخرى ، من السيطرة على ملامح ثورة العصبية والتنافس فى جمع المال والاستقواء به فيما بين القبائل وأهل المدينة عن طريق سياسة (فرق تسد) (95) · غير أن أفلح ، بعدم اقتلاعه الحزازات بين الفئات من جذورها ، ابقى لخلفه تركة من « الضغائن فى الصدور » ــ على حد تعبير ابن الصغير (96) ــ وقد انفجرت تلك الضغائن بالفعل زمن ابنه أبى بكر ، وخاصة لانه لم يستطع ان يكون مثل أبيه :القطب الذى يمسك بالخيوط جميعها بقوة فى يده ويحفظ لها توازنها ، لميله الى اللهو من ناحية ولاقدامه على الخطأ المميت بقتل ابن عرفة من ناحية أخرى (97) · ولقد افلت زمام الامور تماما زمان أبى بكر ، ولجأ هو نفسه الى عصبيته من الرستمية والمسيحية (أو السمحية) يتقوى بها على القبائل والفئات المناوئة له، وثارت العصبية ما بين العرب والعجم ، وتطورت الامور حتى دخلت نفوسة فى حومة الصراع الفئوى ، واشتركت فيه لواتة ضد هوارة . ولعب المال هنا دورا سلبيا وذلك بتذكيته نار الحرب ، اذ أخذ بعض التجار الكبار يعطون العرب والجند الاموال لبناء حصن أمين (98) ، فيما أخذ أبو اليقظان ــ أخو أبى بكر ــ يوزع الاموال

التى أتى بها من العراق على الناس لاجل استئلافهم (99) • واستمر هذا الحال مـدة سبع سنين ، وانتهى بتغلب الفريق المناوىء لابى بكر ، فسلم هذا الفريق الامامة الى أبى اليقظان (100) • وتمثل فترة حكم أبى اليقظان فى تاريخ ابن الصغير فتـــرة مماثلة لفترة حكم أفلح بن عبد الوهاب فى الاستقرار ، وكان العامل الذى عـــزى اليه الاستقرار بها شخصية أبى اليقظان وحسن سيرته وتمكنه من حفظ التوازن بين مختلف الفئات فى دولته • غير أنه لدى وفاته ، عاد هذا التوازن الى الاختلال ، وكان الاشعار به قيام بعض الفئـات مـــن العمال والفرسان وأهل الحرف بتقديـم ابى حاتم بن ابى اليقظان للامامة من دون مشورة القبـائل وغيرها (101) . فعـادت العصبيات مرة أخرى الى حومة الصراع الدامى ، وصارت الاباضية تشكل فـــريقا ذا عصبية واضحة الملامح ، وكثرت التحالفات والتعصبات ودخلت الصفرية وصنهاجة معترك الصراع ، وقام المال ــ مرة أخرى ــ بدوره فى اذكاء نار العصبيات (102) ، وانتهى الصراع بانكسار شوكة فريق الاباضية الموالى لابى حـــاتم ، فعندها أعطيت الامامة الى عمه يعقوب بن أفلح (103) • ولكن الحرب استمرت ولم تنته الا بهدنة ، واعيد أبو حاتم الى الامامة • وهذه المرة كان قد تعلم درسا هاما مفاده أن المجتمع الذى يكون دولته يتألف من فئات عديدة لابد من مراعاتها ، فقام على اثر عودته باستشارة الاباضية وغير الاباضية فى كل من أراد أن يوليه الامور : القضاء والشرطة وبيـت المال (104) ، وبذلك عاد التوازن الى البلاد ونعمت بشىء من الاستقرار ، وانصـرف الناس بها الى العلم ، وبهذا ينتهى ما وصلنا من تاريخ ابن الصغير •

لقد بنيت الدولة الرستمية ــ فى تاريخ ابن الصغير ــ على أساس من الوعى بعنصر تعدد القبائل والفئات ، وأراد البانون لها ان يتفادوا نتائج هذا التعدد ، فوقعوا فيه رغما عنهم • كذلك كان المال عنصرا من العناصر الاساسية فى نهضتها ورفعة شأنها بين البلاد ، الا أنه كان أيضا عنصرا من عناصر اذكاء نار الصراع فيها ، عندما كان هذا الصراع يشتعل • وكان صمام الامن دائما للامور كلها ، ان يكون على رأس الـدولة امام يعمل بمقتضيات الدين القديم ويمسك خيوط الدولة المتفرقة بيد قوية • فلما

كان هذا العنصر يغيب فى الدولة الرستمية ، كانت العصبيات تثور ويختل التوازن ، وتقع تاهرت وضواحيها طعمة لحروب طويلة دامية ٠

ولا شك ان فهم ابن الصغير لتاريخ الرستمية قد أعان عليه أنه عرف أخبارها ممن عاشوا فى ظلها منذ نشأتها ، وظل حيا حتى شهد نهايتها ، فكان مؤهلا لكى تكون لديه القدرة على صياغة تصور عام لها ٠ ولكنه ، لولا كفايته الشخصية مؤرخا حقا ، صاحب نظرة واضحة الى الامور ، لما استطاع ان يعطينا تاريخا قيما تفسر فيه الاحداث على أساس قواعد ثابتة لا تتغير من أول الدولة حتى نهايتها تقريبا ٠ وهذا كله لا يعنى بطبيعة الحال ان ابن الصغير كان متكامل النظرة سليمها مائة بالمائة ، فان كل صاحب موقف فكرى لابد أن يغلب بعض جوانب الامور على جوانبها الاخرى ، وتلك هى الضريبة التى يدفعها أى ملتزم فى أى حقل كان ٠ فابن الصغير ـ بتغليبه المقياس الواقعى المادى ـ اذا صح التعبير ـ قد جار على المقياس الدينى الروحى فى نظرته الى الدولة الرستمية ، وهذا لا شك له علاقة بعدم انتمائه الى الاباضية فى نهاية المطاف ، ولذلك كان على كتاب الاباضية من بعد أن يبرزوا هذا الجانب من الدولة الرستمية الذى مر عنه ابن الصغير مرورا خاطفا ٠

غير أن هذا كله لا يقلل من قيمة كتاب ابن الصغير ٠ وقد اعترف كتاب الاباضية أنفسهم له بالاهمية ، ونقل عنه نقولا كثيرة كل من أبى زكريا والبرادى وصاحب الجواهر المنتقاة والشماخى (150) ، ومجده الشيخ سليمان البارونى فى العصر الحديث (106) ٠ وان لم يكن لابن الصغير سوى فضل الاخبار الامين ، مع التقدم فى الزمن والمعاصرة للاحداث والنقل الصادق عن مشايخ الاباضية أنفسهم ، لكفاه هذا قيمة مؤرخا نزيها ومؤرخا حقا ، ولغفر له ما فى كتابه من عدم الاهتمام بذكر التواريخ بعامة ، وعدم الدقة فى تعداد سنوات حكم كل من الرستميين ، وعدم تعرضه لاخبار الرستمية خارج تاهرت ٠

الملاحظات

(1) A. de C. Motylinski, « Bibliographie du Mzab. Les livres de la secte Abadhite », *Bulletin de Correspondance Africaine*, iii (1885) pp. 30 35.

(2) A. de C. Motylinski, « Chronique d'Ibn Saghir sur les imams rostemides de Tahert », *Acte du XIV Congrès des Orientalistes* (Alger, 1905). Troisième partie (suite) : « Langages musulmanes (arabe, persan et turc) » (Paris, 1908). pp. 3 - 132.

(3) « Chronique d'Ibn Saghir sur les imams rostemides de Tahert », *Cahiers de Tunisie*, 91 - 92 (Septembre, 1975), pp. 315 - 368.

وهذه النشرة من تاريخ ابن الصغير هى النشرة المعتمدة فى هذا البحث ٠

4) أنظر بالاضافة الى المصدر المذكور فى الملاحظة الاولى أعلاه :

Lewicki, T. : « Les historiens, biographes et traditionalistes ibadites - wahbites de l'Afrique du Nord du VIII[e] au XVI[e] siècle, » *Folia Orientalia*, iii (1961 - 1962), pp. 105 - 6. Lewicki, tadeusz, « The Ibadites in Arabia and Africa » , *Journal of World History* (UNESCO) XIII/1(1971), pp. 51 - 130.

(5) Lewicki, T. « Ibn al-Saghir » , *Encyclopaedia of Islam* (new édition) III p. 924.

6) أنظر مثلا جهله التآم بالتاريخ المشرقى فى تاريخه 227 ٠

7) يدل على هذا أنه يجهل موقع واحدة من أهم المدن غير البعيدة عن تاهرت ، وهى مدينة تلمسان (تاريخه 328) ٠

8) ابن الصغير 352 ٠

9) المصدر نفسه 350 ٠

10) أنظر المصدر نفسه 356 ، وأنظر أيضا الازهار الاباضية فى أئمة وملوك الاباضية للشيخ سليمان بن عبد الله البارونى (مطبعة الازهار البارونية ، لا. ت) ، القسم الثانى 265 الموسوعة الاسلامية 2 ، 924 ٠

11) ابن الصغير 362 ، وفى النص : العراق ، وهو سهو ٠

12) الازهار الرياضية 2 ، 41 و 76 و 84 و 290 ، وتبعه فى هذا عبد العزيز سالم فى كتابه المغرب الكبير (القاهرة) 2 ، 548 ، الحاشية رقم 1 ٠

13) ابن الصغير 322 ٠

14) المصدر نفسه 352 ، قال معلقا على محمود بن بكر : » وكان غالبا تذكـــر عنه البراءة من أمير المؤمنين على بن أبى طالب « .

15) أنظر الموسوعة الاسلامية 2 ، 924 ومقالة ليفيتشكى الاخرى: «Les historiens» P. 105

16) أنظر الحديث فى الترمذى (مناقب 19) وابن ماجه (مقدمة 11) وابن حنبـــل 1 ، 84 و 118 و 119 و 152 و 331 و 4 ، 281 و 368 و 370 و 372 و 5 ، 347 و 266 و 419 .

17) ابن الصغير 354 .

18) المصدر نفسه 353 .

19) المصدر نفسه 353 — 354 .

20) المصدر نفسه 327 .

21) أنظر الصفحات : 363 — 365 .

22) أنظر الصفحات : 336 و 345 — 347 و 357 — 358 .

23) أنظر نمـــوذجا مـــن مناظرات الاباضية والمعتزلة فى الصفحات : 325 — 353 وانظر أيضا : الازهار الرياضية 2 ، 118 — 128 .

24) ابن الصغير 364 .

25) الازهار الرياضية 2 ، 84 و 291 .

26) المصدر نفسه 2 ، 349 .

27) المصدر نفسه 2 ، 84 .

28) ابن الصغير 361 .

29) Motylinski, « Bibliographie », P. 31

30) Lewicki, « Les historiens », P. 106 ; « The Ibâdites », PP. 53, 118 ; Encyclopaedia of Islam III, P. 924.

31) أنظر قوله ، ص 336 فى وصفه ازدهار تاهرت زمن أفلح » وكانت العجم ... ونفوسة ... والجنــد القادمون من افريقية قــد بنــــت المدينة العامرة اليوم وأمنت الساحات ... « .

32) ابن الصغير 321 .

33) ابن الصغير 321 .

34) ابن الصغير : 427 و 256 و 261 .

35) المصدر نفسه : 257 و 362 .

36) أنظر مثلا قوله ، ص 323 . ونزلوا المصلى الذى به اليوم قبر مسالة ، وص 333 وابتنى عبد الواحد قصره الذى يعرف به اليوم .

37) ابن الصغير 352 ، وانظر ايضا قوله ، ص 363 . قال لى يوما « نحن فى أعلى مسجد بالرهادنة رجل من وجوه الاباضية ... » .

38) ابن الصغير 350 .

39) المصدر نفسه 352 و 356 ، وفى الموضعين : بشير ، ولدى البارونى ، نقلا عن ابن الصغير (بشر) فى موضع «الازهار 2 ، 243» و (بشير) فى موضع آخر «الازهار 2 ، 250».

40) ابن الصغير 337 .

41) المصدر نفسه 331 .

42) المصدر نفسه 331 .

43) المصدر نفسه 327 .

44) المصدر نفسه 328 .

45) أنظر فى المصدر نفسه الصفحات : 321 و 322 و 327 و 328 و 331 (مرتين) 340 و 349 .

46) المصدر نفسه 331 .

47) المصدر نفسه 328 و 340 .

48) المصدر نفسه 322 .

49) المصدر نفسه 322 .

50) أنظر رواياته فى عبد الرحمن بن رستم ، ص : 322 ـ 324 و 325 ـ 326 . وفى عبد الوهاب بن عبد الرحمن ، ص : 327 و 328 . وفى أفلح بن عبد الوهاب ، ص : 333 . وأبى بكر ابن أفلح ، ص : 340 . وفى أبى اليقظان ، ص : 341 ـ 342 و 352 ـ 357 . وفى يعقوب بن أفلح ، ص : 361 .

51) سوف يجيء الحديث عن هؤلاء العلماء فى فقرة تالية ·

52) أنظر مثلا فى زمن عبد الرحمن ، ص : 324 ـ 325 و 326 ـ 327 · وفى زمن أفلح ص : 336 · وفى زمن أبى بكر ابن أفلح ، ص : 341 ·

53) ابن الصغير 338 ·

54) المصدر نفسه 333 ·

55) المصدر نفسه 337 ·

56) المصدر نفسه 342 ؟ وقارن هذا بالازهار الرياضية 2 ، 226 ـ 227 ·

57) ابن الصغير 343 ·

58) المصدر نفسه 341 و 342 و 343 ، وقارن ذلك بالازهار الرياضية 2 ، 223 ·

59) المصدر نفسه 327 ـ 328 ·

60) المصدر نفسه 216 ·

61) المصدر نفسه 322 ـ 326 ·

62) المصدر نفسه 333 ـ 334 ·

63) المصدر نفسه 337 ـ 340 ·

64) المصدر نفسه 340 ـ 347 ·

65) المصدر نفسه 340 ·

66) المصدر نفسه 341 ·

67) المصدر نفسه 341 ـ 342 ·

68) المصدر نفسه 341 ·

69) المصدر نفسه 341 ·

70) المصدر نفسه 343 ـ 344 ·

71) المصدر نفسه 347 ·

72) المصدر نفسه 347 ·

73) المصدر نفسه 350 ـ 351 ·

74) ص 352 ، وانظر أيضا ص 355 .

75) ص 352 ، وانظر ايضا ص 354 .

76) ص 352 ، وانظر ايضا ص 354 – 355 .

77) ص 352 – 353 .

78) ص 353 .

79) ص 355 .

80) ص 365 .

81) ص 365 – 368 .

82) ص 352 – 353 .

83) ص 363 – 365 .

84) ص 363 .

85) Motylinski, « Biographie », P. 31

86) ص 321 .

87) *Chronique d'Abou Zakaria,* traduite et commentée par Emile Masqueray (Alger 1878), P. 20 FF.

88) ص 322 – 326 .

89) ص 322 و 324 و 326 و 327 .

90) *Chronique d'Abou Zakaria,* P. 61 FF.

91) ص 328 – 330 .

92) ص 331 – 332 .

93) ص 336 – 337 .

94) ص 336 .

95) ص 336 .

96) ص 337 .

97) ص 340 – 349 .

98) ص 347 .

99) ص 348 .

100) ص 348 – 349 .

101) ص 356 – 357 .

102) ص 359 .

103) ص 361 – 362 .

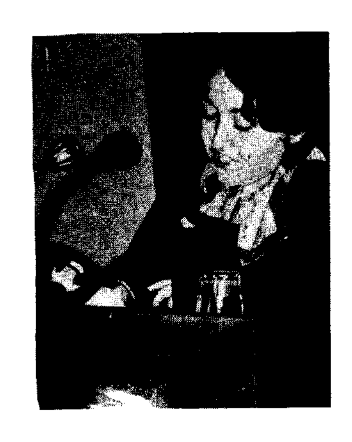
104) ص 362 – 363 .

105) Motylinski, «Bibliographie», PP. 30-31 ; Lewicki, «Les historiens», P. 105 and «Ibn al-Saghir», Encyclopaedia of Islam III, 924.
وانظر أيضا : الازهار الرياضية 2 ، 70

106) الازهار الرياضية 2 ، 41 و 84 – 85 .

محمد وعبد الرحمان بن رستم في قرطبة

د. ماريا خيسوس فيغيرا
أستاذة بالقسم العربى والاسلامى
بجامعة كومبلوتنس ـ مدريد ـ
(اسبانيا)



فى البلاط القرطبى على عهد الامير عبد الرحمن الثانى (206 ـ 238) ، (822 ـ 852) يمكن أن نتعرف على شخصيتين من العائلة الرستمية، الاسرة الحاكمة فى تاهرت منذ عام 777/160 ، وبالرغم من المعلومات المحدودة بصورة متناهية (1) ، فان المصادر التاريخية ، قد حفظت لنا ما يستدل به على المكانة العالية ، السياسية والحربية لهاتين الشخصيتين وهما عبد الرحمن ومحمد بن رستم فى الاندلس ، واللذان

(1) ما يوجد فى أيدينا من أقسام المقتبس الخاصة بفترة من حكم عبد الرحمن الثانى، يمكن أن تعطينا الفرصة للحديث بتفصيلات أوسع ـ أنظر فى قائمة المراجع : «ابن حيان»

بوجودهما فى البلاط القرطبى قد صنعا شبكة معقدة من القضايا السياسية والفكرية ، والاقتصادية ، بالنسبة للعلاقات بين الاندلس والمغرب فى القرن الثالث الهجرى التاسع الميلادى مما يستحق العودة الى الدراسة المتفحصة (2) ٠

من ناحية أخرى فانه مما لا ينبغى أن ننسى تذكره فى هذا الملتقى الحادى عشر للفكر الاسلامى والذى يعقد فى « ورقلة » العاصمة الرستمية الثانية أنه ههنا ، فى صدراته ، فى واحة ورقلة قد قوبل بالترحيب الامير الرستمى يعقوب ابن أفلح وأنصاره ، عندما قام الجيش الشيعى بقيادة الداعى أبى عبد الله بالهجوم على تاهرت فى شوال 256 هـ/909 م ٠

ومن عدالة القول ينبغى أيضا التذكر بأنه فى قرطبة قد تابع وجوده الفعال رستميون آخرون من سلالة أحد أحفاد مؤسس هذه العائلة ٠ ولكن ماهية الدوافع الحقيقية التى جعلت هذا الفرع الرستمى يستقر فى قرطبة مجهولة لنا بالرغم من أنه يمكننا الاستنتاج بأن ذلك يخضع للعلاقات الطيبة بين الرستميين فى تاهرت والأمويين فى الاندلس وذلك ما سوف يكون موضع احتفالنا ٠

لقد احتفظ لنا بالنسب الكامل لمحمد بن رستم بفضل الترجمة المختصرة التى يعطيها قلم ابن الابار (3) فى القرن السابع الهجرى الثالث عشر الميلادى ، مختصرا بطريقة مباشرة أو غير مباشرة عن الرازى وابن فرج الجيانى ، واللذين نفقدت اعمالهما للاسف الشديد (4) ، تلك الاعمال التى يمكننا أن نستنتج بأنها كانت الاساس للتعرف على هاتين الشخصيتين الرستميتين ، هذه الترجمة مع كونها قليلة الكلمات فانها كثيرة الفائدة حيث نقل لنا ابن الابار :

---

(2) ليفى بروفنسال ـ بحاسته التاريخية الرائعة ، قد وضع الملخص الاساسى لهذه الملاحظات : أنظر تاريخه فى صفحات : 134 ، 149 ، 159 ، 160 ، 64 ,158 ٠

(3) ابن الابار : الحلة السيراء ، ص 372 ـ 373 الترجمة رقم : 202 ٠

(4) لكى تقوم ما فقد ، وما احتفظ به من أخبار الرازى ، أنظر « تاريخ الرازى » (CRONICA DEL MORO RASIS كتاب لـ D. Catalan، مدريد 1974) وبخاصة الاختصار الموجود في صفحة 25، عن ابن فرج : أنظر E. Térès : Ibn Faray de Jaén Ysu Kitab El-Hada'iq (ابن فرج الجيانى وكتابه « الحدائق » ، « مجلة الاندلس » العدد الحادى عشر (1946) صفحات من 131 الى 157 ٠

« محمد بن سعيد بن محمد بن عبد الرحمن بن رستم مولى الغمر بن يزيد ابن عبد العزيز ، دخل أبــوه الى الاندلس ، وكان محمد هذا بناحية الجزيرة ، واصطنعه عبد الرحمن بن الحكم فى امارته على شؤونه من قبل أبيه الحكم ، فكان يانس بــه بعض الاحيان . ثم افضت اليه الخلافة ، فاستقدمه وصرفه فى الحجابة والوزارة . وهو أحد القواد الذين كان فتح المجوس على أيديهم باشبيلية الى فتوحات تعلم بها ، وكــان أديبــا ، حكيما ، لاعبــا بالشطرنج،ذكره الرازى . ولمحمد بن سعيد هذا شعــر فى « الحدائق » لابن فرج ، قد كنت كتبت منه فى « الكتاب المحمدى » من تاليفى ، فنقل هنا اسمه الى باب نظرائه » .

تلك الميول الثقافية تبدو وكانها تراث لهذه الاسرة الرستمية على مــا ستوضحه فيما بعد حالة لمحمد بن رستم (5) مع ابنة للموسيقى زرياب أستاذ الاناقة فى الحضرة القــرطبيــــة .

مفقود هو تاريخ الرازى وكذلك الجزء الاول من ذلك المجلــد من **المقتبس** ، (6) فأول تاريخ مؤكد لوجود محمد بن رستم فى قرطبة قد حفظه لنا المؤرخ ابن عذارى فى القرن 8 هـ/14 م وهو يقول لنا (7) :

---

(5) كذلك يحكى ليفى بروفنسال ، تاريخه ص 181 ملاحظة 89،معتمدا على مخطوطة من مخطوطاته الخاصة عن **جمهرة الانساب** لابن حزم حيث جاءت تلك الملاحظة فى الملحــق الذى لم نجد له أثرا فى طبعته المحققة على يد ليفى بروفنسال نفسه والذى نذكره ضمن مراجعنــا .

ومن المؤكد أن ابن حزم فى فصل صغير جدا عن الانساب الفارسية حيث اشار الى رستمى تاهرت لم يشر الى الفرع المستقر فى الاندلس (الجمهرة ص 474 ـ 475) . من جهة أخرى فان ابن الابار فى **التكملة** ، رقم : 2860 و 2861 قد ارخ لعلية وحمدونة ابنتى زرياب بدون اية اشارة الى علاقة ما مــع محمد بن رستم ، ولربما يمكن ان يقول لنا شيئا عن هذه الاشياء الخاصة كتاب عن زرياب ، والذى سمعت الثناء عليه دون أن أتمكن من رؤيته ، وهذا الكتاب لمحمد بن أحمد حنفى : **زرياب أبو الحسن على بن نافــع** موسيقار الاندلس.نشر فى القاهرة بدون تاريخ ضمن سلسلة اعلام العرب نمرة 54 .

(6) وهو المخطوط الذى كان يملكه ليفى بروفنسال (مخطوطة فاس) أنظر عــلى سبيل المثال «تاريخه» صفحة 176 ، ملاحظة رقم 1 الجزء الثانى ، ص 144 ، 150 .

(7) ابن عذارى : البيان ، الجزء الثانى ، ص 82 .

« فى سنة 214 (829 ـ 830) ثار الضراب بطليطلة فأخرج الامير عبد الرحمن اليه محمد بن رستم وأمره بحربه فحاربه فى هذه السنة وفى سنة 216 (831 ـ 832) توافت الجنود لمحمد بن رستم عامل الثغر ، فناهض هاشما الضراب وكان قد تغلب على جانب الثغر ، وكان عبد الرحمن قد استقصر محمد بن رستم فى حقه وكتب اليه يعنفه ، فتقدم ابن رستم والتقى مع هاشم الضراب ، فوقعت بينهم حرب شديدة اياما . ثم انهزم هاشم وقتل هو ومن معه وكانوا ألافا » .

هذه القدرة العسكرية لمحمد بن رستم ستعود الى الظهور مرة أخرى فى عام 230 (844) ، عندما هاجم المجوس باشبيلية ، وبسبب نقص فقرات المقتبس (8) التى تحكى ذلك فاننا سنستعين باقاويل ابن عذارى والعذرى . يقول ابن عذارى (9) :

« فخرج المجوس فى نحو ثمانين مركبا ... ثم تقدموا على اشبيلية فاحتلوا بها احتلالا ، ونازلوها نزالا الى ان دخلوها قسرا واستأصلوا أهلها قتلا واسرا، فبقوا بها سبعة أيام يسقون أهلها كأس الحمام ، واتصل الخبر بالامير عبد الرحمن ، فقدم على الخيل عيسى بن شهيد الحاجب ، وتوجه بالخيل عبد الله بن كليب وابن رستم وغيرهما من القواد واحتل بالشرق . وكان بينهم وبين المسلمين ملاحم ثم نهضوا الى قبطيل ... ثم مضوا بمراكبهم واعتركوا مع المسلمين فانهزم المسلمون وقتل منهم ما لا يحصى ثم عادوا الى مراكبهم الى قادش وذلك بعد ان وجه الامير عبد الرحمن قواده ... فانهزم المجوس وقتل منهم نحو من خمسمائة علج ، وأصيبت لهم أربعة مراكب بما فيها ، فأمر ابن رستم باحراقها وبيع ما فيها من الفىء .. ثم كانت الوقعة عليهم بقرية طلياطة يوم الثلاثاء لخمس بقين من صفر من السنة قتل فيها منهم خلق كثير ، ثم توجهوا (المجوس) منها الى الاشبونة فانقطع خبرهم » .

هذه القصة تتفق فى اطارها العام وتبدو مشتقة من التى حفظها لنا العذرى هذا المؤرخ الذى يرجع الى القرن 5 هـ/11 م . يحدثنا بتفاصيل أفضل عن مجرى الحوادث

(8) مختصرا بواسطة ليفى بروفنسال فى تاريخه صفحات 144 ، 150 .
(9) ابن عذارى ، البيان الجزء الثانى ، ص 87 ، 88 .

وخاصة بالنسبة لمحمد بن رستم الذى أرسله الامير عبد الله حسب العذرى (10) فى محاولة ثانية للانتصار على المجوس النورمانديين ليعود بطل النصر غير المنازع على هؤلاء وان تقوسمت شهرة النصر بينه وبين الفتى نصر (11) . هذا الانتصار الذى احتفل به فى كافة أرجاء الاندلس (12) .

هذا هو ما نقله لنا العذرى (13) بالنسبة لتدخل محمد بن رستم فى هذه المناسبة : « ونزل قواد الامام عبد الرحمن بن الحكم شرقى اشبيلية ... وهم : عبد الله ابن المنذر ، وعيسى بن شهيد والاسكندرانى . وعبد الرحمن بن كليب من قعلبه فلما أحس بهم أعداء الله تبادروا اليهم حتى كادوا يخالطوهم . فثبت المسلمون وقاتلوا وصبروا حتى قتل من المشركين نحو سبعين علجا ، فهزموهم حتى ادخلوهم فى مراكبهم ثم نكل عنهم المسلمون واحجموا وتوقفوا . فلما اتصل بالامام عبد الرحمن فعل القواد قفلهم واخرج محمد بن سعيد بن رستم فمضى من فوره الى ذلك فيمن ضم اليه من الاجعاد والجيش ، حتى نزل حاضرة اشبيلية . فخرج المجوس اليه وقاتلوه فى المدينة فدافعهم فيه يومهم ذلك ، فلما كان الليل ولى ومن معه وخاف البيات . فتنحى الى كورتيش بقبلى المدينة وعلى أربعة اميال منها . ثم غاداهم بالقتال فلم يقدم المجوس على الخروج اليه وانقبضوا عنه حتى نزلوا طلياطة ، فاتبعهم ابن رستم ونزل عليهم يوم الثلاثاء ليلتين خلتا من ربيع الاول سنة 230 ونصب عليهم المجانيق ، فقدم فى ذلك اليوم نصر الفتى بالمدد من قرطبة ، وانهض الناس لمحاربة المجوس من كل جهة فناشبوهم القتال وكادت الهزيمة تستحق ، فترجل محمد بن رستم وترجل الناس معه وأدخل الرجال بين العدو والنهر الاعظم فحالوا بينهم وبين المراكب ، فانهزم

(10) لقد رجع العذرى مرات كثيرة الى أعمال الرازى ومن الممكن ان نتأكد من أنه وجد مدخلا الى استعمال مخزن المحفوظات القرطبية . انظر :

Ferndo de la Granja : *La Marca Superior en la Obra de Al-Cudri*, Zaragoza 1967, 3-4.

(11) Lévi-Provençal : *Historia*, 150.

(12) Lévi-Provençal : *Historia*, 149.

(13) العذرى : نصوص ، صفحة 99 — 100 . لقد ألقت الدكتورة ا. علبيث محاضرة فى مؤتمر تاريخ الاندلس والذى عقد فى شهر ديسمبر 76 . بعنوان « غزوات النورمان بناء على ما سجله العذرى » للاسف فان تلك المحاضرة لم أتمكن من سماعها ولا من قراءتها.

المجوس ، وقتل منهم نحو من خمسمائة علج ، وأصيبت لهم أربعة مراكب بما فيها فأمر ابن رستم باحراقها وبيع ما فيها من الفيء وأقام فى معسكره ذلك ، واحجم المجوس عنه ، وبقوا أياما بين طلياطة وقبطيل لا يتمكن المسلمون منهم حتى خرج المجوس .. » .

بكل تاكيد ترك المجوس المنطقة التى فيها محمد بن رستم حيث هاجمتهم فيما بعد فرقة أخرى بقيادة أمير الجيش عبد الله بن كليب بن ثعلبة والذى وجد فى ساحة الصراع . أما بالنسبة لمحمد بن رستم فقد بقى له شرف الحاق الهزيمة الحقيقية الاولى بالمجوس فى الاندلس فى تلك الظروف الحرجة التى بينها العذرى بوضوح .

وبما أن كل مؤرخ يختار التفصيلات التى يفضلها فان علينا أن نشكر فى هذه الحالة العذرى ، والذى عرف أن يحفظ لنا التفصيلات عن البطل محمد بن رستم (14) بدون أن ينسى مكانتــه وراء أى شخص آخـــر من الذين اشتركوا في تلك الحوادث العظيمة . وعلى سبيل ما فعل ابن سعيد والذي جاء فى القـــرن السابع الهجرى ، الثالث عشر الميلادى والذى وضع فى صورة البطل الفتى نصر ، ولقد قال لنا بالنسبة له (15) : « أن المجوس قد دخلوا اشبيلية واستباحوها سبعة أيام الى أن جاء نصر الخصى ، وهزم عنها النصارى المعروفين بالمجوس » (16) .

هذا المؤرخ المذكور ابن سعيد ـ قد تناسى النجاح الذي حققه محمد بن رستم ضد النورمانديين .

(14) الباحثين المعاصرين ، مع قليل أو كثير من العناية ، قد حفظوا لمحمد بن رستم دوره الملائم فى هذه الحملة ، هكذا فعل :

Dozy, *Recherches* ; Lévi-Provençal, *Historia,* 149 - 150 ; A. A-El-Hajji, *Andalusian diplomatic relations with Western Europe during the Umayyad period,* Beirut, 1390-1970 (168 - 171 : « the first Viking attack on Andalusia».

وحسين مؤنس : غارات النورمانديين على الاندلس بين سنتى 229 و 245 (859،844) ، « مجلة المعهد المصرى للدراسات التاريخية » ، مايو 1949 الجزء الثانى الفصلين الاولين .

(15) ابن سعيد : المغرب ، الجزء الاول ، 49 .

(16) استعمل « المجوس » أو النورمانديين بـدون اختلاف بينهما . وهذا ممكن فى اطار موضوعنا هذا .

علاوة على ذلك هناك بعض المعالم الظاهرة التى من الممكن أن توضح لنا بكل تأكيد تلك المكانة لهذه الشخصية الرستمية فى قرطبة • ولكن بعد ذلك لا نعرف شيئا عنه ــ غير تاريخ وفاته والتى سجلها ابن حيان (17) بين الاحداث البارزة ، وهكذا يقول لنا : « فى 17 شهر صفر من عام 235 (من الهجرة) (8/25 ــ 9/22 عام 849) توفى فى قرطبة محمد بن رستم » •

أما بالنسبة لشخصيتنا الثانية فانه حتى الآن قد حفظت لنا بيانات أقل مما دونته الكتب القديمة لا نعرف ــ على سبيل المثال ــ نسبه بالضبط ففى مراجعة فقط ينادى « بعبد الرحمن بن رستم » حيث ظل مجهولا اسم والده • ليفى بروفنسال بحاسته التاريخية الحادة يستنتج أنه من الممكن أن يكون اخا ، وربما يكون ابنا لمحمد ابن رستم أى أنه من السلالة المباشرة لمؤسس الدولة الرستمية فى تاهرت • لقد بدأ عبد الرحمن بن رستم فى مكانة لائقة ضمن بلاط الامير عبد الرحمن الثانى والمؤرخ الاول الذى ابرزه لنا هو ابن القوطية (18) ، الذى قال : وكان له (للامير عبد الرحمن) وزراء لم يكن للخلفاء قبله ولا بعده مثلهم بعد عبد الكريم بن مغيت الحاجب الكاتب •• فمنهم عيسى بن شهيد ويوسف بن بخت وعبد الله بن أمية بن يزيد ، وعبد الرحمن ابن رستم ، ولما توفى عبد الكريم بن مغيث فى صدر خلافته تنافس الوزراء كلهم فى خطة الحجابة واضطره كل واحد منهم الى الايولى غيره فاخذته ضجرة فاقسم الايولى واحدا منهم ، وأمر بالاقراع بين الخزان ••• فخرجت اليه (الى مهران بن عبد ربه) القرعة فولى الحجابة أعواما ثم مات ، فولى عبد الرحمن بن غانم ، ثم مات عبد الرحمن ابن غانم فصارت الحجابة بين عيسى بن شهيد وعبد الرحمن ابن رستم ، ثم توفى عبد الرحمن بن رستم فاتصلت الحجابة لعيسى بن شهيد •

ابن حيان ، المولود فى قرطبة بعد عشرة أعوام من وفاة ابن القرطبة (المؤرخ المذكور قبلا) أى فى عام 987/377 • لقد كانت اتجاهات ابن حيان التاريخية أكثر

(17) ابن حيان : المقتبس ، طبعة القاهرة ، صفحة 219 ، أنظر التعليق رقم : 109 فى صفحة 268 ، والتى تشمل ما سجله مختلف الكتاب عن عبد الرحمن ومحمد بن رستم •
(18) ابن القوطية : تاريخ افتتاح الاندلس ، ص 62 ، ترجمة Ribera, ص 62 وكذلك ترجمة Fagnan ص 209 •

شمولا ، فقد حدد لنا ما حدث بتوسع وذلك بادماجه ونشره ما دونه الرازى (19) ٠
يبدأ ابن حيـان بالاشارة الى عبد الرحمن بن رستم بين حجاب الامـير عبد الرحمن الثانى (20) ، كما عده بعد ذلك ضمن الوزراء (21) ، وكذلك من القواد (22) ، أمـا بالنسبة لدوره فى الحجابة فان ابن حيان قد بدأ بتوضيح أن الامير قد أحل عبد الرحمن ابن رستم مكان عيسى بن شهيد ، وبعد ذلك قام بالتغيير العكسى مرة أخرى وعاد الى تولية عيسى بن شهيد حاجبا ، وان كان ابن حيان يعود الى القول (23) : « اعتل الامير بعلته الطويلة التى حجبه فيها نصر الفتى ، وانقذ عليه أمورا منكرة ، منها صـرفه لعيسى هذا عن الحجابة ، وذلك بأن أخرج الامر عن مولاه بصرف عيسى عن الحجابة واقراره على خطة الوزارة ، وتقليد عبد الرحمن بن رستم الحجابة مكانه ، فجـرى الامر بذلك الى ان استقل الامير عبد الرحمن من علته وقعد لاهل خططه ، فدخلوا عليه ، يقدمهم الوزراء ، وعيسى فى عرضهم فتقدم عبد الرحمن بن رستم جماعتهم فى التسليم على الامير ، ثم قعد فوق ابن شهيد ، فاستنكر الامير ذلك ، فلما استقر بهم المجلس قال لعيسى بن شهيد فيما يخاطبه به « ما شأن هذا ؟ لامر سأله عنه ـ فقال له يا مولاى لست بحاجب ، وهذا هو الحاجب واشار الى ابن رستم ، فعلت الامير كبره ، وعرف من حيث أتى » ٠

« فكظم غيظه ، واصطبر فلما خرج الوزراء ، دعا بنصر فسأله عن عزل ابن شهيد ، وولاية ابن رستم ، فلم يمكنه انكاره ، وادعى أن وصية خرجت اليه من لدنه صـدر علته ، فكذبه الامير ، وعلم انها من تحامله وجرأته ، فسبه واغلظ له وهم به ، ثـم عفا عنه ، وأعاد عيسى بن شهيد الى الحجابة ، وعزل عنها عبد الرحمن ابن رستم ، وتركه على الوزارة ، فلم يزل عيسى بن شهيد حاجبا للامير عبد الرحمن ابن الحكم الى أن توفى الامير عبد الرحمن » ٠

(19) ابن حيان : المقتبس ، طبعة القاهرة ، ص : 165 ـ 168 ٠
(20) نفس المصدر ، ص : 165 ٠
(21) نفس المصدر ، ص : 168 ٠
(22) نفس المصدر ، ص : 177 ٠
(23) نفس المصدر ، ص : 166 ـ 167 ٠

من هذا النص الكبير الذى أورده ابن حيان ، يمكننا أن نستنتج أن هذه الاحداث قد جرت فيما بين عامى 223/238 الموافق عام 837/852 ، ويمكننا أن نتأكد أكثر من تاريخ هذه الواقعة عن طريق حكاية أخرى يرويها لنا ابن حيان (24) والتى تمكننا من الاستنتاج بأن ذلك قد حدث ما بين عامى 232/235 الموافق 846/849 من الميلاد .

ان انتقال الحجابة الى عبد الرحمن بن رستم قد جرى بالتقريب فى هذه الاعوام المؤرخة وهناك تلك الرواية التى تفشى لنا أشياء أكثر عن شخصية عبد الرحمن ابن رستم قائلة : « كان معاذ بن عثمان من الابدال ويقال أنه كان مجاب الدعوة اتاه يوما رجل متظلم من الحاجب ابن رستم ويقول أنه اغتصبه مالا له . فقال له ، خذ طابعا وامض به نحوه ، فتصد له وقل له هذا طابع القاضى » فاذا هو ركب فاجبذه بكل قوة عندك فأضرب بيدك على عنانه ولا تفارقه حتى يصير الينا ... واياك أن تتذلل له فانه أهيب لك ... فأخذ الرجل الطابع ومضى به الى الحاجب (25) ... وهو فى موكبه وعلى ملأ من الناس وطلب اليه أن يصير معه الى مجلس القاضى ، ويبدو ان الحاجب لم يمتعض ولم يعترض ، ولكنه اعتذر عن عدم مرافقة الرجل ، غير أنه أمر بتصيير وكيله الى القاضى مع الرجل ، ووعد بانفاذ كل ما يحكم به القاضى معاذ والانصياع له ، واشهد الناس على ذلك » .

حتى هنا وينتهى كل ما امكننا الحصول عليه مما يصور لنا عبد الرحمن بن رستم ، والذى كان يحضر باستمرار المجلس الذى يعقد فى قصر قرطبة هذا على ما يقوله ابن القوطية (26) : « عبد الرحمن أول من رتب اختلاف الوزراء الى القصر والتكلم فى الرأى على ما هو جار الى اليوم » .

---

(24) ابن حيان : المقتبس ، طبعة القاهرة ، صفحات 205 ـ 206 .

(25) حيث أن النص الاصلى لابن حيان تنقصه بعض الكلمات فنسنواصل ما ادخله المحقق الدكتور محمود على مكى : المقتبس ، ص 206 التعليق رقم 4 .

(26) ابن القوطية : تاريخ افتتاح الاندلس ، ص : 61 ، نفس الشىء فى المقتبس ، لابن حيان طبعة القاهرة ، ص : 168 .

وكذلك ، وبناء على ما يقوله ابن عذارى (27) فانه كان يأخذ راتبا شهريا مقداره ثلثمائة دينار مثله فى ذلك مثل الوزراء السبعة لعبد الرحمن الثانى .

ولكى نتفهم بوضوح دوره كوزير يجب أن نضع فى حسابنا ما كتبه D. Sourdel (28) حسبما كانت الوزارة لقبا فخريا لكى يميز حامله عن اقرانه من حملة الالقاب الاخرى كالخازن ، والكاتب والقائد .. الخ ، **بينما كان الحاجب يحمل لقب** الوزارة بالضرورة .

وبسبب مشاركة عبد الرحمن بن رستم فى مجلس الوزراء ينبغى علينا أن نشير الى نظرية الدكتور حسين مؤنس (29) ، التى تقول بأن ايجاد هذا المجلس من الوزراء الذين كانوا ينصحون الامير بأرائهم ، أى تأسيس هذه الشورى بواسطة عبد الرحمن الثانى الذى كان لانه كان يرغب فى أن يعتمد أعضاء الشورى حقوق خلافته ، وهذا عوضا عن مشاركتهم فى الامور الحكومية بالنسبة لـ H. R. Idris فان تكوين هذه الشورى كان شيئا متطورا ، تكون قليلا ، قليلا قياسا على ما تطور به المذهب المالكى فى الاندلس .

خلال حكم الامير عبد الرحمن كانت ترتفع مكانة المذهب المالكى فى الاندلس ولقد عني الاميربالقيام داخل الاحكام الاسلامية الخاصة وداخل هذه الاقامة فرفض عبد الرحمن الثانى الاقتراحات المعروضة عليه بالتحالف مع البيزنطيين ضد بعض الاسرات الاسلامية مثل بنى الاغلب والعباسيين . ولقد حفظ لنا ابن حيان (31) الروايه التى تحكى لنا الرد الجاف للامير الاندلسى الذى اعطاه للسفراء البيزنطيين قائلا : « بالنسبة لبنى الاغلب فى افريقية ، ونشاطهم البحرى تجنب الامير القرطبى الاجابة واضعا كلماته فى صورة غامضة ، لقد كان من الصعب عليه أن يذم بصراحة بعض حملاتهم وان كانت

(27) ابن عذارى : البيان . الجزء الثانى ، ص : 80 .

(28) « Wazir » et « hàgib » en Occident ; pp. 749 - 755.

(29) حسين مؤنس : Le Rôle ، ص 56 - 57 .

(30) H. R. Idris *Réflexions...* صفحات : 403 — 404 التعليق رقم : 7 .

(31) Lévi-Provençal : *Echange d'ambassades* ص 99 — 103 .
والذى ترجم الى الفرنسية النص الذى وجهه عبد الرحمن الثانى الى البزنطيين انظر كذلك تاريخه ، ص : 162 .

موجهة بواسطة اعدائه الاغلبيين فانها كانت مواجهة ضد المشركين ، أى البزنطيين ، بقصد اعلاء مجد الاسلام » ٠

وعلى هذا فان الامور لا يمكن أن تتركنا بدون تساؤل : كيف لم يبد على هذه العلاقات بين الامويين فى الاندلس والرستميين فى المغرب التأثر بأن بنى أمية كانوا سنيين ، والآخرين على المذهب الخارجي ؟

أعتقد أنه من الحكمة تطبيق المعيار الذى يرى به الدكتور حسين مؤنس (32) أن الرستميين خارجيون سياسيا ، مما قلل المظهر الدينى للمسألة ٠

ويضيف د ٠ مؤنس (33) : أن هذه التنظيمات السياسية لا يمكن اعتبارها من الخوارج بناء على مبادىء مؤسسيها أو زعمائها ٠ حدث نفس الشيء مع دولة الادارسة والتى لا يمكن أن نقول عنها انها كانت دولة شيعية لان مؤسسيها كانوا من سلالة على » ٠

اعترف بأننى ليس عندى من المعلومات الكافية لكى احكم على هذه المسائل ، ولكنى لم أترك تلك الاشارة الجاذبة للنظر والتى أوضحها فى « دائرة المعارف الاسلامية » (34) البروفيسور Tadeusz Lewicki المتخصص العظيم فى المذهب الاباضى :

« En général, la dogmatique et les théories politico-religieuses des Ibāddya se rapprochent pour quelques questions principales de celles de Sunnites. Les Ibāddiyya ne diffèrent des Mālikites qu'en quelques points ».

لا أستطيع الحكم على المعنى الحقيقى لتأكدات Lewicki ولكن من جانب آخر Chikh Bekri يصرح عجبه من أنه مع هذه المبادىء الدينية ترى تلك العلاقات الطيبة من الصداقة التى كانت بين الامويين والرستميين (35) :

« En ce IX[e] siècle, les quatre royaumes musulmans qui se partageaient la Berbérie et l'Andalousie, Aghlabides à l'Est, Rustumides au centre, Idrîsides à l'Ouest et Omeyyades en Espagne, n'avaient que deux points communs, l'Islam et l'Origine levantine de leurs fondateurs. Les premiers, pro-abbâsides, étaient orthodoxes, les deuxièmes non-conformistes, étaient

---

(32) حسين مؤنس : المالكية ، ص : 201 ، انطباع الدكتور مؤنس ليس خاصا بالرستميين مباشرة ، ولكن من الممكن تطبيقه بطريقة مماثلة ٠

(33) نفس المصدر ، ص :202 ٠

(34) فى الجزء الثالث ، ص : 679 ٠

(35) Chikh Bekri : *Le Kharijisme* ; p. 97.

considérés comme des hérétiques, les troisièmes étaient des Alides et les quatrièmes, descendants de Mouâwiya, étaient des rescapés des massacres de Fakhkh qui suivirent en Orient la disparition de leur dynastie. A priori, ces royaumes différents par l'origine de leur fondateurs et par leur idéologie, ne pouvaient avoir que des relations d'hostilité. Il eût été logique qu'ils transportassent en Occident les querelles sanglantes qui les avaient opposés en Orient. Or, contre toute attente, on n'enregistre aucune lutte armée entre eux, pas la moindre bataille, à peine une hostilité plus ou moins tiède, une espèce de guerre froide, quand ce ne sont pas des relations amicales, comme ce fut le cas pour les Rustumides et les Omeyyades ».

علينا أن نتذكر بأنه كان فى الاندلس اباضيون ، بكل صفاتهم المميزة ، وأنه من الممكن لقاؤهم والتعرف عليهم فى القرن الخامس الهجرى ، الحادى عشر الميلادى ، ومن ذلك نرى ابن حزم فى كتابه **الفصل فى الملل** يصرح (36) : « وشاهدنا الاباضية عندنا بالاندلس يحرمون طعام أهل الكتب ويحرمون أكل قضيب التيس والثور والكبش ويوجبون القضاء على من نام نهارا فى رمضان فاحتلم ويتيممون وهم على الآبار التى يشربون منها الا قليلا منهم » .

بدون الدخول فى تفصيلات المسائل العقائدية ، أعتقد بأن الرستميين فى تاهرت، والامويين فى الاندلس ، قد اسسوا فيما بينهم علاقات قوية من الصداقة مؤسسة على المصلحة السياسية المتبادلة ، والمفيدة لأحدهم مثلما هى فى صالح الآخر ، ولقد خرج الاثنان مستفيدين من هذه العلاقات حيث حفظت لنا المراجع التاريخية ما يوضح بأن هذه الحوادث كانت مميزة بعدة وقائع من اللائق أن نذكر بها فيما يلى (37) .

لا يعرف متى بدأت العلاقات ، ربما ترجع الى عهد عبد الرحمن الداخل (138 ـ 172/756 ـ 788) والذى عند مروره بشمال افريقية ، قبل وصوله الى الاندلس كان موجودا فى واحدة من قرى تاهرت القديمة اليوم تيارت Tiaret وأكثر من عشرين عاما بعد مرور عبد الرحمن الداخل بتلك النواحى فيقوم عبد الرحمن

(36) ابن حزم : الفصل ج 4 . ص : 144 ، ترجمة M. Asin ج 5 ، ص : 73 .
(37) انظر :
Lévi-Provençal, *Historia*, p. 64, 99, 149, 158-161, 184, 197, 223, 309-311, 314, 316, 320.
Chikh Bekri, *Le Kharijisme...*, pp. 98-101,
ومحمد بن تاويت : دولة ... ص : 110 ، 113 ، 115 ، 117 ، 119، 120 .

ابن رستم بتأسيس تاهرت الجديدة ، وهناك أسس العاصمة لدولته فى (777/161 ـ 778) (38) · ترتب على وفاة عبد الرحمن الداخل عام 788/172 بأن احد ابنائه « عبد الله البلنسى » قد ثار ضد خلافته التى كانت من نصيب أخيه هشام · عبر الى المغرب واحتمى فى تاهرت بينما كان يحكم الامير الرستمى الثانى عبد الوهاب وذلك منذ العام 784/168 · وظل ماكثا فيها حتى وصلته أخبار وفاة أخيه هشام وتولى العرش ابنه الحكم فى عام 796/180 ·

فى هذه الفترة ، يعتقد انه قد وصل الى الاندلس سعيد بن محمد بنعبد الرحمن بن رستم ، والد محمد قائد عبد الرحمن الثانى · وعندما صعد عبد الرحمن الى العرش فى عام 822/206 جاء لرؤيته ثلاثة من أبناء الامام الرستمى عبد الوهاب يدعون : عبد الغنى ، بهرام ودهيون ، وعلى ما يحكى لنا ابن سعيد (39) أنه أنفق عليهم ألف دينار ، وفى عودتهم الى المغرب غرقت المراكب الحاملة للشابين الآخرين، وعاد عبد الغنى وحده الى تاهرت بينما كان والده قد توفى ، وخلفه الامام الثالث لبنى رستم «افلح» فى عام 823/208 ، ولقد قام عبد الرحمن الثانى بابلاغ هذا الامام خبر النصر الذى احرز على المجوس ، وكذلك ارسل الامير القرطبى محمد هدية عظيمة عندما تولى الحكم فى 852/238 الى الامام محمد بن افلح وعن الامير محمد يحدثنا ابن حيان (40) : « كان الامير محمد بن عبد الرحمن شديد التهمم بخبر الساحل والعدوة ، مراعيا لما هنالك من اخبار اعدائهم المسودة (يعنى العباسيين) متجسسا عن عمالهم متحولا عنهم لكثير ممن يتعرف عليهم من ملوك البرابر الملقين اليه بالولاية ، فلا تزال رسله وكتبه تتردد الى هذه الطوائف فى البحث عن أخبار بنى العباس بدار مملكتهم ، وأخبار ولاتهم وعمالهم بالشام ومصر ، وافريقية » · هذا الاهتمام المتزايد سوف

---

(38) Gayangos, *The history,* 2 ، 62 ترجم ما قاله المقرى من رحلة عبد الرحمن الداخل قائلا :

« arrived at Tihart... where he placed himself under the protection of a tribe called the Beni Rustam ».

وسبب هذا خطأ بعض المؤرخين المعاصرين ·

(39) ابن سعيد ، المغرب ، 1 ـ 48 ، انظر *La Berbérie : Marçais* ، ص : 104 ·

(04) ابن حيان : المقتبس ، طبعة بيروت صفحات : 265 ـ 266 ·

ينعكس على المدونات التاريخية ، يقول مثلا ابن الخطيب (41) : « عن الامير محمد الاموى » : «وخدمته ملوك البلاد المغربية واعترفت بطاعته تاهرت» وابن عذارى (42) ، يؤكد بأن الامير محمد « كان مأمولا ، محبوبا فى جميع البلدان ، وكان محمد بن افلح صاحب تاهرت لا يقدم ولا يؤخر فى أموره ومعضلاته الا عن رأيه وأمره » .

هذه العلاقات الطيبة سوف تبدو مرة أخرى عندما هرب عمرو بن حفصون من الاندلس (43) : كما يقول ابن القوطية : « يجاوز البحر الى تيهرت فصار فيها عند رجل من الخياطين كان أصله من رية وكان يخيط عنده فبينما هو جالس فى حانوته اذ اتاه شيخ فسمع الشيخ كلام ابن حفصون .... فقال يا منحوس تحارب الفقر بالابرة ارجع الى بلدك فانت صاحب بنى أمية ، وسيلقون منك غيا ، وستملك ملكا عظيما، فقام من فوره، وذلك خوفا من أن يفتش الامر وان يقبض عليه بنو ابى اليقظان وكانوا مالكى تيهرت وولاؤهم لبنى أمية » .

من المؤكد ان العلاقات بدت متقلصة فى فترة حكم الامير الاموى المنذر 273/886، 275/888 وانها واصلت ذلك بصورة نهائيـة فى عهد الامـير عبد الله ، أو على الاقل فان المصادر لم تعد تذكر لنا شيئا بالنسبة للعلاقات بين تاهرت والاندلس ، علاوة على ذلك هناك حادث له دلالة وهو ان بنى أمية لم يساعدوا الرستميين فى عام 296/909 عندما اضطر هؤلاء لتسليم تاهرت للجيش الفاطمى .

(41) ابن الخطيب : أعمال الاعلام ، ص : 24 .
(42) ابن عذارى : البيان المغرب ، الجزء الثانى 108 .
(43) حسب ما يراه ابن القوطية : تاريخ افتتاح الاندلس ، ص : 91 — 92 ، ترجمة Fagnan ص : 233 — 234 ، وكذلك ترجمة Ribera ص : 76 — 77 .
(44) بالنسبة لهذه القضايا : انظر : محمد بن تاويت : دولة الرستميين ، 124 ، 128 أحمد مختار العبادى : سياسة الفاطميين، ص : 193 — 209؛ Nègre : *La fin...* ص : 10 ، 22.
Hamdani : *Some considerations...*, 385 - 396.
Hamdani : *Evolution of the Organisation structure of the Fatimi Da wah*, « Arabian Studies » 3, ed. R. B. serjeant and R. L.
Bidwell, Cambridge, 1976, pp. 85 - 114.
Mones : *Le malekisme...*, 197 - 220.
Chikh Bekri : *Le Kharijisme...*, p. 81.
Dachraoui : *Le commencements...*, p. 92.
Nègre : *La fin...*, 10 - 22.

من الممكن تفسير ذلك بثلاثة عوامل (44) : الاول هو الانحلال الكامل للدولة الرستمية والتى مضت بانحطاطها بسبب الحروب الاهلية منذ ان صعد الى السلطة أبو حاتم يوسف فى عام 894/281 حيث بدأت فترة طويلة من الفوضى وبسبب المعارضة التى لقيها الامام من عمه أبو يوسف يعقوب بن افلح هذان المطالبان اللذان سيتبادلان الحكم والعزل عن العرش حتى اغتيل أبو حاتم يوسف فى عام 909/296 ، واحتمى أبو يوسف يعقوب فى ورقلة ، بينما الامير الرستمى الذى بقى فى تاهرت ، الامام يقظان ، قد اغتيل بأمر الداعى الشيعى .

عامل ثانى مهم يجب ان نضعه فى حسابنا الا وهو السرعة التى تم بها الاحتلال الشيعى ، الداعى أبو عبد الله قد تدخل فى افريقية سبعة اعوام ، بدون ان يشعر أحد بأنه سيواصل غزواته فى المغرب الاوسط . ولكنه عندما انتهى من غزو افريقية بدأ الزحفُ فى حوالى 15 الى 16 من رمضان سنة 296 الموافق 7 ، 8 من شهر يونية عام 909 م ، لكى يصل فى مواجهة تاهرت فى يوم 6 شوال من نفس العام الموافق 28 من شهر يونية من العام المذكور أى انه لم يستغرق فى السير أكثر من عشرين يوما (45) .

السبب الثالث هو أن بنى أمية فى الاندلس كان لهم مشاكلهم الداخلية الخاصة . ففى قرطبة عندما بدأ الامير عبد الله يمارس سلطانه (فى بداية الصيف لعام 888/275) فان الحرب الاهلية اشتعلت فى كل اقاليم الاندلس تقريبا . وكانت منطقة « البيرة » Elvira « واشبيلية » Sévilla هما أهم المراكز الخارجية بالاضافة الى « بوباسترو » Bobastro بثائرها الذى لا يقهر عمرو بن حفصون نفس الشاب الذى هرب الى تاهرت (46) . ولم تعدم الايام الاخيرة من حكم الامير عبد الله داعية قريب الشبه جدا بالداعى الفاطمى أبو عبد الله ، مدعيا باسم مهدى أيضا (47) .

---

(45) Nègre : *La fin.* 15;Dachraoui : *Les commencements*..., p. 92.

(46) ليفى بروفنسال : تاريخ ، ص ، 216 .

(47) ليفى بروفنسال : تاريخ ، ص ، 241 .

الشيء المؤكد ان منطقة تاهرت قد دخلت ضمن المناخ الفاطمي وفي اشكالات جديدة ـ بداية مختلفة لعلاقات عبد الرحمن الناصر ، الحكم الثاني والمنصور مع المغرب • (48)

العلاقات الرستمية مع الاندلس شكلت بلا ريب مرحلة متكاملة ذات سمات خاصة، تتلاءم مع خطوات التاريخ بالنسبة للاسلام في الغرب وعلى وجه التحديد ما بين الاعوام 788/178 ، 888/275 • هذه العلاقات جديرة بدراسات أكثر لان بعض المعلومات التي تنقلها لنا المدونات التاريخية ترسم لنا صورة في غاية الاهمية • مثلا حالة تواجد شخصيتين اندلسيتين في مجلس الشورى المكون من ستة أعضاء كانت مهمتهم اختيار امام تاهرت (وهو كان الامام عبد الوهاب) وذلك في عام 784/168 ، واحد من هذين الشخصين كان اسمه مسعود الاندلسي والثاني عثمان بن مروان الاندلسي بناء على ما يقوله لنا تاريخ أبو زكرياء الورجلاني • (49)

على كل حال فان فائدة العلاقات الطيبة كانت متبادلة بين الرستميين والامويين في الاندلس • ولربما جددت بطريقة العقود التي عقدت بين الفرس وبين الامويين في المشرق فيقول ابن حزم (50) ، مؤكدا ذلك في كتابه عن انساب العرب : يقول : ابن رستم الجد الاول مؤسس تاهرت الحديثة كان مولى لعمر بن يزيد بن عبد الملك مروان « لكن بكل تأكيد أنه كان لكلا الاثنين يعني للرستميين وللامويين عدوا مشتركا وهم العباسيون والذين مثلهم في افريقية خلال فترة الاغالبة • والخصومة بين العباسيين ضد الامويين من جانب وبين العباسيين والاغالبة ضد الرستميين (51) من جانب آخر موضوع معروف جدا •

(48) ليفي بروفنسال : تاريخ ، ص : 309 ، 311 ، 314 ، 316 ، 320 ، 389 ، 432 ، ومحمد بن تاويت *Relaciones...* ص : 251 — 255 •
VALLVE : *La intervencion omeya...*, 7 - 39.
Yalaoui : *Les relations...*, 13 - 30.

(49) Masqueray : *Chronique d'Abou Zakaria*, 54 - 59.

(50) ابن حزم : الجمهرة ، 474 — 475 •

(51) تذكروا :
Gabrieli, *Omeyyades d'Espagne et Abbassides*, 93 - 100.
Marçais : *La Berbérie...*, espec. Chap. 2 : « La Renaissance du IX[e] siècle », Chap. 3 : « La crise fâtimide ». Veccia, *La vicende del Harigismo...*, 32, 36-38 : « Gli Abbasidi ereditavano dagli Ommiadi il compito di liberare l'Impero dai residui del Harigismo. I seguaci di questa dottrina... impregnata di elementi politici, non avevano aderito alla loro causa ». Vid. H.R. Idris, l'Occident musulman...

علاوة على هذه المصلحة السياسية ، يجب أن اتحدث أيضا عن المصلحة الاقتصادية، ينبغى التفكير فى أنه كانت هناك تجارة نشطة بين تاهرت والاندلس. فالرستميون كان لهم منفذان على البحر المتوسط ، مرسى فـروج ومرسى خرث (52) • ومما له دلالته أيضا ان سور المدينة كان به أربعة أبواب اسماؤها تعكس بوضوح اتجاهاتها : من ذلك ان احد هذه الابواب كان يسعى باب الاندلس (53) • كانت تاهرت الحديثة التى أسسها الرستميون على بعد 9 كيلومترات جنوب شرق مدينة تيارت Tiaret الحالية وكانت تاهرت الحديثة عاصمة منطقة واسعة ذات حدود متبادلة وانها اثناء ذروة ازدهارها قد وصلت هذه المنطقة من تلمسان غربا حتى طرابلس شرقا (54) ، لقـد كان اختيار مكان المدينة موفقا تماما لموقعها الاستراتيجى الهام حيث كانت تفترق عندها مناطق مختلفة ، مثل المناطق الجبلية من جهة ، والمناطق السهلية من جانب آخر تلك المناطق التى اتجهت الى تاهرت بغرض تبادل سلعها مثلما يحدث فى الايـام الحالية مع مدينة تيارت Tiaret فتاهرت :

« est vite devenue un grand marché de rencontre entre pasteurs nomades et agriculteurs du Tell (55).

بدون شك تاهرت مركزا لطريق تجارى ربط الاندلس بافريقيا السوداء (56) • فى تاهرت وصل الامر الى تأسيس قيصرية (57) • اليعقوبى ذكر تاهرت بطريـق المغرب الرئيسى (58) • وانه لطريف خط الطريق المذكور الى جزيرة الاندلس :

« Pour se rendre dans la péninsule de l'Espagne on va de Kairouan à Tunis... On s'embarque à Tunis... et après une traversée de dix jours... on arrive, en face de la péninsule

---

(52) *Les Pays,* 217. اليعقوبى : 301 – 343 Lewicki : *La répartition...*

(53) ابن عذارى : البيان المغرب ، I ، 25 ، 26 البكرى : المغرب ، ص 66 •

Nègre, *La fin...,* 10 - 11 ; Marçais - Dessus Lamare : *Tîhert - Tagdempt, 177.*

(54) ابن الصغير ، ص 17 ، الترجمة ، ص 73 • فى عام 224/839 فقد الرستميون اقليم طرابلس •

(55) Despois-raynal : *Géographie...* ; 118 - 118.

(56) Marçais : *La Berbérie,* 110. Lewicki : *Traits d'histoire...,* 291 - 311. Lévi-Provençal *Historia...,* 159 - 160.

(57) محمد بن تاويت : دولة الرستميين ، ص 122 تعليق رقم : 5 •

(58) يعقوبى : *Les pays* ص221 .

espagnole, en un point nommé Ténès, qui se trouve à quatre journées de marche de Tahert. On peut aussi continuer (à longer la côte) jusqu'à (la principauté de) Tahert de façon à se trouver droit en face de la péninsule espagnole. On traverse le bras de mer en un jour et une nuit, et l'on aborde (al-Andalus) **(59).**

هذا يوضح لنا الثبات الذى احتفظ به هذا الطريق من الاتصال بين تاهرت والاندلس ·

اعتبرت تاهرت ذات مركز استراتيجى رائع من وجهة النظر العسكرية والذى بلا شك حمل الامير عبد القادر على الاقامة فيه فى العصور الحديثة · (60)

لكن الاستقرار الذى هو أساس التطور الاقتصادى كان يرى مضمونا بفضل وجود حكومة مستقرة ، قادرة على وضع النظام ، وبالاضافة الى هذا كانت لائمة الرستميين سمعة روحية ومكانة فكرية · انهم بارزون ـ كما يقول :

(61) A. BEL : « Par leur simplicité, par leur piété, par leur science ».

تاريخ أبو زكريا ملىء بالامثلة على علم ومعرفة الرستميين يدل على ذلك أنه خلال المناقشات العلمية كان العلماء يجادلون وجميع الحاضرين يفهمونهم (62) :

« Mais bientôt ils passèrent à des sciences élevées, dont la compréhension échappait à leurs auditeurs, excepté à l'Imâm, qui pouvait encore les suivre ».

« Mohamed b. Aflah avait composé de nombreux ouvrages clairs et victorieux pour répondre aux dissidents » (63).

Abd al-Wahhab « fait copier des livres en Orient » (64).

خلال وقت ما ـ الوقت الذى وصلت فيه الى قمة الازدهار الاسرة الرستمية كان ـ الموقف رائعا ، ترك لنا فى عملين تاريخيين رئيسيين عن تاهرت اقصد كتاب **التاريخ** لابى زكريا وكتاب **التاريخ** لابن الصغير ـ ما يثبت انها كانت فترة نموذجية (65) ، نسبت لها صفات الكمال ·

اشكركم على حسن استماعكم ، والحمد لله ·

(59) نفس المصدر ، ص 217 ·

(60) Marçais - Dessus Lamare : *Tîhert - Tagdempt,* 174 : n. 9.
(61) A. Bel : *La Religion...,* 148 - 149.
(62) Masqueray : *Chronique d'Abou Zakaria,* 104.
(63) Masqueray : *Chronique d'Abou Zakaria.* 79 - 80.
(64) Masqueray : *Chronique d'Abou Zakaria,* 80 ; Marçais, *La Berbérie...,* 114.

(65) مما يدل على المكانة العظيمة التى احتلها الرستميون ان ميمون بن الرستمية قد تولى العرش فى سجلماسة لانه ابن احدى حفيدات الرستميين ، ولقد لمح لذلك تقريبا ابن عذارى فى البيان ج 1 ، ص 157 ، (ومثال متشابه عند محمد بن تاويت دولة الرستميين ، ص 113، وانه منسوب الآن الى بنى يفرن، نستعمل هذا المثل الثانى مقارنة) ·

المــراجــع

القسم الاول : المصادر العربية :

1 ـ ابن الأبار : **الحلة السيراء** ، تحقيق حسين مؤنس ، القاهرة ، الشركة العربية للطباعة والنشر 1963 ، جزآن .

2 ـ ابن الأبار : **التكملة** : انظروا فى القسم الثانى تحت « Alarcon »

3 ـ ابن حزم : **جمهرة انساب العرب** ، تحقيق ليفى بروفنسال ، القاهرة ، دار المعارف بمصر ، 1948 .

4 ـ ابن حزم : **الفصل فى الملل** ، تحقيق عبد الرحمن خليفة ، القاهرة ، مطبعة محمد على صبيح وأولاده ، 8 ـ 1347/1928 ـ 1929 ، خمسة أجزاء (أنظروا فى الترجمات تحت Asin).

5 ـ ابن حيان : **المقتبس من انباء أهل الاندلس** ، تحقيق محمود على مكى ، القاهرة، المجلس الاعلى للشؤون الاسلامية ، 1390/1971، وبيروت دار الكتاب العربى، 1393/1973 .

6 ـ ابن الخطيب : **كتاب أعمال الاعلام** ، تحقيق ليفى بروفنسال ، الربـــاط ، 1353/1934 .

7 ـ ابن سعيد : **المغرب فى حل المغرب** ، تحقيق شوقى ضيف ، القاهرة ، دار المعارف بمصر 1964 ، جزآن .

8 ـ ابن الصغير : أنظروا « القسم الثانى : المترجمات » تحت : « Motylinski »

9 ـ ابن عذارى : **البيان المغرب فى أخبار الاندلس والمغرب** ، تحقيق ج. س. كولين ـ ا. ليفى بروفنسال ، ليدان ، ا. خ. بريل ، 1951 ، جزآن .

10 ـ ابن القوطية : **تاريخ افتتاح الاندلس** ، مدريد ، مطبعة ريباد ينيزا ، 1968 (انظروا فى « المترجمات » تحت : " Ragnan ", " Ribéra ".

11 ـ ابن زكــريا الورجلانى : أنظروا فى « القســم الثانى المترجمات تحــت : " Masqueray ", " Tourneau "

12 ـ البكرى : **المغرب فى ذكر بلاد افريقية والمغــرب** ، تحقيق دى ســلان ، الجزائــر 1857 .

13 ــ العذرى : **نصوص من الاندلس** ، تحقيق عبد العزيز الاهوانى ، مــدريد ، معهد الدراسات الاسلامية ، 1965 .

14 ــ اليعقوبى : انظروا فى « المترجمات » تحت : "WIET"

القسم الثاني ــ المترجمات والدراسات الحديثة :

1 ــ أحمد مختار العبادى : **سياسة الفاطميين نحو المغرب والاندلس** ، « صحيفة معهد الدراسات الاسلامية فى مدريد » 5 (1957) 193 ــ 226 .

2 ــ محمد بن تاويت : **دولة الرستميين اصحاب تاهرت** ، « صحيفة معهد الدراسات الاسلامية فى مدريد » 5 (1957) 105 ــ 128 .

3 ــ محمود علي مكى : **التشيع فى الاندلس منذ الفتح حتى نهاية الدولة الاموية** ، « صحيفة المعهد المصرى للدراسات الاسلامية فى مدريد » 2 (1954) 93 ــ 145 .

4 - Alarcón, M. - A. Gonzalez-Palencia (eds.) : *Takmila* de Ibn Al-Abbâr : *Apéndice a la edición Codera de la « Tecmila » de Aben al-Abbar,* « Miscelànea de Estudios y Textes Arabes », Madrid, Junta para Ampliacion de Estudios, 1915, pp. 149 - 690.

5 - Asin Palacios, Miguel : *Abenhàzam de Cordoba y su historia critica de las ideas religiosas,* Madrid, Academia de la Historia, 1927 - 32, 5 t.

6 - Bel, Alfred : *La Religion Musulmane en Berbérie. Esquise d'histoire et de sociologie religieuses.* Tome I : *Etablissement et développement de l'Islam en Berbérie du VII[e] au XX[e] siècle,* Paris, Librairie Orientaliste Paul Geuthner, 1938.

7 - Chikh Bekri : *Le Kharijisme berbère. Quelques aspects du royaume rustumide,* « Annales de l'Institut d'Etudes Orientales d'Alger », XV (1957) 55 - 108.

8 - Dachraoui, Farhat : *Les commencements de la prédication ismaïlienne en Ifriqiya,* « Studia Islamica », XX (1964) 89 - 102.

9 - Despois, Jean - Raynal, René : *Géographie de l'Afrique du Nord-Ouest,* Paris, Payot 1967.

10 - Fagnan, E. : *Extraits inédits relatifs au Maghreb* (*Géographie et histoire*), trad. franc., Argel, 1924.

11 - Gabrieli, Francesco : *Omeyyades d'Espagne et Abbassides,* « Studia Islamica », XXXI (1970) 93 - 100.

12 - Gayangos, Pascual de : *The history of the Mohammedan Dynasties in Spain* : extracted from the Nafhu-t-tib... by... Al-Makkari... translated by..., Londres, 1840 (Reproducido por Johnson Reprint Corporation, U.S.A., 1964) 2 t.

13 - Hamdani, Abbas : *Some considerations on the Fâtimid Caliphate as a Mediterranean* power, « Terzo Congresso di Studi Arabi e Islamici, Ravello, 1966 », Atti, Napoli, Istituto Orientale, 1967, pp. 385 - 396.

14 - Idris, Hady Roger : *L'Occident musulman à l'avènement des 'Abbassides, d'après le chroniqueur ziride al-Raqiq,* « Revue des Etudes Islamiques », XXXIX (1971) 209 - 291.

15 - Idris, H. Roger : *Réflexions sur le malikisme sous les Omeyyades d'Espagne,* « Terzo Congresso di Studi Arabi e Islamici », Ravello, 1966 », *Atti,* Napoli, Istituto Orientale, 1967, pp. 397 - 414.

16 - Lévi-Provençal, E. : *Histoire de l'Espagne musulmane,* trad. espanola por E. Garcia Gomez : *Espana musulmana hasta la caida del Califato de Cordoba* (711 - 1031 de J.C.), « Historia de Espana dirigida por R. Menendez-Pidal », tomo IV, Madrid, Espana Calpe S.A., 1967.

17 - Lévi-Provençal, E. : *Un échange d'ambassades entre Cordoue et Byzance au IX^e siècle,* « Byzantion », XII (1937) 1-24, reprod. en : *Islam d'Occident. Etudes d'Histoire médiévale,* Paris, G.P. Maisonneuve et Cie., 1948, pp. 81 - 107.

18 - Lewicki, Tadeusz : « al-Ibâdiyya », *Encyclopédie de l'Islam,* Nouvelle édition, Leiden-Paris, E.J. Brill y G. P. Maisonneuve et Larose, 1971, III, pp. 669 - 682.

19 - Lewicki, T. : *La répartition géographique des groupements ibadites dans l'Afrique du Nord au Moyen-Age,* « Rocznik Orientalistyczny », XXI (1957) 301 - 343.

20 - Lewicki, T. : *Traits d'histoire du commerce transsaharien. Marchands et missionnaires ibadites en Soudan occidental et central au cours des VIII^e - XII^e siècles,* «Etnografia polska », VIII (1964) 291 - 311.

21 - Marçais, Georges : « Rustemids », *Encyclopédie de l'Islam,* Leiden-Paris, E.J. Brill y C. Klincksieck, 1936, III, pp. 1270 - 1271.

22 - Marçais, G. : *La Berbérie musulmane et l'Orient au Moyen-Age,* Paris, Aubier, (1922).

23 - Marçais, G. et A. Dessus-Lamaré : *Tîhert-Tagdempt,* « Mélanges d'Histoire et d'archéologie de l'Occident musulman », I : Articles et conférences de G. Marçais, Argel, Imprimerie officielle, 1957, pp. 171 - 193.

24 - Masqueray, E. : *Chronique d'Abou Zakaria,* trad. franc., Argel, 1879.

25 - Mones, Hussain : *Le rôle des hommes de religion dans l'histoire de l'Espagne musulmane jusqu'à la fin du Califat,* « Studia Islamica », XX (1964) 47 - 88.

26 - Mones, Hussain : *Le malékisme et l'échec des Fatimides en Ifriqiya,* « Etudes d'Orientalisme dédiées à la mémoire de Lévi-Provençal », Paris, G. P. Maisonneuve et Larose, 1962, II, pp. 197 - 220.

27 - Motylinski, A. de C. : *Chronique d'Ibn Saghîr sur les imams rostemides de Tahert,* ed., trad. française, « Actes du XIV^e Congrès Intern. des Orientalistes », Alger, 1905 (3^e partie, suite), Paris, 1908, 3 - 132.

28 - Muhammad B. Tâwît (Mohammed Bentawait) : *Relaciones entre les Omeyas de al-Andalus y los Idrisies,* « Primer Congreso de Estudios Arabes e Islamicos, Cordoba, 1962 », *Actas,* Madrid, 1964, 251 - 255.

29 - Nègre, André : *La fin de l'Etat rustumide,* « Revue d'Histoire et de Civilisation de Maghreb », VI - VII (juillet, 1969) 10 - 22.

30 - Nègre, André : *A propos d'une expédition fatimide à Wargilan (Ouargla) d'après Abu Zakariya al-Wargilani,* « Revue d'Histoire et de Civilisation du Maghreb », X (1973) 37-39.

31 - Ribera, Julian : *Historia de la conquista de Espana de Abenalcotia el Cordobes...*, traducccion de...,, Madrid, Real Academia de la Historia, 1926.

32 - Sourdel, Dominique : « *Wazir* » *et* « *Hagib* » *en Occident,* « Etudes d'Orientalisme dédiées à la mémoire de Lévi-Provençal », Paris, G.P. Maisonneuve et Larose, 1962, ᵉII, pp. 749 - 755.

33 - Tourneau, Roger Le : « *La Chronique* » *d'Abû Zakariya al-Wargilani* (*m.* 471 *H.* - 1078 J.C.), Traduction annotée, « Revue Africaine », CV (1961) 117ᵉ- 176.

34 - Vallvé, Joaquin : *La intervencion omeya en el Norte de Africa,* « Cuadernos de la Biblioteca Española de Tetuan », IV (septiembre 1967) 7 - 39.

35 - Veccia Vagliéri, Laura : *Le vicende del Harigismo in epoca abbaside,* « Revista degli Studi Orientali », XXIV (1949) 31 - 44.

36 - Wiet, Gaston : *Ya'kubi, Les pays,* traduit par..., El Cairo, Institut Français d'Archéologie Orientale, 1937.

37 - Yalaoui, M. : *Les relations entre Fatimides d'Ifriqiya et Omeyyades d'Espagne à travers le Diwan d'Ibn Hani,* « II Coloquio Hispano Tunecino Estudios Historicos (Madrid - Barcelona, mayo de 1972) », *Actas,* Madrid, Instituto Hispano Arabe de Cultura, 1973, pp. 13 - 30.

النقطة 2

الإسلام في إفريقيا اليوم



محمد عبد الله عنان
مؤرخ وعضو مجمع اللغة العربية
القاهرة ـ مصر

لا شك ان الاسلام في القارة الافريقية ، قد دخل من بعد الحرب العالمية الثانية في مرحلة جديدة من الانتعاش والنهوض . وتضم القارة الافريقية من السكان ، وفق آخر الاحصاءات نحو مائتين وخمسين مليونا من الانفس ، ومن هؤلاء نحو النصف من المسلمين . منهم في شمال القارة من مصر الى المغرب نحو سبعين مليونا ، موزعين كالآتي : مصر ، أربعون مليونا ، وليبيا مليون ونصف ، وتونس أربعة ملايين ، والجزائر خمسة عشر مليونا ، ومثلها في المغرب ، ومليون واحد في موريتانيا . وفي غرب افريقية في مختلف اقطاره يوجد نحو اربعين مليون مسلم ، منهم في جمهورية نيجيريا الاتحادية وحدها نحو ثلاثين مليونا ، وهي أكثر وحدة مسلمة من السود في القارة الافريقية ، ويوجد في شرق افريقية في السودان نحو ستة ملايين ، وفي الحبشة أكثر من عشرة ملايين من المسلمين ، وهو نحو نصف سكانها ، وفي أوغندة يوجد نحو ثلاثة ملايين مسلم ، وفي كينيا نحو ستة ملايين ، وفي موزمبيق نحو اربعة ملايين ، وفي جزائر موريشوس نحو مائة وخمسين ألفا .

وقد كانت هذه الكتلة الاسلامية الكبيرة ، حتى الحرب العالمية الثانية ، ترزح في مختلف البلاد التي تعيش فيها تحت نير الاستعمار العسكري. فمصر كانت ما تزال تكافح في سبيل استكمال المراحل الاخيرة من استقلالها وكانت ليبيا تحت حكم الاستعمار الايطالي ، والكتلة المغربية من تونس الى المغرب ترزح تحت وطأة الاستعمار الفرنسي المرهقة . وكذلك كتلة البلاد التي في غرب افريقية فيما عدا نيجيريا الواقعة تحت حكم الاستعمار البريطاني كلها تحت حكم الاستعمار الفرنسي . وكانت اوغندا وكينيا وزنجبار في شرق افريقية ترزح تحت حكم الاستعمار البريطاني ، وموزمبيق تحت حكم الاستعمار البرتغالي .

ويمكننا أن نقول ان الاحتلال الفرنسي للبلاد الواقعة في شمال افريقية ، وفي غربيها ، كان اشد وطأة من اي استعمار آخر في نواحي القارة . وكان هذا الاحتلال يتميز بالاخص في البلاد المغربية الثلاثة تونس والجزائر والمغرب الاقصى ، بشدته وقسوته المتناهية . وكان يتميز كذلك بتدخله المنظم في شئون هذه البلاد الدينية ، واخضاع المسلمين فيها لتوجيهاته الهدامة ، واصدار التشريعات العديدة المخالفة لمبادىء الشريعة الاسلامية بها ، بل وتحويل بعض مساجدها الى كنائس دون حياء ولا حرج. وكان يضع المعاهد العلمية الاسلامية تحت ادارة الفرنسيين النصارى . وكان هذا يجري في الجزائر بصفة خاصة ، حيث كان الاستعمار الفرنسي يعتبر هذا القطر الاسلامي العريق أرضا فرنسية، تؤلف احدى ولايات فرنسا وكان يجري على مثل هذه السياسه الدينية في تونس وفي المغرب . وقد حاول في أواخر ايامه في المغرب أن يفصل بين الكتلتين التي يتألف منها الشعب المغربي ، أي العرب والبربر ، فعمل على استصدار الظهير المشهور ، باعتبار البربر طائفة خاصة ، ووضع لتعليمهم برامج بربرية خاصة تبعدهم عن اللغة العربية والدين الاسلامي . وكان تدخله في الشؤون الدينية لامم غربي افريقية السوداء ، أشد واكثر جراة . فالى جانب التشريعات المختلفة المخالفة لمبادىء الشريعة الاسلامية، كان هذا الاستعمار يمعن في امداد جهود البعثات التبشيرية ، ويشد ازرها في تنصير الاعداد الكثيرة من أبناء هذه الشعوب ، حيث لم تكن العقيدة الاسلامية ، في هذه البلاد ، محوطة بسياج من الشرح والتنوير . وكان الاستعمار يحول دون دخول العلماء والوعاظ المسلمين ، والكتب الاسلامية اليها ، لتبقى شعوبها فريسة لسياسته الدينية الغاشمة .

أما عن الاستعمار البريطاني ، فيمكن القول انه كان اخف وطأة واكثر اعتدالا في تدخله في الشؤون الدينية للبلاد الاسلامية الواقعة تحت حكمه ، وان لم يكن يعف عن تشجيع البعثات التبشرية ، ولكن بوسائل دقيقة مستورة . وقد شهدنا نحن بمصر هذا الاعتدال في توجيه أهداف الاستعمار الدينية . وربما كان ذلك راجعا بالاخص الى شدة رسوخ العقيدة الاسلامية بمصر ، ووجود المعاهد

والهيئات الدينية والشرعية العريقة بها ، وفي مقدمتها الجامع الازهر والمحاكم الشرعية ، ومختلف المعاهد الدينية .

على ان الاستعمار البريطاني ، كان من جهة اخرى ، يعمل في بلاد افريقية السوداء ، التي يسيطر عليها مثل نيجيريا واوغندا وكينيا على محاربة الاسلام وكبته ، ومناصرة البعثات التبشيرية على نشر الدين النصراني مكانه ولا سيما بين اهل القبائل البدائية ، وعلى منع أي اتصال ديني او تعليمي اسلامي بين هذه البلاد وبين بلاد الشرق الاسلامي . ومن ثم فقد كان انتشار الاسلام في هذه البلاد ، وفي ظل هذه السياسة الاستعمارية محدودا ، وكان انتشار الدين النصراني بين المواطنين السود في ظلها أكثر يسر وتقدما . ويجب أن لا ننسى بهذه المناسبة أن أعظم الرحالة والمكتشفين الانجليز لجنوب القارة الافريقية وأوسطها في العصر الحديث ، وهو وليم لفنجستون ، كان قسيسا ومبشرا ، وان الجمعية التبشيرية الرئيسية في لندن هي التي بعثته في سنة ١٣٤١ فيرحلاته الاستكشافية ، أولا الى جنوب افريقية حيث تجول في كثير من انحائه ، وبذل جهودا كبيرة في الاتصال بالوطنيين السود واجتذابهم الى اعتناق الدين المسيحي، وثانيا رحلته الثانية الىأواسط افريقية، ومنطقة منابع النيل وبحيرتي نياسا وتاتجانيقا ، حيث قام بنفس الجهود التبشيرية خلال جولاته الاستكشافية .

وهناك في شرق افريقية كتلة اسلامية كبيرة تعاني منذ أمد طويل مطاردة منظمة واضطهادا لا يهدأ من قبل السلطات الحاكمة . تلك هي الكتلة الاسلامية في الحبشة . وهذه الكتلة يبلغ تعدادها أكثر من عشرة ملايين من الانفس ، ممنا يبلغ نصف سكان الحبشة على الاقل ، وهم الآن اربعة وعشرون ميلونا . وتوجد هذه الكتلة الاسلامية في شمال الحبشة ، وفي شرقيها وجنوبها ، ولا سيما في منطقة هرر . وقد زادت أخيرا نحو مليون بما انضم اليها من مسلمي منطقة اريثريا ، التي ضمت قسرا الى الحبشة نتيجة لاجراءات هيئة الامم المتحدة . ونحن نعرف ان الحبشة الرسمية تدين بالمذهب المسيحي التابع للكنيسة الارثوذكسية التي توجد رياستها الدينية بمصر ، وهي الكرازة أو البابوية المرقسية القبطية ، ومن الإسف ان ملوك الحبشة وحكامهايخضعونالكتلة الاسلامية منذ زمن طويل لاضطهاد شديد منظم ، وذلك بالرغم مما نصت عليه القوانين الحديثة من المساواة بين المواطنين الاحباش على اختلاف مذاهبهم في الحقوق والواجبات . وقد كان امبراطور الحبشة الاخير ، وهو الامبراطور هيلا سيلاسي ، من اشد حكام الحبشة وطأة على المسلمين وكبتا لهم . ويتضمن تاريخ الحبشة فصولا مؤسية من هذا الاضطهاد المنظم ، ولا سيما منذ عزل الامبراطور السابق ليجي يسو ، وهو من ام مسلمة خلال الحرب العالمية الاولى، وذلك لما أبداه هذا الامبراطور من ميول واضحة لتركيا المسلمة ، المتحالفة يومئذ

مع امبراطورية النمسا والمجر والمانيا،مما ترتب عليه قيام حركة شديدة لعزله . وقد عزل واعتقل ، ووليت مكانه الامبراطورة زوريتو ابنة الامبراطور منليك الثاني ، وعين الراس تغري ، وهو يومئذ حاكم هرر ولي عهد لها . ولم يكن الراس ثفري هذا ، سوى هيلا سلاسي ، الامبراطور الذاهب . ولما ضعفت حكومة زوديتو ، اختير الراس تغري مكانها وبموافقتها امبراطورا للحبشة،وذلك في سنة ١٩٣٠ .

وقد عانى المسلمون تحت حكم هذا الامبراطور المتعصب ، الذي استمر في رياسة الحبشة حتى سنة ١٩٧٤ ، مع فترات عزل متقطعة أيام الاحتلال الايطالي ، والحرب العالمية الثانية ــ عانى المسلمون الاحباش أمر ضروب الكبت والاضطهاد . وبالرغم من أن مصر المسلمة ، تتعاطف مع مسلمي الحبشة ، وتتألم لما يصيبهم من ضروب المظالم ، فانها لم تبد تذمرها بصفة رسمية ، ولا أن تقوم بأية حركة لمعاونة المسلمين ، نظرا لمركزها الدقيق في كونها مثوى رياسة الكنيسة الاثوذكسية القبطية المصرية ، التي تتبعها الحبشة ، وسائر أساقفتها بالحبشة من رهبان الكنيسة القبطية المصريين . وقد ترتب على ذلك أن الصحافة المصرية تقف ازاء هذه المسألة موقف الحياد والصمت، وتمتنع عن مهاجمة السياسة الحبشية نحو المسلمين حرصا على كرامة الكنيسة القبطية ، وعلى عدم احراج الحكومة المصرية ذاتها . وما زال هذا الوضع قائما مع شديد الاسف . ونحن لانعرف الآن مايحدث في الحبشة تحت الحكم العسكري الجديد ، لانه يخمد كل الاصوات ، ولا يتسرب عن الحبشة من الاخبار الا ماتذيعه السلطات الرسمية وفقا لوجهات نظرها .

ونستطيع أن نقول ان الاسلام في افريقية ، ولا سيما في شمال افريقية ، يجوز في وقتنا الحاضر ، حسبما قلنا في فاتحة هذا المقال ، مرحلة جديدة من الانتعاش والنهوض ، فقد استرد في ظل أوطانه الحرة منعته وكرامته وحرياته في تكييف مصايره . وبالرغم من أن البعثات التبشيرية ، تتسرب حتى اليوم الى الامم الاسلامية المتحررة تحت صفات وضروب مختلفة ، من طبية وتمدينية وانسانية ، فان الحركة التبشيرية القديمة قد انهارت جهودها ، وحصرت في أضيق الحدود . وقد استعادت الدول الافريقية الاسلامية المتحررة حرياتها في صوغ تشريعاتها وفق ماتحبه من أصول الشريعة الاسلامية . وقد ردت الى المساجد المنصرة في الجزائر صبغتها الاسلامية ، وحولت معظم الكنائس الى مساجد عامرة بالمصلين . وقد رأينا مسجد كتشاوة الجامع في قلب العاصمة الجزائرية ، وقد ظهر من الآثار الكنيسة ، وما زالت آثار الصليب الكبير الذي كان ملصقا بواجهته قائمة تشهد بفجر الاستعمار الفرنسي الديني . وقد رأينا

الكنيسة الكبرى في مدينة سطيف، تجري فيها الصلاة الاسلامية، وهي كنيسة قائمة بصرحها القديم الشامخ ، الى أن يتاح تحويل بنائها الى طراز المسجد الاسلامي .
وتعقد الآن المؤتمرات الاسلامية الكبرى في مختلف البلدان الاسلامية ، وتصدر فيها مختلف القرارات المؤيدة لعزة الاسلام ونصرته، والرامية الى اصلاح ماتسرب الى أصوله وأحكامه من مختلف ضروب التحوير والزيغ . ولا بد لنا أن ننوه في هذا المجال بما حققته الملتقيات الجزائرية الاسلامية الكبيرة ، وهي تبلغ الآن حولها الحادي عشر ، من نتائج عظيمة في القاء الاضواء الكثيرة على أصول الاسلام وأحكامه وشريعته ، وعلى تاريخ الاسلام وأحداثه وأمجاده ، وعلى مايجب القيام به من ضروب التجديد والاصلاح لكثير من اوضاعه وواقع أبنائه، والقاء الاضواء أخيرا على كثير مما اتهم به الاسلام ، عقيدته وشريعته ، من آراء وأحكام ونظريات خاطئة أو مغرضة للنيل من اصوله ومعتقداته . وهذا فضلا عما حققته بين علماء الاسلام من مختلف اقطاره من الاتصال الوثيق الفكري والديني والاجتماعي العميق .

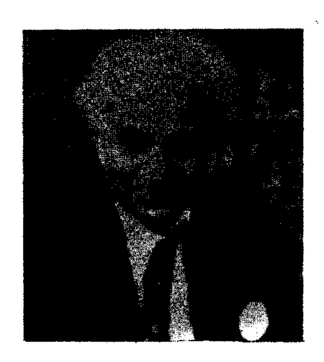
وامامي للتدليل على الحركة الاسلامية التي تجيش بها القارة الافريقية في الوقت الحاضر مثلان عمليان قرات عنهما في الصحف منذ أسابيع قلائل فقط ، وأولهما ان مجلس التنسيق الاسلامي الافريقي الذي أسس في نواكشوط عاصمة موريتانيا، قد اجتمع في شهر ديسمبر الماضي في دكار عاصمة السنغال ليعمل على تنظيم الخطط العملية لتنسيق جهود الجمعيات الاسلامية في افريقية ، وعلى أن يحمل لواء الدعوة والارشاد الاسلامية ، وأن يعمل على رفع المستوى الثقافي للشعوب الافريقية . وقد اشترك في هذا المؤتمر أثنا عشر بلدا افريقيا ، هي تونس وافريقية الجنوبية وزامبيا ، والسنغال ، وسيراليوني، وفولتا العليا ، وغانه ، وكنيا ، وليبيا ، والمغرب وموريتانيا ، ونيجيريا ، وانتخب له مجلس تنفيذي من ستة عشر عضوا ، وتقرر أن تكون دكار هي المركز الرئيسي لمجلس التنسيق الاسلامي الافريقي .

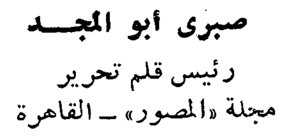
وثانيهما هو انه تجري في الوقت الحاضر مباحثات بين السودان ومصر لتنظيم الدعوة الاسلامية في افريقية ، وانشاء المركز الاسلامي الافريقي ، الذي قدرت تكاليفه بنحو مليوني جنيه ونصف سوداني في مدينة الخرطوم عاصمة السودان ، وذلك لكي يعمل على اعداد وتخريج دعاة للاسلام من أبناء القارة الافريقية ، وقد اجتمع مفتي الجمهورية السودانية بمدينة القاهرة أخيرا مع وزير الاوقاف وشئون الازهر لهذا الغرض .

ومن جهة أخرى فان الاسلام في مختلف الدول الافريقية ، الشرقية والغربية ، مثل أوغندا وكنيا وزنجبار ، والسنغال ، وغانة ومالي وغيرها ، يتمتع الآن بالحماية والحرية والصون ، ويتطلع في مواطنه الصغيرة ، الى الشقيقات الكبرى ، لتزويدها بالاساتذة والوعاظ ، وبالمصاحف الشريفة والكتب الاسلامية المختلفة . والشقيقات الكبرى كلها ، وفي مقدمتها مصر ، بحكومتها وأزهرها ومعاهدها الدينية ، تتسابق الى تقديم هذا العون الكريم الى الجاليات المسلمة في سائر انحاء الدول الافريقية المتحررة .

هذه لمحة عابرة عن حالة الاسلام اليوم في القارة الافريقية . وانها في الواقع لحالة تحمل على الطمأنينة والتفاؤل بمستقبل الاسلام في تلك المنطقة الهامة من العالم . بيد انه مما لا شك فيه أن الاسلام في افريقية وهو ما يزال في بداية يقظته يحتاج الى كثير من العون والتوجيه المستنير ، من جانب الامم الاسلامية الكبيرة القادرة في القارة الافريقية وغيرها ، لكي تضع امكانياتها لخدمة الاسلام وتعزيزه ، وشرح تعاليمه بين الجاليات الاسلامية في دول افريقية السوداء .

الملتــقى الثـــامن للفــكر الاســلامى




صبرى أبو المجـــد
رئيس قلم تحرير
مجلة «المصور» ـ القاهرة

فجأة وبدون أية مقدمات أو ترتيبات سابقة،وجدت نفسى انتقــل بالطائرة من شبه القارة الهندية الى الجزائر.لقد تلقيت وانا فى الهند دعوة للمشاركة فى أعمال الملتقى الثامن للفكر الاسلامى وانا مــن غلاة المعجبين بفكر الملتقيات الاسلامية التى يحضرها علماء مبرزون فى تخصصاتهم وشباب لم يتجاوز بعد أعمار الزهور حيث يضفى العلماء على الشباب فيضا من علمهم وتجاربهم ، وقد اشتركت فى العام الماضى فى الملتقى السابع الذى عقد بمدينة تيزى وزو بالجزائر ورأيت عن كثب كيف يتصارع أكثر من مائة عالم ومفكر اســـلامى بالحجة والمنطق، والعلم، وكيف يشركون ألف شاب مسلم فى عملية التصارع تلك التى تضفى على الفكر الاسلامى مزيدا من التفتـــح والازدهــــار ٠

ثم ان الملتقى يعقد بالجزائر ولى مع الجزائر أكثر من قصـــة حب : عشقتها طفلا، ويافعا، وشابا، وظللت باستمرار احاول المشاركـــة بالكلمة المطبوعة والكلمة المنطوقة فى قضية تحريـــرها كطالب وصحفى وسياسى وطنى ، وحرصى على رؤية الجزائر وخاصة بعـــد العاشر من رمضان يحرضنى بكل قوة على ان اذهب الى الجزائر البطلة، ثم ان الدعوة تجيئنى من الاخ والصديق مولود قاسم وزير التعليم الاصلى والشؤون الدينية فى الجزائر ٠٠٠ ومولود قاسم من وجهة

نظرى المبنية على العلم والتجربة من خيرة شباب الوطن العربى والامة الاسلامية،فلقد جمع الى حماسه المتدفق وغيرته المتوثبة دوما علما صافيا امتزجت فيه الثقافة الاسلامية بعلوم العصر ، فكان خير مثال للاصالة والتفتح · كل ذلك دفعنى رغم مرضى وتعبى وارهاقى الى تلبية الدعوة والذهاب من باكستان والهند وبنجلاديش الى الارض الحبيبة،أرض المليون ونصف مليون شهيد ·

وقبل ان أصل الى الجزائر وبالتحديد فى منتصف المسافة بين تونس والجزائر تحولت رحلة الطيران الهادئة الناعمة الى رحلة شاقة عنيفة·· فلقد تقلب الجو فجأة الى درجة من السوء لم تحدث مرة واحدة من قبل خلال الخمسين سنة الماضية · أصبحت طائرتنا كريشة فى مهب الريح لا تستقر على حال من كثرة ما مر بها من أزمات جوية عنيفة ·· تهبط فجأة الى اسفل ، وترتفع فجأة الى أعلى وتتارجح بقوة وعنف ذات اليمين وذات الشمال وكانها فقدت توازنها تماما بصورة جعلتنا كلنا نتوقع بين لحظة وأخرى وقوع المأساة · وبصورة لا شعورية أخرجت أوراقى وقلمى وحاولت بين الضجيج والصراخ ان أدون بعض خواطرى لعل زميلا صحفيا ـ اذا ما قدر الله ووقعت المأساة ـ يجد فى تلك الخواطر وصفا لمشاعر الانسان عندما يواجه محنة المـوت ولكن الله سلـم ·

وهبطت الطائرة بسلام ، وان كانت قد نزلت فى غير المكان الذى حدد لها النزول فيه . وكان المطر غزيرا وعنيفا وكانه افواه قرب ممتلئة تريد ان تفرغ ما فى جوفها بسرعة،حتى ان المطار كله تحـول الى بركة حقيقية من المياه ·

وانستنا حرارة الاستقبال كل ما حدث لنا.وبعد لحظات قصيرة كنا نتحدث عن الحياة بعد ان كنا نواجه بين لحظة وأخرى الموت وكانت الساعة السابعة مساء فأصررت على الذهاب مباشرة الى بجاية ـ على بعد ثلاثمائة كيلومتر من مدينة الجزائر ـ حيث ينعقد الملتقى · ونصل الى بجاية بعد خمس ساعات كاملة ونظل تائهين فى الجبال ثـلاث

ساعات بحثا عن فندق الحماديين الذى نزلت به الوفود ولم يكـــن يبعد عن بجاية نفسها أكثر من سبعة عشرة كيلومترا ٠

لقد لف الظلام المنطقة باسرها بصورة مزعجة للغاية ٠ ولم تنقطع الامطار لحظة واحدة طوال الليل حتى لقد قطعت الامطار الطرق ، وازالت السيول مناطق كثيرة باسرها ، وفى السادسة صباحا كان موعد الملتقى مع جولة تاريخية خارج بجاية ٠ وبجاية هذه تشكـل منظرا عجيبا،انها اشبه بتنين رابض يتشكل رأسه من سبع قمـم جبال صغيرة حادة ، أو بصورة أخرى تنين مضطجع فى الماء ينظر الى عرض البحر الى الشمال نحو مدينة مرسيليا الواقعة تماما على نفس الخط من الجهة الاخرى للبحر المتوسط ٠ وبجاية بجبالها ووديانهـا وانهارها وسهولها قطعة من تاريخ قديم امتد ألوف السنين شهــد حلو الحياة ومرها فى ايام الرومان والوندال وكان ازهى أيام ذلك التاريخ عندما أصبحت بجاية عاصمة للمغرب العـربى فى أيـام السلطان الحمادى فى القرن الحادى عشر الميلادى.وكانت فى أيام احفاده أجمل عروس فى البحر الابيض المتوسط ومقرا مختارا لكثير من العلماء والشعراء والمتصوفين من بينهم الامام ابن تومرت ، زعيم حركة الموحدين والعالم الصوفى ابو مدين الذى تلقى العلم فى بغداد وفى أشبيلية فى الاندلس ٠ وكانت بجاية مقرا لحضارات متعددة ٠ وفى الوقت ذاته كانت قلعة من قلاع الحرية سقطت بعد مقاومة عنيفة فى ايدى القائد الفرنسى الجنرال اتريزال الى ان أصبحت معقلا من معاقل ثورة الفاتح من نوفمبر 1954 م ٠

وعندما بدأت رحلتنا التاريخية تحولت الحافلة ـ السيارة الكبيرة التى انقلتنا ـ الى منتدى تاريخى وأدبى لا نظير له ، حيث تعـاقب على ميكروفون الحافلة كبار مؤرخى المـــغرب يروون بدقة متناهية كل ما كتب شعـــرا أو نثـــرا عن تلك المنطقـة التاريخية أو فى تلـــك المنطقـــة التـاريخيـة والـــذى يعجبنـــى حقيقـــة فى المؤرخـــين المغـــاربة انهـــم يحفظـــون عن ظهـــر قلـب تاريخ كل جزء من بلادهم ، يحفظون تاريخ القبائل التى عاشت فى تلـك

البلاد ، يحفظون كل الوقائع التاريخية التى حدثت فى تلك المناطق، بل يحفظون كل شعر قاله أبناء تلك المناطق أو قاله شعراء آخرون فى تلك المناطق،أو عن تلك المناطق،وقد ازدهر أدب الرحلات فى المغرب العربى حتى أصبح لونا مميزا للادب المغربى.وقد اعجبنى فى المؤرخين المغاربة انهم يجرون وراء الكنوز التاريخية والادبية التى لم تكتشف بعد والتى تمتلىء بها بعض خزائن الكتب فى أوروبا وفى مقدمتها مكتبة الاسكوريال فى اسبانيا ٠

ونمر ونحن فى رحلتنا التاريخية بوادى الآخرة الذى هو فعلا اقرب الطرق الموصلة الى الآخرة،وذلك لانه على ارتفاع خمسة آلاف قدم،وبين جبلين لا تزيد المسافة بينهما على بضعة امتار، نمر فى طريق ضيق لا تسير فيه السيارة الصغيرة الا بشق الانفس وأية نظرة من أعلى الى الوادى السحيق تصيب المرء بدوار شديد ٠ ولم نصل الى مدينة ايفرى فى أعلى الجبل الا بصعوبة بالغة وبعد عمليات عديدة لاصلاح الطرق التى انهارت بفعل السيول ٠

ومدينة ايفرى هى التى التقى فيها الثوار الجزائريون فى مؤتمرهم بوادى الصومام عام 1956 وكانت فرنسا تدعى ان هذه المنطقة يسودها هدوء تام وان احداث الجزائر بسبب اناس غرباء عن الجزائر يجيئون اليها من تونس أو المغرب فاجتمع الثوار فى تلك المنطقة التى تتوسط الجزائر وكان المؤتمر من انجح المؤتمرات حيث وضع المؤتمرون استراتيجية سياسية وعسكريةجديدة للثورة الجزائرية سارت بها فى طريق النجاح ٠ وحاصرتنا الامطار فى فندق الحماديين وحالت بيننا وبين الوصول الى مدينة بجاية لمدة يومين واتجهنا بعدهما الى حيث يعقد الملتقى فى المسرح الوطنى لمدينة بجاية ، واستمع الى الاخ مولود قاسم وهو يحدثنا عن أهم موضوعات الملتقى ويشيد بالحضارة والفكر الاسلاميين اللذين كانا منطلق أوروبا نحو نهضتها وتقدمها، وينادى بأن طريق الخلاص الوحيد للامة الاسلامية وأية أمة من الامم فى وضعها هى الكد فى تدارك ما فات والسعى للحاق بركب الناهضين، مع المحافظة على روحها وخصائصها وتقديم الجوهر على

الاعراض،وعدم الاستغناء بالقشور عن اللباب وضرورة الاقلاع عـــن التعلق بسلبيات الحضارة للانتصار على ايجابياتها ٠

واستمع الى مـولود قاســـم وهو يعبر عن رأيه بوضوح وصراحة فيقـــول :

« اننا أمام فريقين نرى كلا منهما مغال وواقع فى الشطط : أحدهما فريق المتقوقعين المنزوين المنكمشين ، الراكدين ، المتعنتين الجامدين الذين يدعوننا باسم المحافظة على التقاليد الى عدم الاكتفاء باقفـــال الابواب،بل يطلبون منا أيضا سد النوافد حتى لا يتسرب الينا بصيص من نور، أو نسمة من هواء،ونبقى فى الظلمات،ونتعرض للاختنـاق ، والفريق الآخر يلحون علينا باسم التقدمية،والثورية،والتطور،والتمدن وسعة الافق،والتفتح،والعالمية،الى عدم الاكتفاء بفتح النوافذ واسعة والابواب على مصاريعها ، بل يصمون آذاننا بالمناداة بضرورة نـزع السقوف وهم المغامرون السطحيون المسوخون ٠ ونحن نجيب أولئك وهؤلاء بأننا لا نريد أن نحرم انفسنا من الاوكسجين والضوء اللذين هما اكسير الحياة ولا أن نعرض أنفسنا للزوابع الجارفة المطيحـــة بالابنية ، المخلخلة للاوتاد ٠٠٠ اننا ندعو الى فتح النوافذ بل الابواب عند اللزوم،ولكن مع الاحتفاظ بالسقوف والرفوف ونقف بأقـــدام ثابتة على أديمنا الراسخ لنرنو مطمئنين واثقين بأنفسنا الى عوالم أخرى نستقى من تجاربها الناجحة ونتعظ بأحكامها،وهو ما يدعونا اليـــه الاسلام وما نجح به السلف،وهذا هو المخرج الوحيد للانسانية التى تعانى أزمة حضارة حادة تهدد البناء البشرى بالتصدع والانهيار » ٠

واذا كان الملتقى الثامن للفكر الاسلامى قد آثر أن يناقش أهـــم قضايا العصر فى تلك المرحلة الزاهرة من مراحل تاريخ البشريـــة، فقد كان محاضروا الملتقى والمشتركون فى النقاش من خيرة المفكرين : د ٠ ليلى الصباغ أستاذة التاريخ بجامعة دمشق ٠ د ٠ محمد نجـــاة الله الصديقى أستـــاذ الاقتصـــاد بجـــامعة على كـــره ـ الهنــــد ٠ د ٠ عبد الكريم سايتو : أستاذ الاقتصاد بجامعة طوكيو ٠ د ٠ محمد مزالى وزير الصحة والشؤون الاجتماعية بتونس ٠ د ٠ صلاح الصاوى

الاستاذ بكلية الآداب جامعة طهران • د • راشد الراجح عميد كلية الدراسات الاسلامية بجامعة الملك عبد العزيز ـ جدة • د • مصطفى بعيو المؤرخ ووزير الثقافة الليبى سابقا ، القاضى عبد الله الشماحى الوزير والمؤرخ والمستشار بوزارة العدل ـ صنعاء • د • عثمان أمين الفيلسوف المصرى المعروف ، د • زكى نجيب محمود أستاذ المنطق الوضعى بجامعة القاهرة •

السيد عبد الله بن بيه وزير العدل فى موريطانيا ، والى جانب هؤلاء كثير من المستشرقين الاوروبيين د • مانفريد فلايشهامر نائب رئيس قسم علوم الشرق والعصور القديمة فى جامعة هالة ـ ألمانيا الديمقراطية ـ • د. ايفادى فترى مايبروفيتش الاستاذة بكلية البنات ـ جامعة الازهر ـ وفرنسيس منهايم الكاتب ورئيس الجمعية البلجيكية العربية وغيرهم ، وغيرهم •

وكان فى مقدمة الموضوعات التى ناقشها المفكرون « دور المفكر اليوم ، وعلى مر العصور ، فى أمته وتجاه الانسانية فى كل من قضايا الساعة وآفاق المستقبل » • أثر الفلسفة الاسلامية فى الفكر الغربى : بين الاصالة والمعاصرة • مساهمة الحضارة والفكر الاسلاميين فى مختلف مجالات العلوم والفنون والتراث الانسانى على العموم ، عوامل ازدهارهما وأسباب انحطاطهما وشروط انبعاثهما • وكان فى مقدمة المحاضرات التى أثارت جدلا ومناقشة محاضرة د • زكى نجيب محمود اذ كانت على اختصارها الشديد مركزة للغاية وكانت الآراء الجريئة التى نادى بها د • زكى نجيب محمود مثار انتقادات عنيفة من طرف البعض ومثار تأييد تام من البعض الآخر •

وكان مما قاله الدكتور زكى نجيب محمود، وهو يتحدث عن أصحاب القول والكتابة من قادة الفكر انهما قسمان : أحدهما يضرب على الوتر القديم وحده ، والثانى يضرب على الوتر الجديد وحده وقد فشلنا حتى الآن فى أن تجىء النغمة المعزوفة شاملة للجديد والقديم معا ، بحيث يلتقى تيار القديم بتيار الجديد • لقد تركنا ما تحت أقدامنا من رقعة الارض وما فوق رؤوسنا من جو السماء للاوروبى وحده أو الامريكى وحده يفعل فيها ما يشاء لولا اننا والحمد لله قد

أخذتنا آخر الامر يقظة واعية نحاول بها النهوض من كبوتنا التى كانت والامل معقود بجيل جديد يتناول أرجاء الوطن العربى بنظرة فيها تقليد التراث،وفيها تجديد الحضارة معا · على ان الهدف النهائى ان نكسب كل مقومات العلم والادب والفلسفة السابقة فى دنيا العصر، فى لغة عربية،ولن يحق لنا الحديث عن وجودنا فى عصرنا قبل أن نجد هذا العصر قد نطق بلسان عربى مبين . وأذكر ان الدكتور زكى نجيب محمود قد رد على أحد الذين انتقدوه بعنف قائلا : لن أرد عليك لانك تخطب ، وأنا أكتب ··· كما انه رد على أحد الذين علقوا على محاضرته بقوله : لقد تحدثت عن هذه النقطة فى كلمتين وانا تحدثت عنها فى كتابين ، وكانت المحاضرة الوحيدة التى بلغ فيها النقاش درجة كبيرة من الحدة هى محاضرة د · جوزيف فان ايس،مدير المعهد الشرقى بجامعة توبنغن ـ المانيا الاتحادية ـ وكانت عن « نشأة علم الكلام فى الاسلام » · وكان د · جوزيف قد أصدر أحكاما قاسية وعنيفة على بعض المذاهب الاسلامية دون أى سند فقهى،كما كان قد حاول أن يبعث بعض الخلافات بين المذاهب الاسلامية التى لم يعد لها وجود الآن ·

وكانت مناقشة محاضرة د · جوزيف فان ايس فى غيبته فقد سافر فور القاء محاضرته وقبل مناقشتها الامر الذى أثار أكثر من سؤال. وقد اشترك فى الملتقى حضورا ومناقشة أكثر من ألف طالب وطالبة من السنتين النهائيتين من التعليم الثانوى والجامعات،وكان اشراك هؤلاء الطلاب خطوة موفقة للغاية ، ذلك لان هؤلاء الطلبة قد استفادوا ـ كما قال لى بعضهم ـ أكبر فائدة « فمناقشة هؤلاء المفكرين مكنتنا من أن نعرف الكثير عن قضايا العصر وأتاحت لنا فرصة دراسة الثقافة الاسلامية والفكر الاسلامى دراسة واعية عميقة بعيدة من مقاعد الدرس » ·

كلمة هزتنى أكثر من أى كلمة أخرى سمعتها من د · عبد الكريم سايتوح اليابانى الذى أسلم هو وأسرته وراح يدعو للاسلام فى ربوع اليابان :

« لقد فقدت ابنى فى العام الماضى الذى كان يتلقى العلم فى الاماكن المقدسة فى السعودية،فأرسلت بدلا منه،ابنا آخر لاننا نريد أن نتعلم الاسلام على حقيقة » ·

الطــاهــريون والــدولة العبــاسيــة

د٠ المنجـى الكعبـى
استاذ بالجامعة التونسية



لم يكن أسلاف الطاهريين معروفين جيدا ، قبل ان يؤسس طاهر بن الحسين الخزاعى ملكهم فى خراسان سنة 821/205 ٠ وعلى العموم يعتبر قرار المامون بتعيين طاهر بن الحسين واليا على خراسان ، نتيجة لما أحـرزه هذا القائد الملقب بذى اليمينين ، من انتصار بالاستيلاء على بغداد سنة 813/189 ،وقتل الامين (1) ٠

حقا هناك من يميل الى اعتبار قيام ملك هذه الاسرة نتيجة مكيدة تافهة ، بل مؤامرة موجهة ضد المأمون الذى كان ـ على ما يقال ـ يحذر من طاهر بسبب صيته ونفوذه ٠ على أنه يروى أن طاهر بن الحسين ، رشا وزير المأمون أحمد بن أبى خالد ، الذى أقنع

(*) انتهز هذه الفرصة لاعرب عن كل تقديرى للاستاذ ك٠ كاهين والاستاذ شارل بيلا اللذين اقترحا على كتابة هذا المقال لعلاقته بالاطروحة التى قدمتها لنيل دكتورا الدولة في الآداب حول **الطاهريين** ٠

(1) انظر بخصوص النزاع الذى قام بين الامين والمأمون مقال ف٠ غبرييلى ، تركة هارون الرشيد والحرب بين الامين والمأمون فى R.S.O. العدد 11 (1928) ، 391 ـ 7 ٠

المأمون بتوليته اقليم خراسان (2) • وبعد سنتين من ولايته أعلن طاهر بن الحسين التمرد من عاصمته مرو • ويقال أن الحكومة المركزية (3) كلفت بعد ذلك بقليل من دس له السم - ولكن الرواية التاريخية تضيف أن المأمون اعترف أخيرا لابنائه بحق توليهم الملك بعد أبيهم (4) •

ويشير بعض المؤرخين من جهة أخرى ، بدون تعليق ، الى مصعب جد طاهر ، الذى كان حسبما تفيد المصادر ، كاتبا لسليمان بن كثير الخزاعى الداعى العباسى المشهور (5)

فاذا تأملنا هذه الروايات الواردة عن بداية تاريخ الطاهريين ، فاننا نكاد نعتقد بأن ذا اليمينين ، ظهر فجأة على مسرح التاريخ العباسى ، لما صادفه من حظ عندما عينه المأمون قائدا للجيوش الخراسانية المرسلة سنة 809/194 لمقاتلة جيش الخليفة الامين ، الذى كان بقيادة على بن عيسى بن هامان •

والحال ان انتماء جد طاهر الى خزاعة على غرار سليمان بن كثير الذى اتصل به ، يدعو الى استقصاء الدور الذى قد يكون قام به هو ، أو احد اعضاء اسرته فى الدعاية لبنى العباس ، ونعلم ان خزاعة كان لها تاثير كبير فى هذه الدعاية ، لاسيما وأن القرار الخطير الذى اتخذه المأمون باسناد مسؤولية حرب الامين لطاهر بن الحسين تفرض أن المأمون يعرف جيدا أسلاف طاهر ، وأنه انما اختاره بسبب ما قدمته أسرته من الخدمات للخلافة العباسية ، أو تقديرا لبعض أعمالها المتأخرة التى أبرزت موقفها وتأييدها للمأمون ، فى نزاعه مع أخيه الامين •

كل هذه الملاحظات ، دفعتنا الى البحث فى نسب الطاهريين ، بتتبع الحوادث التى جرت فى خراسان منذ قيام الخلافة العباسية ، وحتى فى عهد الدعوة الهاشمية ان دعت الحاجة •

(2) انظر د• سوديل الوزارة العباسية من سنة 799 الى 936 • دمشق 1959 233 •
(3) د• سوديل : ظروف وفاة طاهر الاول فى خراسان سنة 822/207 فى أرابيكا 5 (1958) 66 - 69 •
(4) د• سوديل : الوزارة ••• ص 223 •
(5) دائرة المعارف الاسلامية ج I ، طاهر بن الحسين ، 4 ، 660 الطاهريون 4 ،664 (و بارطولد) •

على أنه ينبغى قبل الحديث عن الدور الذى يحتمل أن يكون قد قام بـه مصعب ابن رزيق الخزاعى ، فى الدعوة لبنى العباس ، أن نعرف ان كانت أسرته عربية أو معربة بالولاء فى خزاعة ٠

من الاخبار المفرقة التى استقيناها من كتب التاريخ والادب خبر هام ذكره السلامى صاحب « تاريخ ولاة خراسان » (6) ٠ فقد نقـل هذا المـؤرخ أن الجـد الثانى لطاهر ابن الحسين ، المسمى : « رزيقا ، كـان مولى لطلحة بن عبد اللـه بن خلف ، المسمى بطلحة الطلحات الخزاعى » ٠ وذكر السلامى أيضا أن طلحة الطلحات ، قلـده سلم ابن زيـاد ، الوالى الاموى فى خراسان ولايـة سجستان ، وأنـه هلـك أثناء فتنـة ابن الزبير (7) ٠

ونعرف الى ذلك ، أن رزيق بن أسعد ، رافق المهلب بن أبى صفرة الى خراسان ، وشارك مع جيشه فى فتح هذه البلاد (8) ٠ ويجوز أن يكون والد رزيق أول من أسلم من أفراد هذه الاسرة ٠ ويفيد خبر نقله فيما بعد ذلك بكثير صاحب طبقات ناصرى ، أنه اجتمع بعلى بن أبى طالب الذى أسماه أسعد بعد اعتناقه للدين الجديد (9) ٠

وأخيرا ، اذا اعتمدنا على رواية مذكورة فى كتاب بغداد (10) ، فان طاهر بن الحسين ذكر أثناء حديث مع أحد أصحابه ممن تعتبر أسرته المعربة من أقدم أسر خراسان ، أن جديهما الثانيين قدما فى آن واحد للاستقرار بخراسان ٠

ومفهوم هذا ، أن رزيقا كان يعتبر من جهة ما على الاقل ، كمهاجر فى خراسان على غرار العرب الذين نزحوا اليها بعد الفتح ٠ على أن المصادر المختلفة لا تتحدث بشىء

(6) ضاع هذا المؤلف (أنظر حاجى خليفة : كشف الظنون ط٠ 1945/1364 ، 1 215) الذى نقل عنه المؤرخون اللاحقون وخاصة ابن خلكان وياقوت ٠

(7) السلامى بنقل ابن خلكان المتوفى سنة 1282/681 وفيات الاعيان نشر محيى الدين عبد الحميد القاهرة 1948 ج 12 ص 274 ٠

(8) الكتاب المذكور ج 2 ص 274 ٠

(9) طبقات ناصرى ، 24 نقل س٠ نفيسى تاريخ خاندان طاهرى ، طهران 1956/1335 ص 285 ٠

(10) ابن أبى طيفور (المتوفى 893/280) كتاب بغداد نشر محمد زاهد الكوثرى القاهرة 1948/1368 ، 65 ٠

عن أسلاف طاهر بن الحسين قبل الاسلام : لا عن أصلهم ، ولا دينهم ، ولا حالتهم الاجتماعية (11) • ولا يمكن لذلك أن نرسم تاريخ الاسرة فى الفترة السابقة لطاهر ابن الحسين الا ابتداء من أسعد ، اعتمادا على المعلومات القليلة التى حفظتها لنا المصادر.

* * *

استقرت قبيلة خزاعة التى انتمى اليها الطاهريون ، فى البصرة ، قبل انتقال بعض أفرادها الى خراسان ، مع الجيوش العربية التى أرسلت فى عهد الخليفة عثمان (24 ـ 644/35 ـ 56) لفتح نواحيه (12) •

ولابد من أن نذكر بان خزاعة فرع من الازد اليمنيين ، الذين نابهم خمس من البصرة، عند تقسيمها على القبائل العربية التى استقرت فى عاصمة العراق الجديدة (13) .

لم تقع هجرة الخزاعيين الى خراسان بعد مدة طويلة من استقرارهم فى البصرة • وقد أخبرنا اليعقوبى أن الخليفة عثمان أرسل عبد الله بن عامر عامل البصرة بجيش الى خراسان لفتحها • وكان ذلك سنة 650/30 ـ 51 • وفى السنة نفسها قسم عبد الله خراسان بعد فتحها الى أربع ولايات ، وولى على كل واحدة منها أحد مساعديه الذين كانوا غالبا ، من رؤساء القبائل ، ومن بينهم عمرو بن مالك الخزاعى • ولا شك أن عمرا عين لحكم طائفة من الفاتحين العرب أغلبهم منَ قومه • على أننا لا نعرف أى ولاية من ولايات خراسان أسندت اليه • وقد تكون هى ولاية هراة ، التى تتبعها مدينة بوشنج التى ولد بها طاهر ذو اليمينين سنة 775/159 • (14)

واذا كان رزيق ، كما أشار الى ذلك طاهر (15) ، قد قدم الى خراسان ، ضمن أين

---

(11) على أن طبقات ناصرى (نقل نفيسى 258) ذكرت سلسلة النسب الطاهرى التى تحتوى على 17 جدا وتنتهى الى الملك منوتشهر • وهذه السلسلة غير صحيحة قطعا •

(12) أنظر ب• سبولير :

B. Spuler, Iran in Frueh-islamischer Zeit .Wiesbaden 1952. 14 et 77.

(13) أنظر ش• بيلا : الوسط البصرى وتكوين الجاحظ ، باريس 1952 ، ص 24 •

(14) ابن خلكان : وفيات ج 2 ص 204 ـ أبو الفضائل الحموى : التاريخ المنصورى نشر غريازنفتش موسكو 1960 ، 43 أ •

(15) أنظر المرجع المذكور رقم 3 •

جاء ومتى كان ذلك وكيف أتيح له الاستقرار ؟ فهل قدم اليها من البصرة ، مع الخزاعيين الذين كانوا حسب عادات القبائل العربية ، يرافقهم مواليهم فى ارتحالهم للفتح ؟

ان هذا شيء جد محتمل لان الرواية السابقة تفيد أن والده أسعد ، دخل من قبل فى ولاء خزاعة بالبصرة ، عن طريق عبد الله بن خلف الخزاعى ، شيخ القبيلة · وولاء رزيق للعرب لم يبدأ منه ، بل يرجع الى والده أسعد كما أفاد ابن قتيبة (16) · واذا راعينا فى الرواية السالفة شيئا من الصحة فان أسعد يكون قد جاء الى البصرة حوالى سنة 656/36 ، وهى سنة قدوم على بن أبى طالب الى البصرة ابان معركة الجمل ، فقد اعتنق أسعد الاسلام بمحضر الامام على ، فى هذه المدينة وبتلك المناسبة · وكان يسمى من قبل زادان (17) ·

وكان انتماء أسعد بعد اسلامه الى خزاعة ، فى الحين ، بفضل عبد الله بن خلف الذى كان يوجد عند هذا التاريخ بالضبط فى البصرة ، والذى نعلم أنه آوى عن قصد على ما يبدو عائشة زوج الرسول (ص) ، وقد كانت الى جنب طلحة والزبير فى نزاعهما مع على (ض) (18) ·

ومهما يكن فان تاريخ ولاء آل طاهر الى خزاعة ، يرجع قطعا الى ما قبل 684/63 ـ 85 وهى على ما أفـاد اليعقوبى السنة التى عـين فيها يزيد الاول (60 ـ 680/64 ـ 4) سلم بن زياد عاملا على خراسان ، وعين له حاشية تتألف من عدة أعيان من بينهم طلحة ابن عبد الله الخزاعى ، والمهلب بن أبى صفرة وعبيد الله بن معمر التميمى ، وعبد الله ابن خازم السلمى (19) ·

وعلى كل فان رزيقا قد توجه بصفة مهاجر الى خراسان (20) فى ذلك العهد ، برفقة مولاه طلحة الطلحات ، وهذا الاحتمال يؤكده بصورة ما ، ما رواه الطبرى من أن رزيق

(16) ابن قتيبة : شعر 826 ·
(17) زادان ، أو بادان أو ماهان الخ ·· انظر طبقات الناصرى 24 بنقل نفيسى ص 258.
(18) انظر دائـــرة المعارف الاسلامية ج 2 ، 1 عائشة بنـت أبى بكـر ، 317 ـ 318 (و· منتقمرى واط) ·
(19) اليعقوبى : تاريخ بيروت 1960 ، 252 ومعجم البلدان 119 ·
(20) أنظر المرجع المذكور تعليق 3 ·

ابن أسعد ، رافق المهلب بن أبى صفرة ، وشارك فى الفتـــح مع جيشه (21) · فان المهلب الذى كان على ما سبق ذكـــره ، من حاشية سلـم بن زياد ، كما كان طلحـة الخزاعى (22) ، قد أرسله ســـلم بمجرد الوصول الى خراسان ، لمقاتلة طرخون (23) وفتح بخارى · ولكن المهلب كان قبل أن يتجه الى خراسان مع سلم ، قد قصد اليها مرة أولى ، سنة 664/44 (24) · فمن الجائز على هذا أن نتساءل هل كان رزيق شارك مع المهلب فى فتوحاته الاولى بخراسان ، أو فى التى وقعت فيما بعد لا غير (25) · واذا لم نحظ بجواب دقيق على هذا السؤال فاننا متاكدون على الاقل من أن رزيق بن أسعد ، قد وصل الى خراسان ، قاصدا اليها من البصرة ، وأنه اذا لم يتأكد وصوله اليها برفقة مولاه طلحة الطلحات ، فلا أقل من أنه كان بخراسان الى جنب الزعيم البصرى المشهور المهلب · وقد كان المهلب واليا على خراسان ، كما نعلم ، حتى توفى سنة 688/79 · وبناء على ما تقدم ، يبدو أنه من المحقق أن الاسلاف الطاهريين ، الذين أسلموا استقروا من جديد فى خراسان ، كموالى لقبيلة خزاعة العربية ، عند منتصف القرن الهجرى الاول (القرن السادس الميلادى) ·

* * *

أما طلحة الطلحات الذى توجه الى خراسان غالبا برفقة مولاه رزيـــق ، فقد ولاه رئيسه سلم بن زياد على سجستان · وعند وفاة الخليفة زياد بن معاوية تخلى سلم عن عمل خراسان ، وولى مكانه عبد الله بن خازم السلمى (26) · وقد انضـم عبد اللـه ابن حازم بعد ذلك بقليل ، الى عبد الله بن الزبير ، مناوىء الامويين ، الذى استطاع أن يقنع أكثر أهل العراق بتأييده ونصرته (27) ·

(21) الطبرى نقل ابن خلكان ، الوفيات 2 ، 274 ـ 275 ·
(22) الطبرى (2 ـ 1988) يفيد أن أسعد كان يكنى أبا زينب (؟) اقرا بدل ذلك أبا ربيع
(23) طرخون بفتح الطاء وضمها ، أنظر سبولير ، ايران 30 ، الطبرى 2 ، 1225 ـ 31 · ابن الاثير 4 ، 211 ·
(24) كان ذلك برفقة الحكـم الغفارى ، والى خراسان الذى ولاه زيـاد بن أبيـه والى العراق بوصاية من معاوية (اليعقوبى : تاريخ 2 ـ 272) ·
(25) أنظر المرجع المذكور تعليق رقم 13 ·
(26) اليعقوبى : تاريخ 2 ، 252 ، وفيات 2 ، 274 ـ 5 ·
(27) اليعقوبى : تاريخ 2 ، 255 ·

وقد كانت الحالة لا تزال غامضة مضطربة عندما تولى عبد الملك بن مروان الخلافة ٠ وقد عزل في الحال عبد الله بن حازم ، وولى مكانه أمية بن عبد الله بن أسيد وأرسل معه جيشا كبيرا لمقاتلة انصار ابن الزبير المتمردين ٠ وذكر اليعقوبى أن أمية عين بعد وصوله ، ولده عبد الله واليا على هراة وسجستان ، لخوض المعركة مع أنصار ابن الزبير ، والحال أننا نعلم أن فى هذه السنة بالضبط ، سنة 684/65 ـ 85 ، حدثت وفاة طلحة الطلحات والى سجستان (28) ٠

وعلى هذا يجب أن نستخلص ، أنه كان هناك طلب بثار طلحة ، وأنه يمكن أن نفترض أن من بين من أرادوا القيام بهذا الواجب رزيق بن أسعد ٠ والظاهر أن رزيقا اضطر كغيره ممن لم يسعدهم الحظ فى عهد الامويين ، الى مناصرة أهل البيت ٠

وأقدم ما ذكرته الاخبار من مشاركة رزيق بالفعل فى حروب الشيعة ، هو ما جاء فى الطبرى من « ان رزيق بن أسعد شارك فى حرب عبد الرحمن بن الاشعث » (29) ٠

وقد كان الاشعث كما علمنا ، واليا على سجستان تحت سلطة الحجاج بن يوسف . ولما لم يقدر على قتال رتبيل (أو زنبيل) (30) ، كما أمره بذلك الحجاج ، اعتبره هذا ثائرا ٠ وبذلك وقعت حرب كبيرة بين عامل العراق (الحجاج) وواليه (ابن الاشعث) وانتهت هذه الحرب بوفاة ابن الاشعث سنة 702/83 (31) ٠ وقد تقدمت جيوش ابن الاشعث الى العراق ، وجرت أكبر الوقائع ، كما أفاد اليعقوبى ، فى البصرة والكوفة ٠ وكانت معارك الكوفة حامية على ما أفاد اليعقوبى أيضا ، واصطدم فيها الحجاج (32) بالشيعة الذين اجتمعوا تحت لواء ابن الاشعث ٠

---

(28) نفس المرجع 2 ، 271 ـ 2 والوفيات 2 ، 274 ٠

(29) الطبرى 3 ، 1988 ، انظر بخصوص ابن الاشعث د٠ م٠ ا٠ 2 تحت هذا الاسم 737 (ل٠ قتشيا ـ قاغليرى) ٠

(30) أنظر سبولير : ايران 24 و 7 ، وبيلا : الوسط البصرى ٠٠٠ 271 ٠

(31) أنظر د٠ م٠ ا٠ 2 ابن الاشعث 3 ، 737 ٠

(32) الطبرى ، 2 ، 1042 ـ 1061 ـ 2 ، اليعقوبى : تاريخ 2 ، 332 ٠ نقل بيلا ، المرجع المذكور 271 ٠

ولابد من أن نشير الى أن رزيقا قد شارك فى هذه المعارك . ويبدو أنه التحق بجيوش عبد الرحمن بن الاشعث فى البصرة ، ان لم يكن بسجستان ، وهما مركزان كان يجرى بهما نشاط سياسى كبير يقوم به الموالى الخزاعيون . ويبدو أن رزيقا اجتمع ببعض رؤساء الشيعة بالكوفه ، اذ كان لا يزال الى جنب ابن الاشعث فى هذا المصر العلوى .

وقد وقع ذلك بنحو عشر سنوات قبل تنظيم الدعوة العلوية السرية ، الهاشمية (33) ولم تذكر الاخبار ما قام به فى هذه الدعوة من دور أشاد به فيما بعد ، بعض الشعراء الذين كانوا من حاشية أحفاده . على أنه يفهم من رواية ذكرها الطبرى ، أن رزيقا الذى كان له ولدان ، هما من كبار أنصار هذه المنظمة فى خراسان ، قد امتد به العمر حتى تم الانتصار للعباسيين (34) . وقد قال الطبرى : « ان أبا مسلم كان يستشيره (أى رزيقا) دائما ويسره أن يدعوه الى ذكر معاركه وفتوحاته » . (الطبرى 3 1988) . وهل جعلت الشيخوخة رزيقا لا يقوم الا بدور المستشار ومرشد ابنيه طلحة ومصعب اللذين عينا نقيبين فى هذه الحركة ؟

وقد قال ابن الرومى فى مدحه لبعض أحفاده من الطاهريين ، تذكيرا بالامجاد الماضية ابان الفتح الاسلامى والكفاح لاثبات حق أهل البيت فى الخلافة (35) .

من كرزيق ومن كمصعبة ... أو كحسين وطاهر قربه

ويقول البحترى من جهته ممجدا لسلف طاهر (36) .

ولقد رأيت وقد سمعت بمن مضى ... فاذا رزيق سيد السواس

(33) انظر : د. م. ا. 2 الهاشمية : 3 ، 272 ب 273 أ (ب لويس) وكذلك العباسيون فى د. م. ا. 2، I، 15، 299 .

(34) الامر الذى يحمل على استنتاج أن رزيقا ولد حوالى 30 أو 40 هجرية وذلك يطابق أولا ، لتقدم سنه ، سنة انتصار العباسيين أى سنة 130 تقريبا ، ويؤكد من جهة أخرى مشاركته فى حروب المهلب بعد سنة 63 . أنظر التعليق رقم 10 .

(35) ديوان ابن الرومى نشر محمد شريف سليم 1 488 البيت 130 .

(36) ديوان البحترى نشر حسن كامل الصيرفى 2 1165 البيت 25 .

وعلى العكس من ذلك كان الدور الذى قام به ولدا رزيق الخزاعى فى الدعوة الهاشمية أكثر وضوحا ، وان كان غامضا فى بعض الفترات . وقد ذكر اسم طلحة واسم مصعب فى أقدم الاخبار المتصلة بالحركة الهاشمية فى خراسان ، بمجرد انطلاقها بزعامة العباسى محمد بن على بن عبد الله . وقد أوصى هذا من منزله السرى بسوريا ، أعوانه عند سنة 718/100 بتجنيد 70 شخصا من أنصاره فى خراسان ، وعين الامام من بينهم اثنى عشر نقيبا (دعاة) ، منهم خمسة من قبيلة خزاعة . وهم سليمان بن كثير ومالك ابن الهيثم وزياد بن شبيب وطلحة بن رزيق وعمرو بن أعين (37) ، اما السبعة الآخرون فكانوا من القبائل اليمنية الثلاث : طى ، وتميم وبكر بن وائل (38) . ولما كان عدد الخزاعيين أكبر فى هذه الهيئة (النقباء) ، فقد آلت رئاستها على ما يظن من أجل ذلك الى خزاعى هو سليمان بن كثير .

وقد اقتسم النقباء الذين يسمون أيضا بالدعاة ، المسؤوليات ، وتولى طلحة ابن رزيق المكنى بأبى منصور (39) الكتابة العامة للمنظمة : «كان على ما ذكر الجهشيارى مكلفا بالمراسلة بين الامام وسائر الدعاة . وكان يكتب اليه باسمهم ويختص بتلاوة رسائله أثناء اجتماعاتهم (40) .

ولم تكن لتسند مثل هذه المهمة لطلحة ، لو لم تثبت مقدرته ، ولو لم تكن له معرفة وثقافة واسعة . وذلك ما أكده الطبرى اذ قال : « لقد كان أبو منصور فصيحا شريفا خطيبا . وكان يعرف جيدا عقيدة الهاشمية وأسرارها » (41) .

---

(37) الطبرى 2 ، 1358 ، 1987 ـ 8 ، العينى (1451/850) : دولة بنى العباس والطولونييون والفاطميون . مخطوط بالمكتبة الوطنية باريس 5761 ، وثائق 2 أ . انظر مجهول غرياز نفتش 252 ، 1 ... و 245 سطر 5 .

(38) مجهول غريازنفتش 251 أ 13 العينى المرجع المذكور 3 1 ، وفيات 2 205 .

(39) الجهشيارى (توفى 942/331) كتاب الوزراء والكتاب طبع القاهرة 1938/1357 84 . انظر فى استعمال الكنية عند الشيعة ب لويس العباسيون ، فى دم ا 2 1 منتصف صفحة 16 .

(40) الجهشيارى المرجع المذكور 84 .

(41) الطبرى 2 ، 1987 .

ولم يكن أخوه مصعب أقل مقدرة ومواهب فى فن الرسائل ، ولكن مقامه فى الدعوة كان فى الدرجة الثانية غالبا • وكان أصغر منه على ما يبدو ، ولم يكن يجوز أن يضم مجلس النقباء المحصور أخوين • ويرى أبو القاسم البغدادى فى مصنفه « كتاب الكتاب» أن مصعبا كان من أبدع المتقدمين فى فن المراسلة ؛ وقد قال : « كان مصعب ابن رزيق جد طاهر كاتبا لسليمان بن كثير الخزاعى صاحب دعوة بنى العباس » (42) •

وفى سنة 735/117 ألقى أسد بن عبد الله القسرى مساعد أخيه القائد المشهور خالد ، والى العراق ألقى القبض على عدد كبير من الدعاة الهاشميين • وأخبر اليعقوبى أن أسدا قتل بعضهم ومثل بآخرين وحبس رفاقهم الباقين • ومن بين هؤلاء الدعاة الذين حبسوا ، سليمان بن كثير ، ومالك بن الهيثم ، ولاهز بن قريظ ، وخالد ابن ابراهيم ، وطلحة بن رزيق (43) • على أن خالدا قد عزل سنة 120 ، وأطلق سراح من أودعهم السجن • وبمجرد تسريح هؤلاء ، استأنف سليمان ورفاقه نشاطهم السرى ، وكانوا يقصدون كثيرا الى العراق فى نطاق هذا النشاط •

وقد توجهوا أثناء أحد أسفارهم الى سوريا والحجاز ، للبحث عن الانصار ونشر الثورة ، الى مكة ، ونزلوا عند عيسى بن معقل العجلى (44) ، الذى كان قبل ذلك عاملا بخراسان ، ثم عزل وعين مكانه يوسف ابن هبيرة • وقد استقبل عيسى بالترحيب هؤلاء المبعوثين الهاشميين الى درجة أن مولاه أبا مسلم الخراسانى انضم بكل حماس الى الدعوة وأخذ على نفسه بخدمتها • (45)

---

(42) أبو القاسم البغدادى (القرن 3/9 م) كتاب الكتاب نشر د• سرديل XIV BED 1952 – 54 143 • وقد ذكر المؤلف من كلام مصعب قوله : « ما أحوج الكاتب الى نفس تسمو به الى أعلى المراتب وطبع يقوده الى أكرم الاخلاق وهمة تكفه عن دنس الطمع ودناءة الطبع أنظر هذا النص فى الوفيات 2 205 •

(43) الطبرى 2 1586 ؛ العينى دولة 4 أ ، مرجع غريازنفتش 262 ب ؛ د م أ 2 ، العباسيون 1 16 (ب لويس) ؛ د م أ 2 ، 1 ، أسد القسرى 1 70 ب س 4 ؛ اليعقوبى تاريخ 2 319

(44) مجهول غريازنفتش 259 أ : اليعقوبى : تاريخ 2 327 • ك كاهن : نظرات فى الثورة العباسية فى المجلة التاريخية 230 (1963) 325 ، رقم 2

(45) ك كاهين : نظرات فى الثورة العباسية 295 – 338 •

وبالرغم من أنه لم يذكر اسم طلحة بن رزيق من بين أعضاء هذا الوفد الذى رأسه سليمان بن كثير ، مقدم أبى مسلم الى الامام ابراهيم بن محمد (46) سنة 742/125 ، فمن الجائز أنه شارك فيه لمكانته فى صفوف الدعوة ·

ومن المعروف أن أبا مسلم عين ثلاث سنوات بعد ذلك ، على رأس الحركة بخراسان لما كان له من خصال ، ولاسباب سياسية وتذرعية قبل كل شيء · ولا شك أن ذلك أحدث اضطرابا فى الجماعة القائمة من قبل · ومن ذلك أنه يقال ، انه عندما أوصى الامام ابراهيم دعاته بالامتثال لاوامر الداعية الشاب (47) طلب من هذا أن يتجنب النزاع ، خاصة مع سليمان بن كثير الزعيم السابق للحركة ·

على أن ذلك لم يمنع من أن يكون أبو مسلم فى أول اجتماع اتصل فيه بدعـــاة خراسان ، موضع انتقاد سليمان بن كثير (48) · وقد آزر سليمان أخوه ، فألقى بدواة على وجـــه منافســـه ·

وقد تحرج عدد من الدعاة من استبداد سليمان ، ورغبوا فى التخلص من عقـــدة العصبية القبلية التى لا تزال تنازعهم (49) فآزروا أبا مسلم · وقد انسحب هذا من الاجتماع وأتاح لسليمان أن يستعتب فيما بعد · وكان تأييد طلحة بن رزيق لابى مسلم فى النزاع الذى قام بين الرجلين حاسما · وأخبرنا صاحب تاريخ الخلفاء ، أن طلحة قرأ على الجمع بصفته الكاتب العام للمنظمة ، رسالة تعيين أبى مسلم ، وكان أول من

---

(46) انظر بخصوص ابراهيم بن محمد د م ا 3 1012 (ف عمر) : ك كاهن : نظرات ··· 320 و 331 ·

(47) يبين مجهول غريازنفتش 262 ب و 260 ب ان الامام اضطر لاقنـــاع الدعـــاة النافرين من طاعة ابى مسلم ، الى ذكر مثل اصحاب الرسول (ص) الذين ساءهم ان عـــين على رأسهم فى بعض ظروف الكفاح سعد بن معاذ الشاب ، ولكنهم قبلوا آخر الامر هـــذا التعيـــين ·

(48) فى نفس المرجع 262 ب حيث يمكن ان نقرأ الانتقاد العنيف الذى وجهه سليمان على تعيين أبى مسلم · وقد بين سليمان ، زعيم الدعوة السالف ، انه هو واصحابه دخلوا فى الدعوة قبل ان يولد هذا الدخيل (أبو مسلم) (قبل ان يكون جنينا فى بطن امه بالضبط)

(49) المرجع 262 ب

تكلم بعد سليمان • وقد أعرب بدون مداراة عن أسفه ، من مخالفة سليمان ، وصرح بأنه سيبقى هو دائما ممتثلا لاوامر الامام • وتكلم اثر ذلك أبو داود خالد بن ابراهيم وأعضاء آخرون لاستنكار موقف سليمان والتصريح بما صرح به طلحة وبعد ذلك بمدة آب سليمان الى السداد (50) •

ولا شك أن هذا الموقف من طلحة بتأييد زعيم الدعوة الجديد كان سبب الصداقة المتينة التى ربطته اليه • وقد ذكر الطبرى أن أبا الخطاب حمزة بن على روى أن أبا مسلم كان يستشير دائما طلحة ، لا سيما فى الظروف الشديدة وحين اتخاذ القرارات الخطيرة • وكان أبو مسلم كثيرا ما يقول مخاطبا لطلحة ومستعملا كنيته : « ماذا ترى يا أبا منصور ؟ ماذا تقول يا أبا منصور ؟) ويلاحظ الطبرى انه « لم يكن من النقباء أحد والده حى غير أبى منصور طلحة بن رزيق أسعد •• الخزاعى » (51) • فهل يكون تقدم سن رزيق سببا فى اعتباره من السابقين الى الدعوة فى خراسان ، وأن ولديه أحرزا لذلك من المنافع ما لم يحرزه رفاقه فى المنظمة ؟

ويذكر الطبرى من جهة أخرى أنه فى ذى الحجة من سنة 129 ، عندما بدأ الاصطدام مع جيوش الامويين « خندق أبو مسلم خندقا أمام قرية آلين قرية أبى منصور طلحة ابن رزيق » (52) • ويمكن من جهة أخرى حسبما جاء فى تاريخ الخلفاء المجهول المؤلف أن يكون انتصار العباسيين مدينا بكثير للحلف الذى أبرم قبيل ذلك بين أبى مسلم والازدى على بن جديع الكرمانى، زعيم المعارضين لبنى أمية فى خراسان• فان على بن جديع الكرمانى كان يقود اذاك، بصفته زعيم العصبة اليمنية، ثورة كبيرة كانت تهدف الى الاطاحة بنصر بن سيار والى الامويين، وممثل مصالح المضريين • ويبدو أن الدعاة كانوا

---

(50) مجهول غريازنفتش 262 ب •

(51) الطبرى 2 1988

(52) الطبرى 2 1969 ، قد تكون هذه القرية غالبا ارضا اقطعها رزيق ، او هى مكان كان يحميه رجاله • ثم ان هذه القرية التى كانت ضاحية من ضواحى مرو حسب الخبر المنقول ، يمكن ان تقارن بما خوان القرية التى اضطر فيها أبو مسلم الى التحصن كما يقول مجهول غريازنفتش (264 أ I ، 18 و 264 ت) (انظر الطبرى 2 1986) •

يعمدون الى المصالحات والتفاهم السياسى، ان لم يمكن الاقناع بالعقيدة، مع كبار زعماء القبيلتين المضريتين المتنافستين قيس وربيعة (وكلتاهما من القحطانية اليمنية) • وذلك ليحظوا منهم بتأييد الدعوة ويساندوها • ولا شك أن الدعاة كانوا يرجون الانتفاع بما كان يتمتع به الكرمانى من موقف قوى ضد الوالى الاموى • ولا شك أن أبا مسلم اضطر ليحقق غايته الى أن ينضم الى صف الكرمانى ، ان لم يتمكن من اجتذابه الى حزبه • وهذا ما يستفاد من خبر يبين أن أبا مسلم انضوى مع قواته تحت قيادة الكرمانى (53) • والظاهر أن هذا القرار اتخذ أثناء مؤتمر دعا المضريون الى عقده ، للتوصل الى اتفاق ومصالحة بين الاحزاب المتعارضة ، وقد حضرته أربعة وفود : الدعاة الهاشميون والازديون (أو القحطانيون بصفة عامة) حزب الكرمانى ، وربيعة حلفاء الكرمانى الذى مثلهم ، والمضريون برئاسة عقيل بن معقل (54) من الحزب الحكومى •

وقد أخبرنا الطبرى بأن طلحة بن رزيق الذى قيل عنه أنه خطيب مقتدر ، تكلم أثناء مداولات المؤتمر ، بعد سليمان بن كثير • وصرح ، بموافقة أبى مسلم ، بأنه يؤيد القرار الذى اقترحه الكرمانى ، أى بتأييده هو ضد نصر بن سيار ورفض كل تفاهم مع الامويين (55) •

وفى سنة 748/130 عندما استولى أبو مسلم على مرو عنوة ، أمر أبا منصور طلحة ابن رزيق ، حسبما أفاد الطبرى ، بأن تعلن القوات الهاشمية (56) البيعة للامام • وقد حررت هذه البيعة تحريرا مضبوطا ، فى لغة دقيقة وجيزة نقلها الطبرى (57) وهى تلزم كل من نطق بها بالاقرار بمبادىء الدعوة ، وتنص على العقوبات الدينية والمدنية السارية عليه ، اطمئنانا لصدقه ، وتؤكد أخيرا ضرورة امتثال الاتباع الهاشميين امتثالا أعمى لاوامر القادة والزعماء •

---

(53) الطبرى 2 1985
(54) مجهول غريازنفس 267 أ I ، 9 و 259 أ •
(55) الطبرى 2 1985 ومجهول غريازنفتش 258 ب ، 295 ب والفهرس •
(56) الطبرى 2 1988 ـ 9
(57) الطبرى 2 1989

وبمجرد أن انتصر أبو مسلم فى معركة أول أخذ ، وهو يواصل زحفه فى خراسان فى القضاء بالسيف على أعدائه من أنصار الدولة الزائلة . على أن القائد الاعلى للثورة العباسية ، اضطر الى الحذر الشديد مع بعض زعماء القبائل ، خوفا من أن يحدث قتلهم معارضة كبيرة من صفوفها ، فيتزعزع موقعه . ومن ذلك أنه استشار طلحة بن رزيق شأن عدد من الشخصيات المؤيدة للامويين ، من بينها عقيل (أو عقيل بضم العين أو بفتحها) بن معقل . وقد نقل الطبرى خبر ذلك كما نقل جـــواب طلحة الـــذى قال لابى مسلم : « اجعل سوطك السيف وسجنك القبر » . وأضاف الطبرى قائـــلا : « فاقدمهم أبو مسلم فقتلهم » . ألا يكون قتل عقيل بن معقل الذى أشار به عم جد طاهر بن الحسين ، سببا فيما قام به بعد ذلك نصر بن شبث من ثورة ضد الطاهريين بالجزيرة ، من سنة 198 الى سنة 209 ؟ لا شك فى أن الاعمال الثورية التى قام بها أسلاف الطاهريين باسم الدعوة ، كان لها حتما آثار لمسها الاحفاد فى حياتهم السياسية.

ولم يكن ذلك الا جانبا سلبيا من العواقب السياسية ، من أعمـــال طلحة وأخيه مصعب ، على الاجيال التالية من أسرتهم . ولكن الطاهريين ورثوا من الجدين المشهورين ما هو أهم وأعظم ؛ أعنى الولاية على مقاطعة هراة ومدينة بوزنج اللتين وليا حكمهما بعد انتصار العباسيين .

والعمل الرئيسى الذى أتاح لطلحة هذه المكافأة الكبرى ، هو على ما يبدو ما قـــدمه من خدمة جليلة لابى مسلم للقضاء على الكرمانى .

وقد كان الكرمانى بمقتضى الاتفاق المبرم قبيل الاصطدام مع الهاشميين ، رئيســا لقيادة القوات الثورية (58) وكان أبو مسلم حتى الاستيلاء عـلى نيسابور سنة 1311 ، وبعد الانتصار الحاسم الذى أحرزه فى مرو ، متضايقا باستمرار من هذا الاتفاق ، ولم يكن يقدر على أية مبادرة قبل موافقة الزعيم الازدى . فكان لابد من أن يتخلص القائد العباسى بسرعة من الكرمانى ، والا أفلتت السلطة المحررة ، من أيدى الدعوة وحزبها .

---

(58) انظر التعليق السابق رقم 29 .

وقد أرسل أبو مسلم بصفة سرية الى أبى داود خالد بن ابراهيم ، مساعده الذى استولى على ط خارستان منذ حين أمرا أكبر عون للكرمانى أى أخيه عثمان · وبعد وصول خبر قتل عثمان ، ألقى أبو مسلم القبض على الكرمانى وقتله (59) ·

وبالرغم من أن المصادر المعروفة اليوم عن أخبار الدعوة العباسية ، لم تشر بصراحة الى الدور المحتمل الذى ننيطه بطلحة ، فمن الممكن لنا اعتمادا على بعض الاشارات ، ان نعرف أنه المسؤول عن هذه القضية الخطيرة التى لا تزال غامضة فى تاريخ العباسيين.

فقد كان للسلف الطاهرى مرتبة سنية ضمن النقباء الاثنى عشر ؛ وكان لذلك يتمتع بمقام لا يقل عن مقام أبى مسلم · ثم ان تأييده الاول الحاسم لابى مسلم فى نزاعه القديم مع سليمان بن كثير ، جعل منه بلا شك أفضل صـــديق له · ونضيف الى ذلـك أن أبا مسلم كان كثيرا ما يلجأ الى استشارة طلحة الذى اشتهر ببصره بالامور ، وادراكه السياسى الدقيق ، علاوة عن صرامته التى يضرب بها المثل ، كلما دعا الامر الى البت مع خصوم الدعوة الهاشمية ، أو مع العناصر المرتاب فيهم ، على أن الاشارة التى تفيدنا فائدة أكيدة بخصوص هذه النقطة ، هى الخبر الهام الذى نقله الكاتب المتأخر ، زمجى اسفزارى · فقد كتب هذا المؤلف فى مصنفه عن أخبار مدينة هراة « أن أول أمير لمدينة هراة عينه أبو مسلم هو عثمان الكرمانى ؛ وقد وصل اليها سنة 130، وخلفه أبو منصور طلحة بن رزيق » (60) ·

فلا شك أن هناك علاقة بين تعيين طلحة وقتل الكرمانى ، ليكون لهذا الداعى الخزاعى حق فى ولاية ذى أهمية كهذه ، واقعة فى قلب خراسان ·

وقد ارتاح طلحة أخيرا الى هذه الولاية التى انتدبته اليها الخلافة العباسية ، فأخذ يعمل بمساعدة أخيه مصعب لتعزيز سلطان أسرته فى هذه الجهة ، دون أن يخـــاطر

---

(59) ذكر مجهول غريازنفتش « انه بعد قتل الكرمانى ، اديت البيعة لابى مسلم الذى ام الصلاة منذ ذلك الحين فى نيسابور » ·

(60) زمجى اسفزارى (الف عند سنة 899) روضات الجنات فى أوصاف مدينة هراة ، نشر كاظم امام طهران 1338 ــ ص 381

بنفسه فى النزاعات التى قامت اثر ذلك ، بين الخلفاء وبعض العمال المتمردين ، من بين الدعاة السابقين ، مثل أبى مسلم ، وسليمان بن كثير ، وأبى سلمة الخلال الذين قضى عليهم بالتوالى ، لاسباب مختلفة . فان أجداد الطاهريين لم يكونوا على ما يبدو ممن تعجلوا فى السباق الى الحكم والسلطان . ولا شك أن الاعتدال ، والرغبة فى تقديم خدماتهم الى الخلفاء عندما تعرض الفرص ، وحسن تدبير شؤون ولايتهم ، كانت كلها مما ضمن الاستمرار والاستقرار فى الولاية لابناء رزيق وان كانوا تابعين طوعا أو كرها لسلطانة أمير خراسان .

* * *

ويبدو أن مصعبا كان دوره ثانويا بصورة ما ، طيلة حياة أخيه طلحة ، وأنه خلفه فى الولاية . ولكن الترجمة التى خصصها ابن خلكان لطاهر بن الحسين تنطوى على غموض . فقد قال ابن خلكان : « وكان جده مصعب ـ أى جد طاهر بن الحسنى ـ واليا عليها ـ أى على بوشنج وهراة ـ » . (61)

وعلى هذا يكون مصعب هو الذى حقق الصبغة الوراثية لسلطانة الاسرة .

ولم تتعرض ولاية مصعب ، اعتمادا على فقدان المعلومات بشانها فى الاخبار ، لاى خطر يهدد وجودها الا فيما بعد ، فى العقد الاخير من القرن الثانى (الثامن الميلادى) . فقد خلفه ابنه الحسين قبل ذلك بدون صعوبة . وفى عهده تحدثت الاخبار لاول مرة ، عن أعمال ابنه طاهر الذى عرف فيما بعد بذى اليمينين . فقد قيل ان طاهرا شارك وهو شاب يافع، فى المعارك ضد الخوارج الذين كانوا يتهددون مسقط رأسه بوشنج (62) ويقال أيضا انه عندما اختير سنة 194 لمقاتلة على بن عيسى بن ماهان ، اشترط أن يؤذن له بالخطبة والصلاة فى بوشنج (62) قبل الذهاب الى القتال . وذلك عمل رمزى كان ينوى به فى الغالب ، أن يكفل وراثة الولاية من أبيه ، الذى كان شديد التوجس بشان

(61) ابن خلكان : الوفيات 2 202

(62) أنظر التعليق السابق رقم 7 . أنظر بخصوص بوشنج د م أ 2 تحت هذا الاسم I 1382 ـ 3 (وبارطولد و ب سبولر) .

مصيرها · فقد اضطر الحسين بن مصعب فعلا ، فى السنوات التالية ، حين كان علـى ابن عيسى بن ماهان والى الرشيد على خراسان ، الى السعى لضمان استمرار الولاية فى أهل بيته ، خاصة بعد أن تهدد العامل المذكور حياته · وقد تحدث الطبرى عن الاسباب التى حملت الرشيد على خلع على بن عيسى من عمله ، وبين أنه كان استبد به هـواه ، وأنه أهان أعيان خراسان ظلما وعدوانا ·

وروى الطبرى ان على بن عيسى بن ماهان كان يخفى أموالا عظيمة عن الرشيـد و «كان على مع ذلك قد أذل الاعالى من أهل خراسان واشرافهم، وذكر أنه دخل عليه يوما هشام بن فرخسرو والحسين بن مصعب فسلما عليه فقال للحسين : لا سلم الله عليك يا ملحد بن الملحد والله انى لاعرف ما أنت عليه من عداوتك للاسلام وطعنك فى الدين وما انتظر لقتلك الا اذن الخليفة فيه فقد أباح الله دمك وأرجو ان يسفكه الله على يدى، عن قريب ويعجلك الى عذابه ، ألست المرجف بى فى منزلى هذا بعد ما ثملت من الخمر وزعمت انه جاءتك كتب من مدينة السلام بعزلى فعن قريب ما تكون من أهلها فقال له الحسين اعيذ بالله الامير ان يقبل قول واش أو سعاية باغ فانى برىء مما قرفت به · قال : كذبت لا أم لك لا ، قد صح عندى انك ثملت من الخمر وقلت ما وجب عليك به أغلظ الادب · ولعل الله ان يعاجلك ببأسه ونقمته، اخرج عنى غير مستور ولا مصاحب، فجاء الحاجب فأخذ بيده فأخرجه » ·

ومن الواضح أننا اذا تأملنا فى هذه الحادثة التى لم ترد الا بهذه الرواية ، أن مآخذ ابن ماهان على الحسين ، مبعثها غضب الاول على الثانى لاسباب شخصية لا غير · أيكون ذلك لحقد توارثته أسرتا الرجلين ؟ ان الاخبار لم يتسرب اليها شىء بشأن العلاقات بين آل رزيق وآل ماهان · وقد اضطرنا الى الرجوع الى عهد الدعوة العباسية للعثور على هذه السابقة المسيئة التى كانت سبب التنافر بين الاسرتين على ما يبدو ·

لقد كانت الاسرتان من أصل فارسى ، وكانتا مرتبطتين بالولاء الى قبيلة خزاعة ، وبفضلها شاركتا فى الدعوة الهاشمية · على أن الدور الذى قام به طلحة وأخوه مصعب

---

(63) الطبرى 3/713 – 4 ·

جد طاهر فى هذه الحركة ، كان أخطر وأكبر ، وكانا أكثر توفيقا لما اجتنياه فى الختام ، بينما انتهى عيسى بن ماهان الى مصير بتيس ، لضآلة دوره فى الحركة .

وقد ذكر العينى المؤرخ الذى استقينا منه هذا الخبر عن أصل عيسى بن ماهان ، بصدد الحديث عن بعض من أمر القائد العباسى قحطبة بن شبيب بقتلهم ، أن القائد « بعث قحطبة برؤوسهم الى أبى مسلم بنيسابور مع عيسى بن ماهان مولى خزاعة» (64) .

واذا أخذنا بالخبر التالى الذى نقله الطبرى ، فان عيسى كان يتجسس على الناس اما طمعا فى مرتبة أو حسدا لهم ، الامر الذى جعل رئيسه القائد أبا داود خالد بن ابراهيم فى حرج أمام أبى مسلم ، وهذا أقل ما يمكن ان يقال . ذلك أن عيسى بن ماهان اتهم أبا داود بسلوك مبنى على العصبية راجيا بذلك بعث العداوة بين أبى مسلم ، وهو غير عربى ، والقائد العربى الذى كان من أبرز قادة الجيش العباسى . على أن أبا مسلم المعروف ببصره بالامور وتحذره ، أنكر ذلك بشدة على عيسى ، لئلا يتكرر الامر ، ولاحباط النزعات العصبية فى صفوف حركته التى كانت حركة سياسية وعقائدية عامة .

وقد تحدث الطبرى عن حوادث هذه القضية قائلا : « ... حتى ظفر أبو مسلم بستة عشر كتابا وجدها من عيسى بن ماهان الى كامل بن مظفر صاحب أبى مسلم يعيب فيها أبو داود وينسبه فيها الى العصبية وايثاره العرب وقومه على غيرهم من أهل الدعوة ، وان فى فى عسكره ستة وثلاثين سرادقا للمستأمنه ، فبعث بها أبو مسلم الى ابى داود وكتب اليه أن هذه كتب العلج الذى صيرته عدل نفسك فشأنك به » . وقد علمنا فى الاخير أن أبا داود لم يغفر ذلك لعيسى ، وأنه سلمه لجيشه سنة 135 فقتله .

أليس لنا أن نعتقد بأن بعض الذكريات من هذا الماضى غير البعيد ، الذى عرفته أسرة على بن عيسى بن ماهان ، كانت لا تزال حيــة فى ذهن الخراسانيين ، لا سيما الاعيان والاشراف ، عندما ارتقى على الى منصب والى ؟

---

(64) محمود العينى (توفى سنة 850) دولة بنى العباس والطولونيون والفاطميون ، مخطوط بالمكتبة الوطنية بباريس 5761 وثائق 5 ب ، وهذا المخطوط الذى يحمل هذا العنوان يظن أنه جزء من عقد الجمان ، للمؤلف نفسه . ولكن لم يتمكن لى التثبت فيه .

على أنه لا شيء يدل على أن مصعبا ، كان له دخل فى قضية عيسى ، لكن كان يكفى أن يكون له دور هام فى قيادة الدعوة • وما كان له من صلات وثيقة مع زعمائها لتفسير حنق الوالى (على بن عيسى) على ولده (الحسين بن مصعب) ، لا سيما ان عليا كان يحترز من غير شك مما يضمره له الحسين الذى قد يكون حسده على منصبه ، الى درجة أنه رغب فى أن يطيح به يوما ما •

ويبدو أن الحسين اضطر لينجو بنفسه ، وتعلل للخروج من خراسان ، بأنه يـريد الحج ، يقول الطبرى : « وخرج الى مكة مستجيرا بالرشيـــد مـــن على بن عيسى • فأجاره » (65) • كان ذلـك سنـة 806/190 ، وكان طاهـر بن الحســين فى نحـو الثلاثين مـن عمـره (66) ، وقـد نشـأ الشـاب عـلى مقتضى التقاليـد ، وتلـقى تكوينـا عسكريـا وثقافيا كامـلا ، ليضطلع بالمسؤوليات الكبـيرة • وقد سبق أن أحرز طاهر شهرة لقتاله للخوارج (67) ، وألفى نفسه فى وضعية تقتضى منه حمايـة حقوق أسرته من سوء نوايا على بن عيسى بن ماهان •

ومن الواضح أنه من المنتظر أن يتأكد عـــزم طاهر مواجهة تحدى والى خراسان البغيض ، خصوصا بعد أن أرهبه العامل شخصيا • فقد ذكر الشابشتى أن عـــلى ابن عيسى بن ماهان قيد طاهر بن الحسين الى سارية فى قصره ، بمحضر والده وعـــدة شخصيات (68) • وقد كان لعداء طاهر وعدد كبير من الخراسانيين الذين كانوا يشكون من ظلم على بن عيسى بن ماهان (69) فى كل مكان ، حل ومخرج بالثورة التى نشبت فى سمرقند بشمال خراسان • وذلك أن رافع بن الليث حفيد نصر بن سيار وآخر وال أموى ، اتخذه ابن ماهان من قبل مساعدا لـــه فى سمرقند ، انتهـــز فرصة استياء

---

(65) الطبرى 713/3 •
(66) أنظر التعليق السابق ص 4 التعليق رقم 12 •
(67) ابن أبى طيفور : كتاب بغداد 68 •
(68) الشابشتى فى الديارات 92 • وقد اضاف ان الحسين أفضى الى احـد اصحابه الحاضرين « أما ترى هذا المشدود — يعنى ابنه — ليقتلن صاحب هذا القصر » •
(69) الطبرى 3 ، 713 — 4

الخراسانيين الشديد من العامل ، فأراد أن يبتعث الخلافة الاموية ، باعلان الثورة والعصيان • وذلك ما حكاه ابن حزم فى فقرة غريبة ، بين فيها أن طاهرا وقف الى جنب رافع • وقد ذكر الكاتب فى هذا الخبر المثبت فى كتابه « نقط العروس » ـ والكاتب من رعايا الامويين بالاندلس ، وممن كانت لهم نزعة أموية ـ الولاة الذين أعلنوا انتماءهم الى الخلافة الاموية الاندلسية ابان اعلان ثورتهم فى المشرق (70) ، وبين أن من بينهم « تمام بن تميم التميمى بالقيروان أمام الرشيد ، ورافع بن الليث بن نصر بن سيار بسمرقند بخراسان ، كان عجيف بن عنبسة وطاهر بن الحسين من قواده » • (71)

وعلى هذا فان هذا الخبر مما يؤكد ما ذهبنا اليه من انضمام طاهر الى ثائر سمرقند . وقد استخلصنا ذلك بدرس بسيط للحالة •

على أن المصادر التى اعتمدنا عليها حتى الآن (72) فى تاريخ الطاهريين ، تفيد أن طاهرا كان على العكس من ذلك من رجال الصف المعارض المقاوم لرافع ، تحت لواء هرثمة بن أعين القائد العباسى •

وذلك يرجع بالتحقيق على ما نعتقد ، الى تطور فى موقف طاهر ، يفسره ما طرأ من جديد فى الشؤون السياسية الخراسانية •

وبالفعل فان الرشيد كان قد منع على بن عيسى من أن يكل مثل تلك المهمة الخطيرة الى رافع بن الليث ، ولما طلب منه على أن يرسل اليه بمدد من القوات لمحاربة الثائر ، ارتاب الرشيد فى أمره وقرر أخيرا عزله من عمله • وقد أرسل الخليفة هرثمة الى خراسان لمساعدة الوالى فى الظاهر ، ولكنه كلفه فى الواقع بالقبض على على بن عيسى بن ماهان وأن يقضى على ثورة رافع (73) •

(70) اى بالنظر الى الاندلس
(71) ابن حزم «نقط العروس» نشر شوقى ضيف ، 76
(72) الطبرى بصورة خاصة 3 ، 799 وابن أبى طيفور كتاب بغداد 68 •
(73) اليعقوبى تاريخ 2 435 ؛ الازدى تاريخ الموصل ، 267

وفى أثناء ذلك استقبل الرشيد الحسين بن مصعب استقبالا حسنا · ومن العسير منذ ذلك الحين ، أن نفهم ما هى الاسباب التى يمكن أن تحمل ابنه طاهرا على الاستمرار فى خدمة ثائر لا يعتبره الخليفة ثائرا ضد ابن ماهان ، لكن ضد الخلافة العباسية ·

ومن المعروف أن ثورة رافع امتدت بعد ذلك الى جهات كثيرة وتفاقم أمرها (74) ، وأن الرشيد استولى عليه القلق بسببها ، فذهب الى خراسان برفقة ولده المأمون ·

وبمجرد أن أخذ موقف هرثمة يتعزز ، فاذا هو يضطرب من جديد بسبب وفاة الخليفة ، سنة 809/193 ، وبما حدث بعد ذلك بسرعة من فساد العلاقات بين الامين الخليفة الجديد ، والمأمون ولى العهد بوصاية من ابيهما الرشيد ·

ومن أجل ذلك فقد بقى مصير الولاية المعصبية مهددا ، لا سيما أن الامين قد أطلق سراح على بن عيسى بن ماهان ، العدو الاول لاسرة مصعب · وقد قيل (75) أن على ابن عيسى كان أول من قبل أن يذهب الى خراسان لمحاربة المأمون فى حين أن جميع أفراد حاشية الامين كانوا مترددين فى ذلك ·

وبذلك فقد اتيح للوالى السابق (على بن عيسى) أن يظهر من جديد على المسرح السياسى، الامر الذى أساء لذكرى الرشيد، ونفر الخراسانيين · ومن نتيجته أن اتضح التهديد بالحرب بين الاخوين ، ودفع عدد من كبار أنصار العباسيين المعارضين لابن ماهان أو المترددين فقط ، الى الانضمام الى المأمون ، وتعزيز صفوف المخالفين للامين · وعلى ذلك فان النزاع الذى غلا المؤرخون فى اعتباره نزاعا عنصريا بين العرب والفرس ، انما هو صراع سياسى بالدرجة الاولى ·

---

(74) ر ن فرى . تاريخ بخارى (بالانجليزية) ترجم الى الفارسية ، كامبريدج 1954 — 76 — 7

(75) المسعودى : مروج الذهب نشر وترجمة ك بربى دومينار و باقى دوكرتيل 6 ، 419 — 20 ؛ الطبرى 3 810 ؛ انظر ابن بدرون : شرح العيون فى قصيدة ابن عبدون (البسامة) نشر دوزى ليد 1846 ، 204 ، واليعقوبى : تاريخ 166

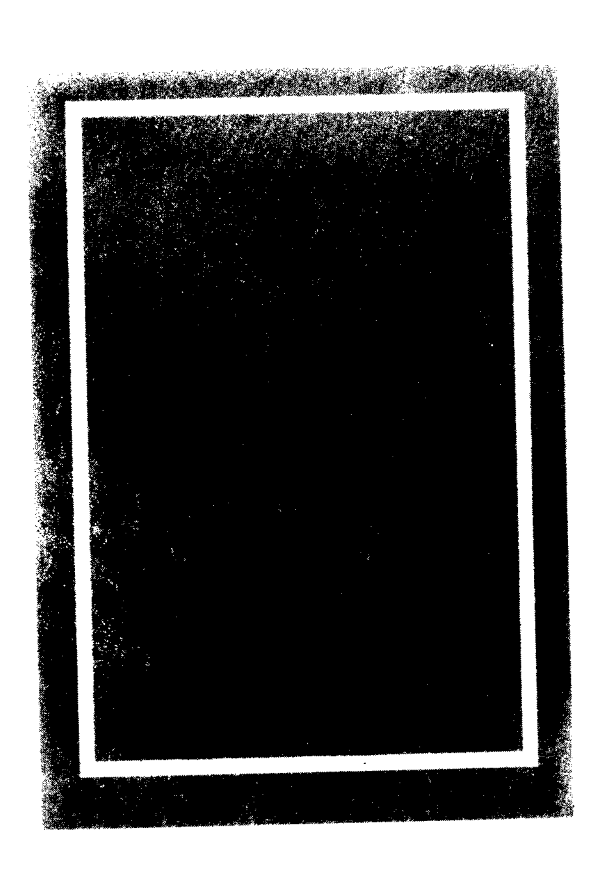
وبذلك يتضح انحياز أسرة مصعب الى جانب المأمون • ويتجلى أن اختيار طاهـر سنة 194 لمواجهة ابن ماهان مجرد مصادفة على هذا ، كما لم تكن نصرته للمأمون ، كما رأينا ذلك ، بدون سبب متصل بمكانة أسرته فى خراسان ، وبنفوذه أيام قيام الدعوة العباسية •

وكل هذا يؤكد لنا أن نجاح طاهر بن الحسين لم يتم بصفة مفاجئة وغير منتظرة ، ولكن نتيجة لما بذلته أسرته من نشاط وجهود لخدمة الدعـوة العباسية وخلفائهـا الاولـين • (76)

(76) تعرضنا لتاريخ طاهر بن الحسين فى الفترة التالية لهذه الحوادث ، بالتفصيل فى اطروحتنا ، وعنوانها : الطاهريون تاريخهم وادبهم والشعراء المتصلون بهم • (اطروحة مرقونة) ، باريس 1970 •

منشـــورات

وزارة التعليم الأصلي والشؤون الدينيـة



من اصداء الملتقى 11 للفكر الاسلامى

لقاء مع مولود قاسم

عبد العال الحمامصى



الوزير الجزائرى مع مندوب «الثقافة» (مصر)

● هذا الرجل ·· مولود قاسم وزير التعليم الأصلي والشئون الدينية بالجزائر واحد من انشط العناصر الجزائرية المثقفة ·· والتى تقع على عاتقها مهمة تاكيد الانتماء الجزائرى للعروبة والاسلام ·· وهو يقوم بدور بالغ الأهمية فى اعادة اللسان الجزائرى لأصوله العربية · وهو يجمع فى ثقافته بين أصالة التراث وعظمته ·وبين معطيات العصر وحداثته ومن أجل هذا ووفقا لهذا انطلقت دعوته « لنكن أبناء عصرنا مع المحافظة على اديم مصرنا » تعبيرا عن الأصالة والمعاصرة طريقا لبناء الوطن الجزائرى الجديد · وخلال انعقاد الملتقى الحادى عشر للفكر الاسلامى بورجلان التقيت بمولود قاسم لأطرح عليه بعض التساؤلات التى قدم هنا اجابته عليها ··

● ليكن الاسلام حاضرا على الدوام ●

● قلت لمولود قاسم وزير التعليم الأصلي والشئون الدينية بالجزائر : مبادرة طيبة تلك التى تقدم عليها الجزائر كل عام لطرح قضايا الفكر الاسلامى فى ملتقى عام فى محاولة لاستخلاص حلول لما يواجه هذا الفكر من مشكلات ·· هل تعتقدون أن هذه الملتقيات قد حققت الغرض منها ·· هل أشاعت مناخا فكريا لمواجهتها فى البلدان التى تدعى وفودها لهذا الملتقى ·· أو على الأقل فى الجزائر ذاتها ؟

وأجابنى مولود قاسم بقوله :

بالطبع لا يمكن أن تتحقق النتائج المرجوة فى التو واللحظة ·· فهذا عمل متواصل يعطى ثمرته على المدى الطويل · ومع ذلك يمكننا القول بأن هذه الملتقيات بمحاضراتها ومناقشاتها ومطبوعاتها · وأجهزة الاعلام التى بها قد أحدثت جوا ثقافيا وروحيا لا أبالغ عندما أزعم بأنه يبشر بالخير ويفتح آفاقا مشرقة·· مما يشجعنا على الاستمرار والمواصلة والاستزادة من هذه الملتقيات ·· انهم هنا فى الجزائر أساتذة الجامعة

نشر فى مجلة «الثقافة» المصرية ، السنة الرابعة ــ العدد 44 ــ مايو 1977 ·

وطلبتها .. وشباب الثانويات المتعطش للثقافة ورجال الاعلام والصحافة يستفيدون من الآراء التى تطرح فى الملتقيات ومن الحوار الذى يجرى بينهم وبين المدعوين لهذه الملتقيات من رجال الفكر الاسلامى وغيرهم من المفكرين الأجانب .. بل اننا على مستوى أجهزة الدولة الثقافية تتبنى كثيرا من الأفكار التى يصل اليها الملتقى والتوصيات التى يختتم بها أعماله .

أما خارج الجزائر من بلدان العالم الاسلامى .. وحتى من غير البلدان الاسلامية فكثيرا ما ترتد الينا أصداء ما يدور فى هذه الملتقيات. وكل هذا يشجعنا على الاستمرار فى هذه الملتقيات وتوسيع مجالاتها وتنويع محتوياتها .

ان علينا أن نجعل الفكر الاسلامى حاضرا على الدوام ليقدم الحلول لكل ما يواجه العالم الاسلامى من مشاكل وتحديات . وهذا أفضل طريق لتحصين الأجيال ضد كل أنواع الغزو الفكرى . ويعطيها الثقة فيما لديها والأيمان بقدرته للوصول الى المستقبل الأفضل .

● كلمة الجهاد .. تعنى الاسلام ! ●

● قلت : وبالمناسبة نعرف أن الاسلام لعب دورا ثوريا حاسما فى انهاء الوضع الاستعمارى فى الجزائر . برغم كثافة هذه الاستعمار وعمق تغلغله .. ما هو الدور الذى يلعبه الآن فى مسيرة الجزائر نحو المستقبل ؟

ـ بلا جدال لعب الاسلام الدور الأساسى فى إنقاذ الجزائر من السيطرة الفرنسية بل كان المحرك الأوحد لتأكيد القومية الجزائرية فى مواجهة محاولات ابادة هذه القومية .. ويكفى أن نرمز لتأكيد هذا بثلاثة أسماء كلها لمسمى واحد .. ان الكفاح التحريرى كان يسمى بلسان الشعب « الجهاد » وصحيفة جبهة التحرير ثم الحكومة المؤقتة كانت وما زالت تسمى « المجاهد » وثوار التحرير والمقاتلون من أجل الحرية كانوا يسمون « المجاهدين » ولدينا الآن « وزارة قدماء المجاهدين » ، و « الجهاد » برغم ما يتبادر من مدلول لغوى واسع لها هى كلمة اسلامية . لا يمكن أن توحى الا بالمضمون الاسلامى الذى يقف وراءها .

أما دور الاسلام اليوم فى الجزائر فلا يقل عن دوره بالأمس .. كان فى الماضى يمثل حصانتنا ضد اقتلاع الذات .. وهو اليوم يعزز لنا فعاليات هذه الحصانة ومناعتها فى مواجهة كل الايدلوجيات وتصفية كل رواسب الاستعمار وكل ما يرد الينا من أنواع فكرية تستهدف التأثير فى مقوماتنا وخصائصنا .. من أى جهة جاءت وبأى لون تسربلت . وهذا الذى أقوله لك عن الاسلام يبدو جليا فى أجهزتنا التربوية والثقافية خصوصا فى مجال التعليم .. كما يتمثل واضحا وناصعا فى الوثائق الرسمية للدولة والحزب . ويؤكده الميثاق الوطنى .. كما يؤكده دستورنا الذى صدر مؤخرا .. ان الدين الرسمى لدولة الجزائر هو الاسلام . وليس هذا مجرد نص تقليدى .. ان الاسلام بالنسبة لنا أنفاس وجودنا وهواء حياتنا .. وليس معنى هذا أن نتقوقع وننغلق دون العالم والعصر . والاستفادة من التجارب الناجحة لدى الغير . فالاسلام يحثنا على السير فى الأرض ، واحترام تجارب الغير . لنظل راسخى الأقدام على أديمنا مستندين بالدرجة الأولى الى حصانتنا وقيمنا العربية وارتباطنا بالأمة الاسلامية الكبرى .

● كل الثورات قامت تحت علم الاسلام ●

● ان حماس واخلاص الذين يديرون جهاز السلطة الوطنية فى الجزائر للعروبة وللاسلام يدعونى للتساؤل عن مدى الدور الذى لعبته الثقافة الاسلامية فى تشكيل مكونات هؤلاء القادة روحيا وفكريا ؟

ـ لدينا هنا فى الجزائر عديد القيادات الوطنية المسئولة من الذين تشبعوا بالثقافة الاسلامية بأعمق وأوسع المعانى .. كما أن لدينا بعض الذين أخذوا منها بنصيب وافر وبدرجات متفاوتة سواء منهم الذين درسوها فى معاهد وجامعات المشرق وخاصة مصر وبعض البلدان الشقيقة . وبلدان المغرب .. ان كل الثورات التى اشتعلت فى الجزائر غداة الغزو .. كلها بلا استثناء كانت تنطلق باسم الاسلام . ترفع رايته وتهتف باسمه . وتواجه الاستشهاد تحت علمه .. واذا استعرضنا كل هذه الثورات تأكدت لنا هذه الحقيقة وعندما نرجع الى الانسكلوبيديا الفرنسية فى جزئها الخاص بالجزائر نجدهم يعترفون بهذه الحقيقة .. حقيقة ان كل ثورات الجزائر قامت باسم الاسلام ومن أجله . وعندما استطاعت فرنسا أن تخمد الكفاح المسلح قامت الحركة الوطنية والسياسية والاصلاحية باستيحاء أفكار جمال الدين الأفغانى ومحمد عبده وشكيب ارسلان على أساس اسلامى بالدرجة الأولى . وكانت هى التى أدت على مختلف مراحلها فى النهاية الى استئناف الكفاح المسلح فى نوفمبر ١٩٥٤ . وكان لابد أن يكون هذا الكفاح الطويل باسم الاسلام هو صاحب التأثير الأوحد فى كل

الذين رفعوا السلاح ليعيدوا للجزائر استقلالها ·· وليعيدوها للعروبة وللاسلام ·

● علينا ان ننقذ افريقيا ●

● طرح في الملتقى الحادي عشر للفكر الاسلامي مؤخرا · موضوع الاسلام الآن في افريقيا ·· ما هو المطلوب من العالم الاسلامي والعربي بالذات للحفاظ على اسلام الافارقة وترسيخه في مواجهة عواصف فكرية تهب الآن على القارة ·· وماذا تستطيع الجزائر المسلمة العربية ان تقوم به في هذا المجال ؟

ـ أنت تعرف ان الوضع الجغرافي « لورجلان » التي يحتضن صدرها هذا الملتقى غير بعيد عن بلاد السودان بالمعنى الواسع كما كان ابن خلدون يطلق على أفريقيا ·· ونحن نعرف أن التبشير والغزو الفكرى فى المجالات المختلفة يستعمل جميع الوسائل فى بلدان أفريقيا فى شمالنا الواسع من السويس حتى غرة الأطلس فهو يركز بالدرجة الأولى على اخواننا تحت الصحراء ـ أفريقيا الجنوبية ـ وما قضية السودان ببعيدة عنا وان لم تبرز بالشكل الاعلامى الذى يحيط بكل أبعادها ··

ان أفريقيا تتعرض الآن لمحاولات التسرب بكل الأشكال القديمة والحديثة وعلى الدول الاسلامية أن تفطن لهذا وأن تمارس دورا جديا فى حماية القادة من هذه المحاولات التى تريد النفاذ الى أحشائها ·· واحباطها بوسائل فعالة ·· علينا أن ننشط لاقامة الجامعات والمراكز الثقافية ·· والمدارس باللغة العربية ·· واللغة الأجنبية السائدة فى كل منطقة والتى ورثتها عن المستعمر الذى كان يهيمن على شئونها ·

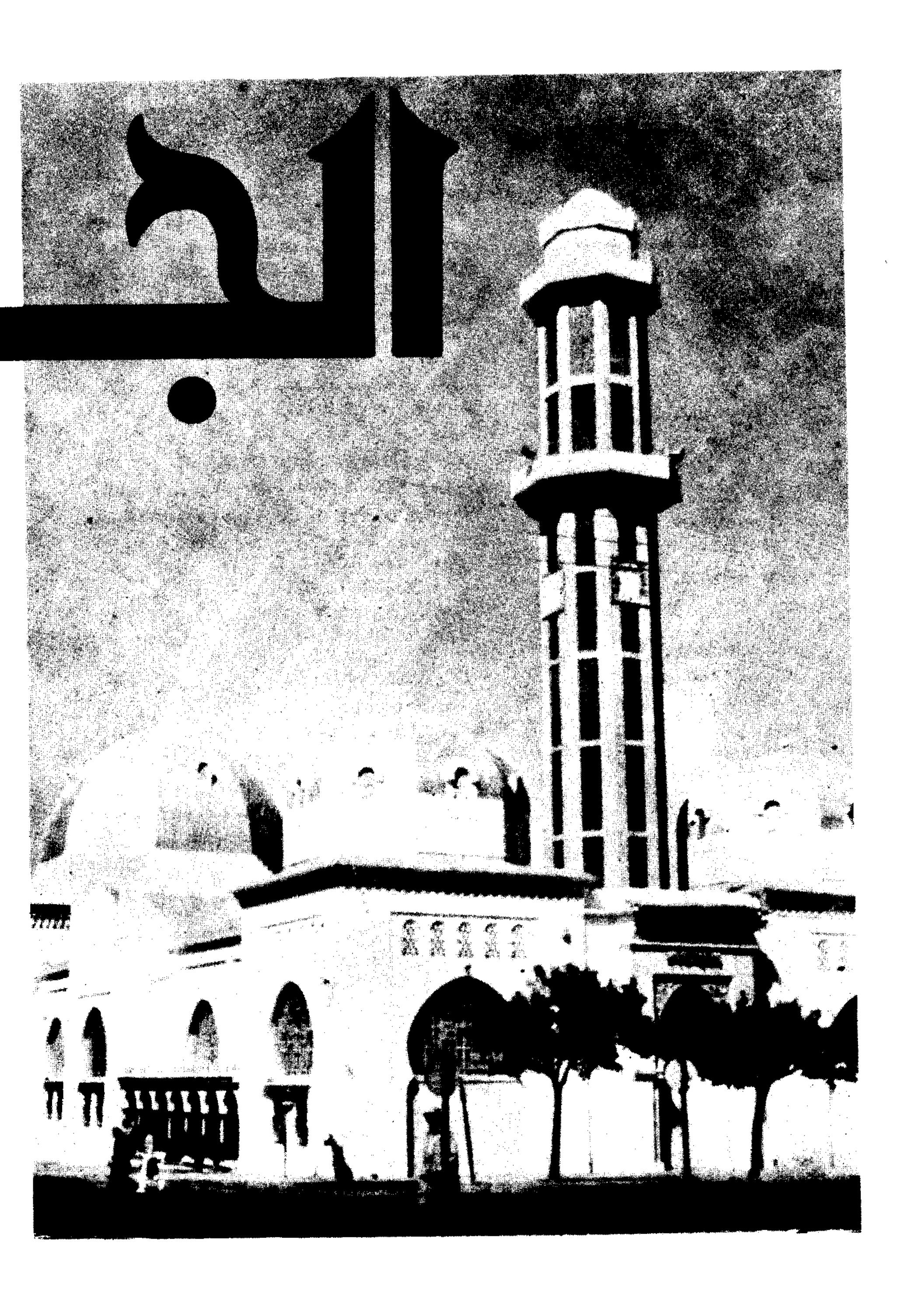
وفيما يخص الجزائر فاننا بجانب ما نقدمه فى المجال الاقتصادى والثقافى والتقنى لبعض الدول الأفريقية فى حدود امكانياتنا المتواضعة فيمكننى أن أشير الى بعض ما نقوم به من استقبال أعداد وفيرة من طلبة هذه الدول فى مدارسنا حتى البكالوريا حيث تدرس لهم المواد باللغة العربية أولا وباللغات الأجنبية ثانيا ·· وفى خطتنا أن نستقبل بافتتاح بعض الثانويات فى التعليم الأصلى أضعاف هذه الأعداد مستقبلا ·· وبافتتاح كلية الشريعة والقانون المقارن فى العام القادم باذن الله والتى ستكون نواة لجامعة اسلامية متكاملة بجانب الكليات العلمية ·· سوف نتمكن من تخفيف العبء على الجامعات الاسلامية فى البلدان الشقيقة لاستيعاب الأعداد المتزايدة من طلبة أفريقيا ·· ولكن هذه الجهود التى نبذلها هى دون المطلوب ·· اذا أردنا ان نحصن أفريقيا بطريقة جادة ·

● فى مصر نتابع نحن تجربة الجزائر لتعريب محيطها ·· وزارتكم تقوم بدون رائد فى مجال التعريب ·· ما مدى النجاح الذى حققته ·· وهل هناك عقبات تواجه التجربة ؟

ـ هل سمعت النشيد الذى كان يردده طلبة الجزائر لحظة افتتاح الملتقى « شعب الجزائر مسلم والى العروبة ينتسب » ان انتسابنا الى العروبة هى حقيقتنا الجوهرية الأولى ·· وتعميق هذا الانتساب لابد أن يصاحبه أن تكون العربية هى اللغة صاحبة السيادة على كل المحيط الجزائرى · وهناك جهود منسقة تتم على مختلف دوائر الدولة والحزب من أجل احلال اللغة العربية ·· لاعطاء الشخصية الجزائرية كل مقوماتها بدون تعصب أو تشنج ولكن انطلاقا من كون اللغة هو المقوم الأساسى لتاكيد شخصية الأمة أى أمة ·· لقد حاول الاستعمار الفرنسى عزل الشعب الجزائرى عن لغته الطبيعية ·· ومن الطبيعى أن تعود للشعب الآن لغته ·· وفعلا وجد نوع من المقاومة لسياسة التعريب من بعض الذين حرمهم الوضع الاستعمارى من تعلم اللغة الأم ·· وهؤلاء تقدمت بهم السن ويعملون فى جهاز الدولة · وظنوا ان سياسة التعريب تضر بمصالحهم كموظفين فى جهاز الدولة التى أعلنت حتمية أن يتعلم جميع من هم فى جهاز الدولة العربية ·· وخصصنا لذلك بعض الساعات واحتسبناها من ساعات العمل الرسمية ·· ولأن هؤلاء استخلصوا من هذا بعض التصورات الخاطئة فقد قابلوا هذه العملة الوطنية بنوع من الشك والتشاؤم والعرقلة الصامتة ·· وبعضهم بدون شك كانت تحكمه العقدة الاستعمارية فى تحقير اللغات الوطنية والزعم بأنها غير قادرة على مجاراة العصر ·

ولكن التجربة المخططة والتوعية المنظمة استطاعت أن تقنع هؤلاء وأولئك بأنهم أساءوا التقدير ··

ان انتساب سياسة التعريب بشكل مذهل واقبال الجميع على اتقان العربية يجعلنا فى غاية التفاؤل بشأن نجاح سياسة التعريب ·· لقد اندحرت كل الحجج التى زعمت بأن العربية غير قادرة على ملاحقة العصر وانجازاته العلمية ·· لقد كانت هذه اللغة فى القرون الوسطى حتى بداية النهضة هى لغة العلم فى جميع أنحاء العالم ·· أو على الأقل فى حوض الأبيض حتى حدود الشمال الأوربى ·· وتستطيع اليوم بخصائصها الذاتية أن تكون احدى اللغات العلمة على مستوى العالم بأسره ·





حوار اجراه / فهمي عبد العليم الامام

في المغرب العربي الكبير ، وفي قلعة من قلاعه الشامخة ، في حصن من حصون الاسلام ، في بلد المليون ونصف شهيد .. في ارض ظن المستعمر الفرنسي يوما أنها قد أصبحت من أرضه . في وطن رأى المستعمر الغاشم أنه قد استطاع سرقته بليل دامس ليضمه الى وطنه، في الجزائر العربية المسلمة رغم المحاولات المستميتة التي تعمل جاهدة لتغيير السنة الشعب الجزائري .. في الجزائر الحارسة لثغر من ثغور الاسلام .. الشامخة مآذنها المضيئة بالنور والعلم.. لتقول لبلاد المستعمر من وراء البحر .. لو علم المسلمون الاوائل أن وراء البحر حياة .. لخاضوا البحار ليقوموا بواجب تبليغ الدعوة الاسلامية الى الأحياء هناك .. ولينشروا الايمان .. وليحرروا الانسان من ظلم الانسان.. وليصفوا العقائد مما لحقها من أباطيل ليخلص الدين كله لله .

لقد كان أجدادي أيها الغرب المستعمر رسل هداية .. وصناع حضارة .. وحاملي لواء المعرفة والايمان .. لم يحرقوا أرضا كما فعلت .. ولم يبيدوا شعبا كما فعلت .. ولم يزيلوا حضارة كما حاولت.. ولم يسترقوا أمة كما ارتكبت ..

اجدادي أيها المستعمر القديم والحديث لم يمتهنوا كرامة الانسان .. ولم ينهبوا خيرات شعب بل

نشر فى مجلة «الوعى الإسلامى» السنة 13 العدد 149 ـ جمادى الاولى 1397 هـ/مايو 1977م.

كانت الحريات مكفولة .. والمساواة قائمة .. وكرامة الانسان هي كرامة الانسان لمجرد كونه انسانا ..

(ولقد كرمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر) .

في الجزائر العربية المسلمة .. حاول المستعمر أن يترك الكثير من آثاره السيئة التي تشيع الفساد والانحلال يريد بذلك أن يقضي على الأمة المسلمة عن طريق هدم أخلاقها .. ولكنه — والحمد لله — قد طاش سهمه وخاب فأله .. فوقف أحفاد الأبطال الأوائل في الجزائر يضربون للعالم كله أروع الأمثلة للتضحية في سبيل الله .. من أجل الوطن .. والدفاع عن الحرمات .. وخرج الاستعمار يجر أذيال الخيبةوالندامة .. فهو لم يفطن الى أن السر في عظمة الأمة الاسلامية يكمن في قرآنها .. وفي تمسكها بدينها .. والله حافظ كتابه : **(انا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون) .**

فمهما طال الليل .. واشتد سواده .. وناء بكلكله .. فان الضياء ياتي بعد ظلمة .. وان النور ينبعث من خلال السواد .. ليبدد جحافل الظلام .

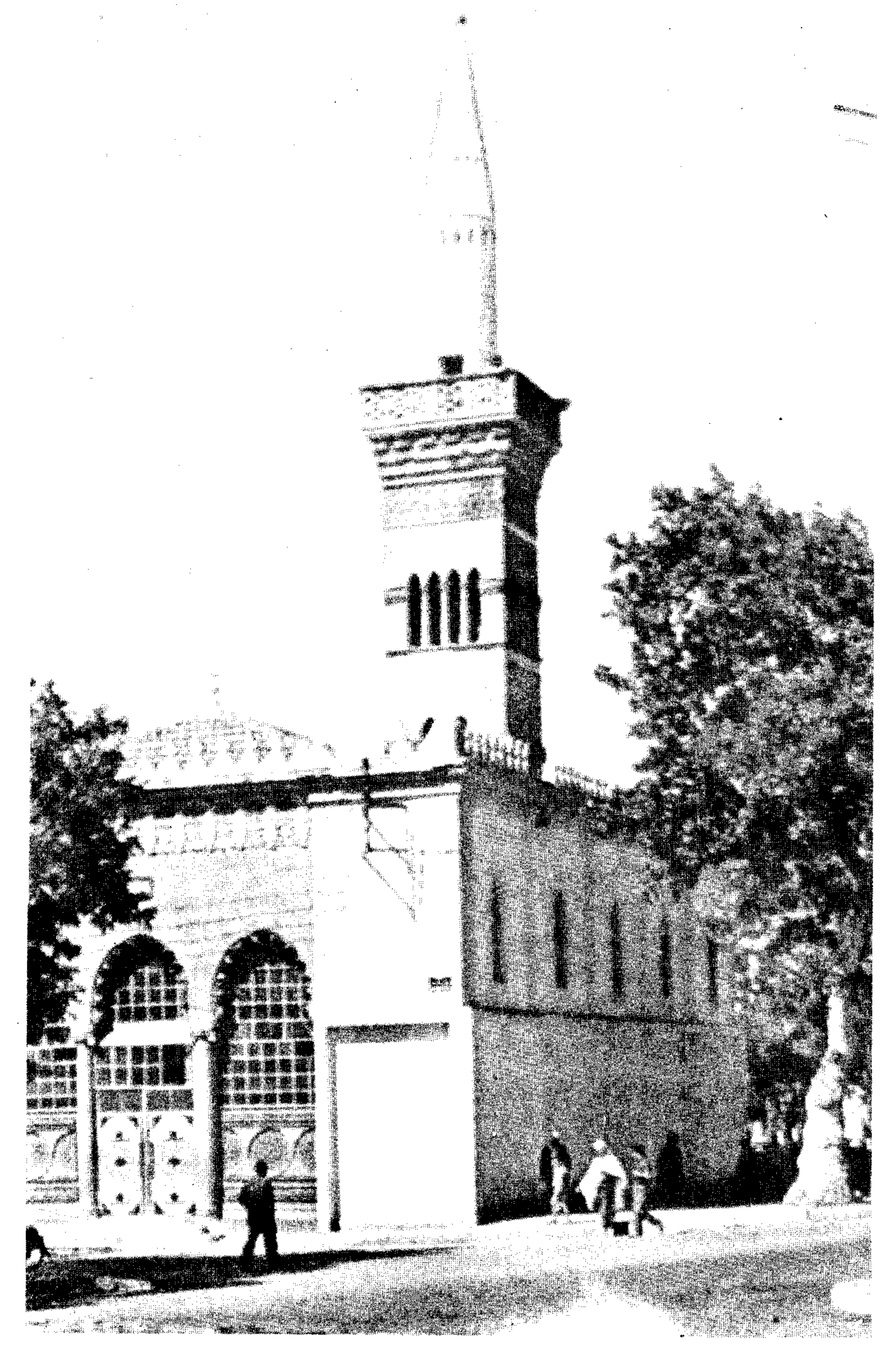
في الجزائر العربية ، استطاع الشعب المسلم ان يطرد الغزاة من أرضه .. وأن يبعث الحركةالاسلامية والعربية ناشطة من جديد .. حتى يمحو كل اثر سيىء للمستعمر .. وحتي يتحرر فكريا كما تحرر عسكريا .. في الجزائر المسلمة .. من حيث ظن المستعمر أنه قد تم له فيها ماأراد .. عقد الملتقى الحادي عشر للفكر الاسلامي ، ووجهت الدعوات الى العديد من الشخصيات في عالمنا العربي والاسلامي ، وبعض المفكرين واصحاب الراي في العالم الغربي .. لحضور هذا الملتقى ..

وقد مثل مجلة الوعي الاسلامي في حضور الملتقى فضيلة الشيخ عطية محمدصقر مساعد رئيسقسم الثقافة بوزارة الاوقاف والشئون الاسلامية. وبعد عودة فضيلته كان لنا معه هذا اللقاء .. وهذا الحوار .. ننشره ليطل القارىء الكريم من خلاله على قطعة غالية من وطنه الاسلاميالكبير .. وليعرف كما نعرف أن المستقبل لهذا الدين رضيأعداء الدين أو كرهوا .. ففي ديننا الاسلامي يكمن سر بقائه وخلوده .. لأنه دين الفطرة السوية ..

يقول فضيلة الشيخ : **بناء على الدعوة الموجهة من السيد وزير التعليم الأصلي والشئون الدينية بالجزائر الى مجلة الوعي الاسلامي لحضور الملتقى الحادي عشر للفكر الاسلامي الذي سيعقد في ولاية «ورقلة — سدراته» بمدينة«ورجلان» في المدة الواقعة بين ٦ و ١٥ من فبراير لسنة ١٩٧٧م .**

بناء على هذه الدعوة الكريمة رشحتني وزارة الاوقاف والشئون الاسلامية لتمثيل المجلة في المؤتمر .
وعن انطباعاته عن الشعب الجزائري قال فضيلته :

إن الجزائر بلد عربي واسلامي ناهض



الجامع الكبير بسطيف

.. يعيش حركة التعريب الواسعة في الدواوين والمدارس وجميع المصالح الرسمية .. بعد أن عمد المستعمر الفرنسي الى ابعاد اللغة العربية عن مسرح الحياة في الجزائر .. لتتسنى له السيطرة الكاملة على مقدرات الشعب .. ولكن الشعب الجزائري البطل قدم من دماء شهدائه المداد الطاهر ليسجل في صفحات التاريخ أروع البطولات وأعظم التضحيات فنال استقلاله وحريته ، وعاد الى حظيرة العروبة والاسلام بعد ان ظن المستعمر انه قد « فرنسه » .

هذا عن التحرر العسكري ولكن ماذا ترى فضيلتك عن التحرر الفكري ؟

بعد مائة سنة واكثر من تخلف غرضه الاستعمار ، ومحاربة الشعب الجزائري بكل الوسائل الخبيثة وتشجيع المستعمر للافكار المخربة والاراء المنحلة .. فقد اختلط الحابل بالنابل في الجزائر .. هناك مظاهر التقوى والصلاح ، الى جانب معاول الهدم والافساد .. ونامل أن يوجه المصلحون هناك المزيد من اهتماماتهم للنهوض بعبء الاصلاح والدعوة الى الله ، والأخذ بيد الشباب الى طريق النور والايمان ، ونهيب بالغيورين على الدين .. ان يزيلوا عن وجه الجزائر العربي المسلم تلك النتوءات القبيحة التي شوه بها الاستعمار نضارة الوجه العربي المسلم فى بلادنا الحبيبة الجزائر .. وان الله ليزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن ..(1)

وعن المؤتمر قال شيخنا :

لقد عقد المؤتمر في موعده المحدد حيث القى كلمة الافتتاح السيد مولود قاسم وزير التعليم الأصلي والشئون الدينية بالجزائر مرحبا بالحضور الذين زاد عددهم على مائة استاذ وباحث وعدد كبير من الطلبة والطالبات في جامعات الجزائر ومدارسها . ثم استعرض الوزير النقاط التي قرر المؤتمر بحثها .. ثم بدأت جلسات المؤتمر واعماله.

وعن الموضوعات التي اختارها الملتقى لتكون موضع بحث ودراسة قال الشيخ عطية صقر :

كان الغرض من الملتقى عرض الاراء والأفكار حول نقط معينة تتغير من ملتقى لآخر ، مع الاهتمام بالآراء التحررية لمحاولة كسر الجمود الفكري القديم ، وذلك لرسم سياسة جديدة لتطوير المجتمع ثقافيا واجتماعيا ، وعرض ذلك كله على الطلبة والطالبات في الجامعات والمدارس الثانوية بالذات ، لاعدادهم لقيادة المسيرة التقدمية بعيدا عن التزمت الموروث كما يقولون !

وكانت الموضوعات التي دار حولها البحث والنقاش هي :

أ ــ مساهمة الرستميين في حضارة الاسلام وفكره ، والدولة الرستمية كما نعلم قامت في القرن الاول الهجري على اساس المذهب الأباضي وكانت « ورجلان ــ سدراته » هي العاصمة الثانية بعد تيهرت ، حتى قضى عليها العبيديون في زحفهم من المغرب الى المشرق « الفاطميون » .

ب ــ الاسلام في افريقيا اليوم .

جـ ــ المراة بعد عام المراة الذي أعلنت توصياته في مؤتمر مكسيك .

د ــ هل بطون الارض نعمة ام نقمة ؟

(1) نحن لا ننكر ما يقوله الاستاذ الفاضل هنا ولم يسبق لنا ان ادعينا ان جميع الجزائريين والجزائريات انبياء ، أو ملائكة، أو معصومون، ومعصومات . ولكننا نقول فقط ان هذه الظواهر والمظاهر التى اشار اليها وسماها بـ « النتوءات القبيحة » ليست من « حظ » الجزائر وحدها ، بل هي مصيبة طامة ، عامة ، ونجدها فى بعض البلدان الشقيقة،ومنها بلد الاستاذ،أطم وأعم ، مع الفارق الكبير وهو ان الجزائر تعرضت لما لم يتعرض له بلده الشقيق ولا أى بلد شقيق آخر من محاولات المسخ والنسخ .
ونحن اذ نشكر الاستاذ الكاتب على مقاله فى الجملة نرجو الله ان يوفقه ويوفقنا جميعا الى مكافحة هذه الآفات هنا وهناك .



منصة احدى الاجتماعات

ثم قال فضيلة الشيخ : لقد القي في المؤتمر اكثر من اربعين محاضرة ، اكثر من نصفها كان عن موضوع المراة ، وكانت تعقد في كل يوم جلستان من ٨ ــ ١ ومن ٤ ــ ٩ مساء في كثير من الاحيان وداوم على حضور الجلسات عدد ضخم من المدعوين للمحاضرات والمناقشات ، منهم مسلمون وغير مسلمين جاءوا من استراليا واليابان واندونيسيا والاتحاد السوفيتي وانجلترا والمانيا وفرنسا واسبانيا وبولونيا وامريكا الى جانب البلاد العربية والاسلامية في آسيا وافريقيا ، كما حضره نحو الف من طلبة وطالبات الجامعات الجزائرية والمدارس الثانوية في الولايات المختلفة ، وغيرهم من اهالي المنطقة .

لمحة تاريخية :

ثم مضى محدثي يقول : وقد اعدت لنا رحلتان خارج المدينة : احداهما كانت الى منطقة « حاسي مسعود » على بعد ٦٥٠ كم من العاصمة ، حيث يستخرج البترول الذي اكتشف عام ١٩٠٦م . ثم الى منطقة « توقورت » على بعد ١٠٠ كم من « ورجلان » حيث توجد مقابر الملوك من بقايا بني مرين ، وحيث توجد القرى الاصلاحية الجديدة .

اما الرحلة الثانية فكانت الى وادي « ميزاب » بولاية الاغواط على بعد ٢٠٠ كم من « ورجلان » حيث يوجد مصنع للحديد والصلب ، وحيث

توجد سبع مدن كبيرة ذات الطراز المعماري الخاص المناسب للحرارة الشديدة في الصيف ، وقد تأسس اولاها سنة ٤٠٢ هـ . وهي مقامة على تلال وسط الوادي الاخضر يحوط بعضها اسوار تاريخية ، وتعلوها صومعة المسجد في القمة ، يعمره المتعبدون بتلاوة القرآن والذكر .

ثم نعود بعد هذه الجولة الاستطلاعية القصيرة في تاريخ الجزائر الى جو المؤتمر لنرى الى اي شيء انتهت جلساته .

يقول شيخنا : اعدت لجان من المحاضرين والمعقبين وبعض الطلبة لوضع توصيات اعلنت في نهاية الملتقى تتلخص فيما ياتي :

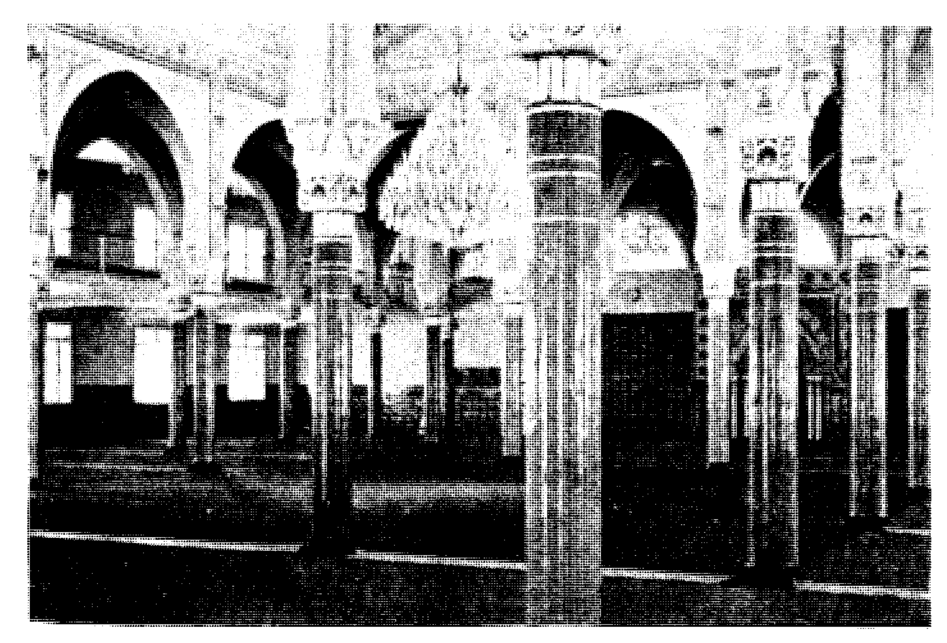
١ ــ العناية بالتراث الاباضي بالوسائل المختلفة ، ودراسه مجتمع الاباضيين دراسة وافية ، وكذلك دراسه الفرق الاسلامية بعامة .
ونحن مع دراسة تاريخنا الاسلامي بمذاهبه المختلفة دراسة موضوعية ومنهجية .. الهدف منها ابراز الحضارة الاسلامية ، والقاء الضوء على صور الحياة القديمة . وبيان وجهات نظر وفكر مختلف الفرق والمذاهب الاسلامية .. مع ضرورة التمييز بين المنهج التاريخي والمنهج الكلامي المتصلين بتلك الفرق ، وعلى أن يستعمل المنهجان معا لاثراء الفكر الاسلامي المعاصر وايجاد قدر اكبر من التفتح بين المسلمين في المذاهب المختلفة .. فهي دراسة توحد ولا تعدد ، تجمع ولا تفرق .

٢ ــ استكمال الدراسة لمشكلات المسلمين في افريقيا وبذل الجهود لامداد هذه البلاد بكل ما تحتاج اليه من وسائل التعريف بالعلوم الاسلامية وتزويدها بالمدرسين والدعاة وعلماء الدين المستنيرين ، وبالمصاحف الشريفة ، والكتب والنشرات التي تزيدهم علما باصول الاسلام وتعاليمه الصحيحة ، وفي سبيل ذلك لا بد من العمل على اعداد الدعاة وعلماء الدين والوعاظ الذين يمكنهم ان يسدوا هذا الفراغ في افريقيا الغربية والوسطى والشرقية، وايضا لا بد من وجود عدد كبير من الدعاة الافارقة انفسهم ، يجري اعدادهم اعدادا اسلاميا وفكريا صحيحا .

واهابت اللجنة بالدول الاسلامية ومنظمة المؤتمر الاسلامي وما اليها من الهيئات الاسلامية الاخرى ان تساهم في انشاء جهاز للدعوة الاسلامية ، وذلك لتقديم المعونات الفنية والعلمية والاقتصادية للبلاد الافريقية المحتاجة اليها .

٣ ــ وبالنسبة للنقطة الثالثة المراة بعد عام المراة اوصى المؤتمر المسؤولين والعائلات في المجتمعات المختلفة على المستوى العالمي ، كل حسب معتقداته الا ينية ، وقيمه الخلقية ونظامه الاجتماعي بالعناية بالاسرة وبالاهتمام خاصة بالمراة ، بما لها من حقوق وما عليها من واجبات .

وفيما يخص العالم الاسلامي بالذات ، يوصي الملتقى المسؤولين والعائلات بتطبيق ما منحه الاسلام للمراة من حقوق ، وما كلفها به من واجبات تتفق مع طبيعتها وخصائصها ومواهبها ، ولا سيما في ميدان الاسرة



مسجد النور بمدينة بليدة



المسجد الكبير بالعاصمة



عنـــد الافتتاح

التي لها فيها المركز الأساسي والأثر العظيم لأنها الخلية الاجتماعية التي تصلح بصلاح المراة ووعيها وحسن سلوكها ، كما تفسد بفسادها ، وهي في ذلك مثل الرجل تماما .

كما توصي بان يهتموا بتعليم المراة على جميع المستويات ، وبتربيتهـا تربية أصيلة ، لتمكينها من حسن أداء مهمتها ووظيفتها الاجتماعية والتربوية التي تتفـق مع المقاصـد والآداب الاسلامية .

كما يطالب المراة بالعناية بالتعليم الاسلامي وبصورة خاصـة للفتـاة المسلمة أحكاما ونظاما وثقافة وتربية في جميع مراحل التعليم بما يحقـق الفهم والتطبيق ، تحصـينا لهـا وللمجتمع .

وان توضع في البـلاد العربيـة والاسلامية برامج ووسائل توعيـة وتثقيف للمراة الريفية بما يكفل رفع مستواها ، وهـذا لصالح الفـرد والاسرة والمجتمع .

ويطالب المؤتمـر بالحفاظ علـى اللباس الساتر لمفاتن المراة ، داخل بيتها وخارجه لان ذلك في الاسـلام واجب ومصلحة معا في اطار مارسمه القرآن العظيـم ، والسنة النبوية الثابتة ، ففيه صيانة للمراة وللرجل



أعضاء الملتقى في زيارة للمعرض



جلسة في خيمة عندآثار سدراته



المنصة ويتوسطها السيد مولود قاسم رئيس الملتقى



مندوبة ألمانيا



مندوب المجلة أثناء القاء كلمته

وللأسرة والمجتمع .

ويرى المؤتمر وجوب مساعدة المراة والاسرة المسلمة في البلاد غير الاسلامية على رفع مستوى ثقافتها الاسلامية وتربية اطفالها تربيةسليمة وفق الوسائل الحديثة ، وعلى كفالة المعاملة العادلة في تلك البلاد للأسر الاسلامية وتوجيه المراة المسلمة في هذه البلدان الى ضرورة تجنبالمظاهر والملاقات والممارسات التي لا تتمشى مع تعاليم الاسلام وآدابه وحض الدول والمنظمات الاسلامية على تحقيق هذه المساعدات بكل الوسائل الممكنة من مالية وبشرية .

٤ — وخيرات الأرض ان استغلت استغلالا حسنا كانت نعمة وبركة على الافراد والمجتمعات والا كانت نقمة وشؤما عليهم ، وتاسيسا على هذا اوصت اللجنة بايجاد جهاز وطني كامل ينهض بجميع العمليات من التنقيب الى تصنيع المواد حتى نحافظ على هذه النعمة ونوجهها الى التنمية الاقتصادية والاجتماعية ، كما يجب ان تاخذ البلاد العربية والاسلامية نصيبها الكافي من النفط لاستثماره داخل بلادها في التصنيع والزراعة مما يعود بالنفع على المجتمع كله ويجب ان تراعى في عملياتاستخراج النفط المحافظة على قيمة هذه النعمة والا فوجود النفط في باطن الأرض افضل من توجيه رءوس الأموال الى البنوك الاجنبية .

ثم ناشد المؤتمر الدول الاسلامية المنتجة للنفط ان تساعد البلدان المحرومة من هذه النعمة وان توجه اليها العائد مباشرة لا بواسطة البنوك الاجنبية .

وبذلك ينعم المسلمون جميعا بخيرات الله في بلادهم ، ويحس المسلم في المشرق اوجاع المسلم في المغرب .

وعن نشاطاتكم داخل المؤتمر وخارجه قال فضيلة الشيخ عطية : **لقد قمت بواجبي المحدود والبسيط داخل المؤتمر ، فكنت اعقب على ما اراه خروجا عن الاسلام ، وكنت اصحح ما يقع فيه بعض المحاضرين من خطا في فهم نص او حديث .. لترتسم الصورة مشرقة عن الاسلام في اذهان الحاضرين خصوصا الطلبةوالطالبات وخارج المؤتمر انتهزت فرصة**



الفوج الاول من حافلات الملتقين عند الوصول الى حاسي مسعود .

صلاة الجمعة في مسجد « ابي ذر الغفاري » والتقيت بالجماهير التي غص بها المسجد ، بعيداً عن نظام المؤتمرات ، وما فيها من قيود ، فوضحت ان الطريق الامثل للنهوض بالبلد الاسلامي والعربي بالذات — هو الدين الذي وضع منهج الاصلاح فيه من هو اعلم بخلقه أن هذا القرآن يهدي للتي هي اقوم) وعلينا ان ندرس الدين في منابعه الصافية لنستغني بما فيه من هدى وبينات شاملة وافية عن الاراء المستوردة التي تعقد من اجلها المؤتمرات والملتقيات ، كما بينت ان دين الاسلام غير منغلق او قديم كما يزعمون ، بل هو دين مفتوح على الخير ، وفي اطار ما انزل الله على رسوله ، وهو صالح لكل زمان ومكان ، مهما ارتقت الحضارة ، وتقدمت المدنية .

هذا وقد كانت لي لقاءات مع الطلبة ومع الصحافيين ورجال الاعلام الذين يريدون معرفة الراي الصحيح في مشكلات كثيرة ، لا ينبغي أن تؤخذ من غير المتخصصين في الدين بالذات.

وعن انطباعاتك حول المؤتمر ؟

اقول : اولا : ان المؤتمرات فرصة طيبة لتلاقي الافكار ومعرفة اتجاهات الافراد وكذلك الدول التي يتحدثون باسمها . وفي ذلك كل الفائدة وصولا الى المستوى اللائق بنا كامة ذات رسالة خالدة .



مناطق البترول بحاسي مسعود

واقــول : ثانيــــا : لاحظــت ان بعض المتحدثين لم يكونوا من ذوي الاختصـــاص فـــي موضـــوعاتهـم وأن البعض استغل تصريح المسئولين بان ((المنبر هنا حر)) فانحرفوا عن جادة الطريق ونقدوا بعض حقـائق الاسلام الواضحة . وظلموا الحقائق التي تعرضوا للكلام عنها .

وبعد ... فضيلة الشيخ .. هل من كلمة أخيرة تودون قولها ؟

نعم اقول : إن الجزائر تبذل جهـدا كبيرا في سبيل التعريب ، ونامل ان تصحبه صحوة دينية اصيلة نقية ، خالية من شوائب الافكار المستوردة التي لا تتلاءم مع الدين والعروبة . وعلى العموم فالقاعدة الشعبية في الجزائر سليمة وتعشق الدين،واهيب بالمسئولين أن يحولوا بين الاستعمار باساليبه المختلفة وبين الشباب المهيا لقبول الشبهات والانغماس في تيار الشك والتحرر المتحلل .

نامل ان يضيء اصحاب الفكر المستنير والعلماء المخلصون والمسئولون عن مصير هذه الأمة ، مشاعل النــور بزيت الايمان الصافي حتــى تنهض الأمة من خلال شبابها ، وحتى يتحقق املنا في غد افضل . ومستقبل ارحب في ظل العمل بمبادىء ديننا الخالد . وفق الله المسئولين، وحمى الأمة من كيد اعدائها لتمضي الى غايتها في قوة وثقة وإيمان .. (ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوي عزيز)

منشـــورات

وزارة التعليم الاصـلى والشؤون الدينيـة

صـدر أخيرا كتاب :

الملتقى الثامن للفكر الاسلامى

بالعربية فى ثـلاثة أجزاء

ويشمـل سائـر المحاضرات ، والتعقيبـات ، والمناقشـات

كما صدر كتاب :

الملتقى السادس للفكر الاسلامى

بالفرنسية فى خمسة أجزاء

ويشمـل أيضا سائر المحاضرات ، والتعقيبات ، والمناقشـات

منشـــورات
وزارة التعليـم الاصـلى والشؤون الدينيـــة

مولود قاسم نايت بلقاسم

إنية وأصالة

منشورات وزارة التعليم الأصلي والشؤون الدينية





أبو حمو الزياني
حياته وآثاره

د • محمد بلقراد
معهد اللغة والادب العربى
جامعة الجزائر

نشرت الشركة الوطنية للنشر والتوزيع سنة 1974 كتاب : « أبو حمو موسى الزيانى (1) حياته وآثاره » تاليف الدكتور عبد الحميد حاجيات • وهو أستاذ مساعد بمعهد التاريخ بجامعة الجزائر • وهو علاوة على قيامه بالتدريس يشارك بمقالات شتى تنشرها له الصحف والدوريات بمدينة الجزائر • وهو معنى أيضا باحياء طائفة من المخطوطات يخرجها الى النور بتحقيقها ونشرها • وقد نشرت له الشركة الوطنية للنشر والتوزيع سنة 1974 كتابا آخر هو كتاب الجواهر الحسان فى نظم أولياء تلمسان عن مخطوطة فريدة محفوظة فى المكتبة الوطنية بباريس ، ويعنى الآن بتحقيق مخطوط ثمين لمؤلف مجهول الاسم عنوانه « زهر البستان فى دولة بنى زيان » (5) ، وقد ناقش الدكتور حاجيات فى صيف سنة 1974 فى فرنسا رسالته التى نال بها درجة الدكتوراه من الدور الثالث ، وموضوعها تحقيق كتاب « بغية الرواد فى أخبار بنى عبد الواد»(2) تاليف أبى زكريا يحيى بن خلدون (2) (733 ـ 780 هـ) وهو اليوم جاد فى اعداد

رسالة جامعية يهدف بها الى نيل درجة دكتوراه الدولة · وموضوعها : « المغـــرب الاوسط فى عهد أبى حمو موسى الثانى » ·

وكتاب بغية الرواد نفيس جدا يحتاجه دارس التاريخ والادب والحركة العلمية فى المغرب الاوسط فى القرنين السابع والثامن الهجريين ، ولم يعتن أحد بكتاب بغيـــة الرواد ولم يعد نشره مع أن له صلة عميقة بتاريخ بلادنا · وقد عنى به فى العقـــد الاول من هذا القرن المستشرق المشهور ألفرد بل · نشر النص العربى وترجمتـــه الفرنسية وجعله ثلاثة أجزاء فى مجلدين (الجزائر 1904 ـ 1911 ـ 1913) ·

يحتوى كتاب : « أبو حمو موسى الزيانى حياته وآثاره » على 400 صفحة من القطع المتوسط ، ويشتمل على مقدمة وثلاثة أقسام · ويحتوى كل قسم على أبواب ·

يعرض المؤلف فى مقدمة الكتاب لبيان مكانة أبى حمو الثانى فى تاريخ الدولـة العبد الوادية واسهامه فى الحياة الادبية بتأليف الكتب ونظم الشعر ، وينوه بشخصية هذا الامير وبما امتازت به من مزايا وخلال ويذكر فضله فى احياء مجد أجداده وصموده للشدائد والاهوال · ويذكر المؤلف ما كان لبلاط أبى حمو الثانى من الاهمية لكونه صار ملتقى العلماء والشعراء كما كان عهده عهد ازدهار فى ميادين شتى · ويذكر المؤلف الغاية من تأليف كتابه وهى ابراز شخصية أبى حمو الثانى ومحاولة ازالـة ما يكتنفها من غموض · وقد أشار المؤلف الى وفرة المصادر فى الموضوع وذكر أهـم المصادر التى اعتمد عليها مثـل كتاب العبـــر (3) لعبد الرحمن بن خلـــدون (3) (732 ـ 808 هـ) وبغية الرواد لاخيه يحيى ، واعتمد أيضا على مصدرين مخطوطين وهما كتاب « نظم الدر والعقيان (4) فى دولة آل زيان » تأليف أبى عبد الله محمـد ابن عبد الجليل التنسى (4) المتوفى سنة 499 هـ · (3)

وكتاب « زهر البستان فى دولة بنى زيان » (5) لمؤلف مجهول وعلى مصادر أخرى يصف المؤلف فى القسم الاول كيف بنت الدولة العبد الوادية صرح مجدها منذ عصر أبى يحيى يغمراسن (603 ـ 681 هـ) المؤسس للفرع الاول من دولة بنى زيـــان حتى عصر أبى حمو موسى الثانى (723 ـ 791 هـ) مؤسس الفرع الثـــانى منها .

ويشتمل القسم الاول على ثلاثة أبواب ، يعرض المؤلف فى الباب الاول كيف تأسست الدولة الزيانية ويصف الحوادث التى وقعت فى عصر الامراء الزيانيين الذين تربعوا على منصة الحكم قبل أبى حمو الثانى وهم يغمراسن بن زيان (603 ـ 681 هـ) وأبو سعيد عثمان الاول (639 ـ 703 هـ) وأبو زيان الاول (659 ـ 707 هـ) محمد ابن عثمان أبى سعيد . وأبو حمو الاول موسى (665 ـ 718 هـ) بن عثمان وأبو تاشفين الاول (692 ـ 737 هـ) عبد الرحمن بن موسى أبى حمو الاول ، وأبو ثابت وأبو سعيد اللذان دالت لهما الدولة فتولياها مشتركين من سنة 749 الى سنة 753 هـ . وهى السنة التى أنهى فيها الاحتلال المرينى لتلمسان دولتهما مرة أخرى . ويذكر المؤلف طائفة من الاحداث التى كان لها الدور الحاسم فى تسيير السياسة فى هذه الفترة من تاريخ المغرب الاوسط كما يذكر أنواعا من الصراع الذى نشب بين امراء الدولتين المرينية والزيانية وكيف انتعشت الدولة العبد الوادية على يد الاميرين أبى سعيد وأبى ثابت وكيف فشل هجوم أبى الحسن المرينى على ناحية شلف وكيف اندلع الصراع بين أبى الحسن وابنه أبى عنان ويذكر وفاة أبى الحسن المرينى ويعرض لزحف أبى ثابت الى المنطقة الشرقية واستيلاء أبى عنان المرينى على المغرب الاوسط وزحفه الى افريقية ، ويختم المؤلف كلامه فى الباب الاول بالحديث عن وفاة أبى عنان .

ويعرض الدكتور حاجيات فى الباب الثانى للحياة الفكرية والتعليم ، ويصف كيف ازدهرت العلوم الدينية والعلوم اللسانية والاجتماعية والعلوم الطبيعية ويعقد الباب الثالث لوصف الحياة الحضارية المتمثلة فى ازدهار الفنون والعمران .

والقسم الثانى من الكتاب هو أهم أقسامه وفيه ثلاثة أبواب . يتحدث المؤلف فى الباب الاول عن نسب أبى حمو الثانى ، وعن نشأته وعن الفترة التى سبقت امارته .

فلما بلغ أبو حمو سن الرابعة عشرة عرف آلام الاغتراب بفاس حتى صار يتعيش برد فك المفكوكين . أقام بها ثلاث عشرة سنة تم خلالها تكوينه العلمى والادبى ولم ينقطع فيها عن الاشتغال بطلب العلم ومطالعة كتب الحكمة والاخلاق والسياسة والعلوم

الدينية . ثم انتقل هو وأسرته الى ندرومة سنة 750 هـ . وبعدما أقام فيها نحوا من ثلاث سنين سافر الى افريقية سنة 753 هـ . وامتدت اقامته فيها حتى سنة 760 هـ . وفى هذه السنة بلغه نعى السلطان أبى عنان المرينى بفاس فسنحت الفرصة بذلك لرجوعه الى تلمسان وتسلم الحكم والجلوس على عرش أجداده فى عاصمة بنى زيان . وقد وصف المؤلف وصفا دقيقا يشتمل على كثير من التفاصيل للاحداث والمخاطر التى جابهها أبو حمو الثانى أثناء ممارسته للحكم والسياسة مدة ملكه الطويل الـذى امتد احدى وثلاثين سنة (760 ـ 791 هـ) .

ويعنى المؤلف فى الباب الثانى من القسم الثانى بالحديث عن الحضارة فى المغرب الاوسط على عهد أبى حمو الثانى، وعن الحياة الفكرية وازدهار العلـــوم الدينيـــة واللسانية والاجتماعية والطبيعية ومظاهر الحضارة المتمثلة فى ازدهــار الفنـــون والعمــــران .

ويخص المؤلف الباب الثالث بدراسة آثار أبى حمو الادبية ويتحدث فيه عـــن كتابه « واسطة السلوك فى سياسة الملوك » ، وعن تاريخ تاليفه وعن محتواه وعـــن منهج السلطان فى معالجة الموضوع وعن قيمته الادبية والاجتماعية .

وقد خص الاستاذ حاجيات شعر أبى حمو بدراسة نقدية أدبية أحصى فيها ما وصل الينا من قصائد الامير وما اشتملت عليه من أغراض شتى كالفخر والحماسة والرثاء وغيرها، وذكر جوانب منه وما فيها من غث وسمين مع سوق أمثلة كثيرة من شعـــر أبى حمو . وأنهى المؤلف القسم بخاتمة تناول فيها شخصية الامير الزيانى بالتحليل على ضوء ما سبق فى الكتاب ، ويشتمل القسم الثالث منه على بابين يعرض المؤلف فى الاول منتقيات من كتاب واسطة السلوك وما اشتمل عليه من حديث عن الشجاعة والفراسة .

ويستعرض فى الثانى نماذج شتى من شعر الامير الزيانى فى السياسة والرثاء والمولديات .

موضوع الكتاب الذى نتحدث عنه اليوم هو فى صميم تاريخ المغرب الاوسط . فهو اذن ذو أهمية بالغة بالنسبة الينا والى بلادنا . فنحن بعد ما كابدنا أهوالا شدادا

استغرقت مددا طوالا خضنا فى حرب ضروس حررنا بها بلادنا وأنقذناها من مخالب العبودية والاستعمار القديم المباشر واستردنا حريتنا واستقلالنا لقاء تضحيات جسام وأنهار من دماء شهدائنا الابرار ، أما الآن بعد ما تخلصنا من التبعية البغيضة وهيمنة الاجنبى الدخيل وصار لنا صوت مسموع فى كل بقاع المعمور فيجب أن نعيد النظر فى تاريخ بلادنا ونبدأ كتابته من الصفر بأسلوب حديث على ضوء منهجية سليمة صحيحة . والعناية بتاريخنا معناها النظر الى ماضينا المجيد والتعرف عليه واستخلاص العبر منه . والكشف من خلاله عن هويتنا وانيتنا وأصالتنا وشخصيتنا الكوامن فى تضاعيف تراثنا وتقاليدنا .

ووعينا بوضعنا أمس يضىء لنا السبيل للتعرف على معطيات وجذور وضعنا الراهن الذى نعيشه والذى ينبغى أن نسعى بخطى حثيثة لتحسينه وترقيته وتحليته بانجازات حصيفة وأمجاد طريفة بعد تخليته من التقاليد البالية والقيم السلبية والرواسب المشوهة والشوائب الموهة .

وقد أصاب بعض الباحثين فى اشارته الى : « أن لنا ـ علاوة على الواقع الانسانى الذى نشارك فيه ـ واقعنا الخاص » .

وفى هذا الواقع يطل علينا التاريخ من نوافذ متعددة فنلقاه أينما التفتنا أو توجهنا. نلقاه فى خضم هذه الهبة القومية التى تدفعنا الى اقامة حياة جديدة والتى تدعونا فى الوقت ذاته الى أن نستلهم الماضى ونستمد منه عناصر القوة والفخر والاعتزاز . ان هذا العود الى التاريخ طبيعى فى كل آن ومكان ولكنه يشتد بصفة خاصة فى عهود النهضات القومية عندما تهب الشعوب لتنشد الوحدة والقوة . فتجد أن من أهم مقومات وحدتها تقاليدها الماضية وأمجادها وبطولاتها السالفة . فتعود الى هذه الامجاد والتقاليد ويعيدها اليها قادتها وموجهوها لتتقوى بها ولتفيد منها العضد المعنوى والروحى فى نهضتنا المتوثبة وفى سعيها لبناء حياتها القومية الجديدة .

فما دمنا نعود الى تاريخنا وما دمنا نستلهمه ونستوحيه فمن الخير لنا أن تكون عودتنا عودة أصيلة متبصرة يهديها العقل ويوضحها فهم « صادق العلاقة ماضينا بحاضرنا

ومستقبلنا ، وتمييز دقيق بين عناصر تراثنا المختلفة بين تلك التي يجب أن نحرص عليها ونبني على أساسها وتلك التي ينبغي أن نطرحها جانبا ونتخطاها الى ما هو أفضل وأبقى . وما دمنا مدفوعين الى وعي تاريخي فليكن هذا الوعي صحيحا متفتحا مستنيرا كي يكون لنا مصدر قوة دائمة وعاملا من عوامل البناء والانتاج والابداع » .

وكتابة التاريخ أمر صعب المراس لكثرة المشاكل المحيطة بالقضايا التاريخية . فالمؤرخ كثيرا ما يعنى بتسجيل التفاعلات المتشابكة التي مسرحها الحياة الاجتماعية المعقدة المتأرجحة بين منطق العقل ومنطق الواقع والحياة . فعلى الرغم من كثرة المصادر والوثائق التاريخية ما أكثر ما يقف المؤرخ أمام الحوادث موقف الحائر المتردد بسبب صمت الوثائق والمستندات ونقصها ، مع أن على المؤرخ أن يضطلع بالمسؤولية الملقاة على عاتقه وهي مسؤولية التفسير والتوضيح ، ماذا عسى أن يصنع وكثيرا ما تكون حلقات الاتصال وهمزات الوصل بين الاحداث مفقودة ؟ لذلك يضطر المؤرخ الى التفكير الطويل والنظر المستأني لعله يهتدي الى خيط الاتصال والى تفسير للحوادث متلائم تلاؤما قويا أو ضعيفا مع المنطق والواقع والحياة . ذلك ما وقع أكثر من مرة للدكتور حاجيات في تأليف كتابه ، فترجمة أبي حمو الثاني وتفسير ما يكتنفها من غموض وظروف وملابسات يستلزم ذلك كله حتما التغلب عليه بالاطلاع الدقيق على تاريخ المغرب الاوسط قبل عصر أبي حمو الثاني بشكل عام وعلى تاريخ الدولة العبد الوادية منذ نشأتها حتى عصر هذا الامير بشكل خاص ، فعلى المؤرخ أن يعرض الحوادث عرضا متسلسلا تسلسلا منطقيا متلائما منسجما متكاملا بعضه مع بعض .

لذلك يقف المؤلف في كتابه موقف الحذر المتشكك من بعض القضايا التي تعرض له . فيعالجها ويناقشها ويبدي فيها رأيه بكل حذر واحتياط وتبصر وتواضع . من أمثلة ذلك مزاعم المؤرخين بصدد رجوع أبي حمو وأبيه أبي يعقوب يوسف من فاس واستقرارهما في ندرومة، يرى المؤرخون القدامى ـ ومنهم عبد الرحمن بن خلدون وأخوه يحيى ـ أن ذلك وقع لرغبة أبي يعقوب في الزهد في الدنيا وملذاتها . ولم يقنع قول المؤرخين هذا المؤلف الذي وقف منه موقف الحذر المتشكك ونظر الى هذا الامر من جوانب شتى وأبدى فيه رأيه على ضوء ما أملاه عليه منطق الظروف والملابسات

المحيطة بالخبر . فانقطاع أبى حمو وأبيه الى العبادة والزهد بندرومة كان يهدف فى نظر المؤلف الى الاعراب عن خلو ذهنهما من كل طموح سياسى مما يطمئن أبا سعيد وأبا ثابت الجالسين على عرش تلمسان آنذاك . ولا يعقل عند المؤلف أن يغادر أحد الامراء عاصمة الدولة للانزواء بعيدا عنها فى قرية أو مدينة صغيرة من دون سبب قاهر . ومنها أن أبا ثابت الزيانى لما انهزم أمام الجيش المرينى فى أنجاد وشلف وفر هو ومن معه الى ناحية بجاية وألقى عليه القبض يدعى يحيى بن خلدون أن أبا حمو كان معه وأنهما لما سئلا : « من السلطان أبو ثابت منكم ؟ » أجاب أبو حمو : « أنا » فاديا عمه أبا ثابت بنفسه . وقد بين المؤلف وجه الصواب فى هذه القضية بالاستناد الى أقوال المؤرخين الدالة على أن أبا حمو لم يذكر مؤرخ يوثق بقوله أنه كان مع عمه لما ألقى القبض على هذا الاخير ، وأن يحيى بن خلدون لم يحاول التأكد من صحة الخبر وأن عبد الرحمن أخاه يظهر أنه لم يقتنع بصدق هذه القصة ولم يذكر أبا حمو من بين الاشخاص الذين ألقى عليهم القبض وأنه أرتأى أن الحكاية أقرب الى الخيال والاسطورة منها الى الحقيقة التاريخية . (ص 73 وما بعدها) .

يقول المؤلف : « والذى نراه أن البحث فى هذا المجال لا يقتصر على فحص ما أورده المؤرخون من الاخبار . وانما يقتضى معالجة الموضوع من زاوية أوسع . وذلك بالالتفاف الى المعطيات النفسية المحيطة بهذا الحادث والى ما يمكن افتراضه من دوافع وعوامل للدور الحقيقى الذى قام به كل من أشخاص القصة » .

ويقول أيضا : « وعلى كل فلسنا نرى أن عواطف أبى حمو نحو عميه الاميرين كانت قوية الى درجة أن يقدم نفسه فداء لاحدهما . بل نعتقد أن العلاقات بين أبى يعقوب وأخويه لم تكن طيبة الى حد يجعل أبا حمو يضحى بحياته لاجل عمه أبى ثابت » ص 78 ـ 79 .

ولشخصية أبى حمو الثانى منزلة عالية تمتاز بالخصب والثراء وتزدان بمواهب شتى . فقد اجتمع فيها ما لا يجتمع الا نادرا فى نفوس الامراء والملوك ورجال الدولة الممارسين للشؤون السياسية والاجتماعية المهيمنين على مقاليد البلاد والعباد . فقد كان أبو حمو الثانى أميرا بارعا محنكا وفارسا مغوارا وأديبا موهوبا وكاتبا بليغا

وشاعرا مبدعا أصيلا بالاضافة الى أنه كان يقظا صابرا عظيم القدرة على الاحتمال رابط الجأش وملكا « موصوفا برجاحة وسداد » . وكان من النابغين الافذاذ الذين جمعوا فى تاريخ المغرب بين الامارة والموهبة الادبية والشعرية أو بين دولتى السيف والقلم . وما أقل ما تجتمعان عند شخص واحد . والادب العربى يتحلى بطائفة من الامراء الشعراء . ومن أنبههم عبر العصور امرؤ القيس الكندى وابن المعتز العباسى وأبو فراس الحمدانى .

ومن أشهرهم فى الاندلس الامير الاسير والشاعر القدير المعتمد ابن عباد . ومن أمراء الشام الشاعر المبدع والبطل المغوار أسامة بن منقذ صاحب كتاب « الاعتبار » . ومن الشعراء الامراء فى الجزائر الامير عبد القادر .

والجدير بالذكر أن المؤلف درس شعر أبى حمو دراسة جيدة على قصرها . فيها نقد وتقويم لشعر الامير العبد الوادى الجارى على عروض الخليل وعلى عمود الشعر القديم فى الشكل والمضمون على أن شعر أبى حمو الثانى تكثر فيه مظاهر الاصالة والنبوغ وينتمى أكثره الى الشعر الجيد الجميل ذى الاسلوب الرصين والتعبير البليغ . على أن أغراضه اغراض الشعر العمودى . فيه الوصف والغزل وفيه الفخر والحماسة والرثاء وأساليبه وتعابيره وفنونه تقليدية . وربما يعارض أبو حمو بعض الشعراء القدامى على نحو ما نرى فى قصدته البائية ص 323 . فأول ما يلفت انتباه القارىء فيها تأثر ناظمها بقصيدة أبى تمام التى مدح فيها المعتصم العباسى وذكر فتح عمورية ـ قال أبو تمام :

السيف أصدق انباء من الكتب	فى حده الحد بين الجد واللعب
بيض الصفائح لا سود الصحائف فى	متونهن جلاء الشك والريب

وقال أبو حمو :

السيف أجدر والحطى من خطب	فيها اللجاج وقول غير منتسب
خط الكتائب لا خط الكتاب بها	جلية الامر عند السمر والقضب

نرى هنا أن الامير الزياني متأثر تأثرا عميقا بشعر أبي تمام ، وأن نزعة الاحتذاء في شعره صارخة . فقد عارض أبو حمو الشاعر الشرقي بقصيدته واحتذاه في أشياء شتى : في بحر القصيدة وقافيتها وتصميم البيتين والاسلوب في التعبير وفي المحسنات البديعية . وكثيرا ما يستعمل أبو حمو ذات الالفاظ والمواد كلفظ السيف وجلاء وجلية واستعمال اسم التفضيل : أصدق وأجدر وتماثل البيتين تام :

السيف أصدق انبـــاء من الكتب بيض الصفائح لا سود الصحائف

في حـــده الحـــد ـ فيها اللجاج

السيف أجدر والخـطى مـــن خطب خـــط الكتائب لا خـــط الكتاب

وقد لاحظنا أثناء مطالعتنا للكتاب هنا نذكر طرفا منها :

عرف المؤلف ص 46 التعاليم بأنها العلوم العقلية والطبيعية . وهذه قضية تحتاج الى بيـــان أكثر لان العلـــوم العقلية تشمل ـ عند عبد الرحمن بن خلدون ـ المنطـق والطبيعيات والالهيات والتعاليم . وعلوم التعاليم بدورها تشمل ـ عنده أيضا ـ أربعة علوم . قال ابن خلدون في المقدمة : والعلم الرابع وهو النظر في المقادير ويشتمل على أربعة علوم وتسمى التعاليم . أولها علم الهندسة ، وهو النظر في المقادير على الاطلاق ... وثانيها علم الارتماطيقي ... وثالثها علم الموسيقى ، وهو معرفة نسب الاصوات والنغم بعضها من بعض وتقديرها بالعدد ... ورابعها علم الهيئة . وهو تعيين الاشكال للافلاك وحصر أوضاعها وتعددها لكل كوكب من السيارة . (6)

وعبارة « التعاليم » هذه قديمة استعملها ابن النديم (348 ـ 438) في القـــرن الرابع الهجرى في كتابه الفهرست الذى ألفه في شبابه سنة 377 هـ . وهو يتحدث فيه عـن « أخبـــار اصحـــاب التعاليم المهنـــدسين والارتماطيقيين والموسيقيين والحســـاب والمنجمـــين . (7)

وقال المؤلف صفحة 173 : « ومن نظمه (أبو عبد الله الثغرى) في وصف تلمسان :

قـــم فاجتل زمن الربيع المقبل ... » .

فى هذا خطأ من حيث العروض . وبيان ذلك أن وزن عبارة « قم فاجتل » مستفعل . دخل الاضمار والكف على متفاعلن فصارت مستفعل . وهذا لا يجوز عند العروضيين ، ومحمد بن يوسف الثغرى شاعر كبير لا يرتكب مثل هذا الخطا . ولعل الصواب كامن فى الرواية التى ذكرها أحمد المقرى فى النفح (8) وهى « قم مبصرا » بدل «قم فاجتل» . ونحن يغلب على ظننا أن الشاعر قال : « قم تجتلى » فحرفها النساخ الى : «قم فاجتل» .

وقد استعمل المؤلف فى أكثر من مكان من كتابه عبارة « ينبغى على » وهذا خطأ شاع فى هذا العصر على ألسنة الكتاب . والصواب أن يقال : ينبغى لفلان أن يعمل كذا = يحسن به . وما ينبغى لفلان أن يفعل كذا = لا يليق به ولا يحسن منه . وفى الكتاب : « ما كان ينبغى لنا ان نتخذ من دونك من أولياء » .

ذكر المؤلف ص 194 ـ 387 كتاب ابن ظفر الصقلى بعنوان : « سلوان المطاع » وكان ينبغى له أن يذكر اسم الكتاب كاملا . وهو سلوان المطاع فى عدوان الاتباع .

وفى الكتاب دراسة لكتاب واسطة السلوك فى سياسة الملوك لابى حمو بدأها المؤلف بالكلام على طائفة من الكتب فى ذات الموضوع وهو فن الادارة والسياسة ، وقد لاحظنا أن دراسة المؤلف لواسطة السلوك هى مقتضبة أكثر مما ينبغى لان الكتاب يستحق أن يعني به عناية خاصة لان أبا حمو أمير ورجل سياسي قبل أن يكون شيئا آخر . فالسياسة تحتل فى حياته المقام الاول وموضوع كتابه السياسة ولا سيما أن أبا حمو ألف كتابه بعد رجوعه من الشرق وجلوسه على عرش آبائه وأجداده فى حاضرة تلمسان بعد سنة 760 هـ .

وقد ذكر المؤلف كتبا شتى من نوع واسطة السلوك . ولكنه فاته أن يذكر تآليف عدة فى موضوعه . منها :

كتاب سلوك المالك فى تدبير الممالك لاحمد بن محمد بن أبي الربيع (218 ـ 272هـ) . ولابى زيد البلخى (235 ـ 322 هـ) ، كتاب السياسة الكبير وكتاب السياسة الصغير وكتاب أدب السلطان والرعية . وللماوردى (364 ـ 450 هـ) ، علاوة على الاحكام السلطانية كتاب نصيحة الملوك وكتاب تسهيل النظر وتعجيل الظفر فى السياسة

والحكومة ، وكتاب قانون الوزارة ، وكتاب سياسة الملك . ولابى يعلى الحنبلى (380 ـ 458 هـ) ، كتاب الاحكام السلطانية . وللسان الدين بن الخطيب كتب شتى من هذا القبيل . منها كتاب بستان الدول فى السياسة والانظمة الادارية والاجتماعية والحربية ، قال عنه مؤلفه انه يشتمل على شجرات عشر :

شجرة السلطان ، وشجرة الوزارة ، وشجرة الكتابة ، وشجرة القضاء ، وشجرة الشرطة والحسبة ، وشجرة العمل وشجرة الجهاد وهى فرعان أسطول وخيول ، ثم شجرة الرعايا ، وهكذا . وبرنامجه صورة بستان ـ وله أيضا الارجوزة فى السياسة المدنية ، وله ريحانة الكتاب ونجعة المنتاب فى عدة مجلدات وهو مشتمل على أغراض شتى من مخاطبات الملوك على اختلاف أجناسهم وأحوالهم وأحوال الكبراء ومخاطباتهم . حتى ملوك النصارى . يقول عنه المقرى انه كتاب مفرد فى بابه ، وله رسالة السياسة . وهى مقامة بطلها شيخ يتلو حكمة سياسة الرعية بحضرة الرشيد العباسى . وهى بأكملها فى نفح الطيب . وتشغل فيه 15 صفحة ، وله كتاب الاشارة الى آداب الوزارة .

والحاصل أن المؤلف قد أبلى البلاء الاوفى فى تاليف كتابه ولم يكن يستطيع أن يجمع هذا المقدار الكثير من الاخبار والمستندات التاريخية ويؤلف منها كتابا مفيدا مخططا تخطيطا دقيقا لو لم يقض وقتا طويلا فى البحث عن الاخبار والتنقيب عنها فى مظانها من بطون المصادر والمراجع وتمحيصها ونقدها وتمييز غثها من سمينها . فقد قام المؤلف برحلات شتى للبحث عن الكتب المطبوعة ولا سيما المخطوطة منها . ومن أهم رحلاته سفره الى باريس والى المغرب الاقصى علاوة على البحوث التى قام بها فى مكتباتنا المحلية فى الجزائر وتلمسان .

ومطالع كتاب « أبو حمو موسى الزيانى حياته وآثاره » يطالعه بشوق بالغ ولا يشعر بالملل بل تستهويه فيه محاسن شتى تدعوه لمطالعته وتكمن فى مضمونه الشهى المفيد وفى شخصية أبى حمو الثانى الثرية الخفيفة الروح وفى الاسلوب الممتع الرصين الذى صيغ فيه هذا الكتاب وفى طبعه الرائق الجميل .

وأخيرا نقترح على المؤلف الفاضل أن يفكر فى اثراء كتابه بعناصر جديدة وأبعاد طريفة وأن يضع فهارس تيسر الانتفاع به وأن يعمق دراسة جوانب شتى من شخصية أبى حمو الثرية ما يزال الظلام يغمرها فما أحقها بان تسلط عليها أضواء أكثر ، فللأمير الشاعر ديوان حافل بالشعر المعبر الجميل . وله أسلوبه العبقرى فى التعبير الوجدانى عن تفاعلاته مع نفسه ومع العالم والمجتمع ، وثم نقاط استفهام ومعادلات سياسية وتاريخية وجمالية لا تزال فى حاجة ملحة الى مزيد من التفسير والتنوير .

مـــلاحق بيبليوغرافية

(1) انظر فى أبى حمو موسى الثانى ٠

1 ـ أبو حمو موسى الزيانى ٠ حياته وآثاره ـ د ٠ عبد الحميد حاجيات ٠

2 ـ ازهار الرياض ـ أحمد المقرى ـ انظر فهرست الاعلام فى الجزئين الاول والثانى٠

3 ـ بغية الرواد ـ يحيى بن خلدون ـ الجزء الثانى ٠

4 ـ تاريخ الادب الجزائرى ـ محمد الطمار ـ ص 155 وما بعدها ٠

5 ـ تاريخ الجزائر العام ـ عبد الرحمن الجيلالى ـ 2/156 ٠

6 ـ التعريف بابن خلدون ـ عبد الرحمن بن خلدون ـ ص 96 ٠

7 ـ دائرة المعارف الاسلامية ـ المادة ـ أبو حمو الثانى ٠

8 ـ كتاب العبر ـ عبد الرحمن بن خلدون ـ الجزء السابع أنظر الفهرست ٠

9 ـ معجم المطبوعات ـ سركيس ـ القاهرة 1928 ٠ ص 113 ٠

10 ـ نفح الطيب 9/327 ـ 337 ٠

11 ـ واسطة السلوك ـ أبو حمو الثاني ـ أنظر مقدمته ٠

(12) Ibn Khaldoun : *Histoire des Berbères.* Traduite de l'arabe par le Baron de Slane, Genthner Paris, 1969 - T. 3, p. 436 et suivantes.

(2) انظر في يحيى بن خلدون وكتابه بغية الرواد ٠

1 ـ ابن حزم الاندلسى ـ بنو خلدون الاشبيليون أجداد عبد الرحمن بن خلدون وأخيه يحيى في جمهرة أنساب العرب ـ القاهرة 1962 ، ص 460 ٠

2 ـ دائرة المعارف الاسلامية ـ مادة ابن خلدون يحيى ـ بقلم ألفرد بـــل ـ عبد الرحمن بن خلدون ٠

3 ـ التعريف بابن خلدون ، ص 97 ـ وانظر فهرست الاعلام ـ ص 406 ٠

4 ـ المقدمة تحقيق ـ د ٠ على عبد الواحد وافى ـ الطبعة الثانية القاهرة، 1965 ـ 1968 1/ص 39 وما بعدها ٠

5 ـ يوسف اليان سركيس ـ معجم المطبوعات العربية والمعربة القاهرة 1928 ـ ص 97٠

6 ـ مجلة الاصالة العدد 13 ـ مارس ـ أفريل 1973 ـ ص 213 ـ 222 مقال محمـــود بوعياد : من آثارنا المغمورة ـ بغية الرواد فى اخبار بنى عبد الواد ٠

7 ـ مجلة الاصالة ـ العدد 26 ـ جوليت ـ أوت 1975 ، مقال الدكتور عبد الحميـد حاجيات ، ص 151 ـ 152 ٠

8 ـ مجلة المجمع العلمى العربى ، 9/314 ٠

(9) Brock 2 : 312 (241), S. 2 : 340.
(10) Bargès : *Complément de l'histoire des Beni Zeiyan.* Paris 1887, p. 205.

(3) اعتمد المؤلف في بحثه على أربعة مصادر رئيسية : كتاب العبر لعبد الرحمن ابن خلدون ، وبغية الرواد لاخيه يحيى ، وعلى مخطوطين نظم الدر والعقيان ، للتنسي وزهر البستان لمؤلف مجهول ٠

كتاب العبر ـ يشتمل على سبعة مجلدات في طبعة بولاق (1868) ٠ تشغل المقدمة التي تدرس ظواهر الاجتماع مجلدا واحدا وتشغل البحوث التاريخية الخالصة المجلدات الستة الباقية ٠ أما المجلدات الاربعة من المجلد الثاني الى الخامس فتشتمل على : « أخبار العرب وأجيالهم ودولهم ٠٠٠ وفيها الالماع ببعض من عاصرهم من الامم والدول مثل النبط والسريانيين والفرس وبني اسرائيل والقبط واليونان والروم والترك والافرنجة » ٠ اما المجلدان السادس والسابع فقد وقفهما على : « تاريخ البربر ومن اليهم من زناتة وذكر أوليتهم وأجيالهم وما كان لهم بديار المغرب خاصة من الملك والدول » ٠ أو بعبارة أخرى وقفهما على ما يدعى الآن بشمال افريقية منذ نشأة شعوبها حتى عصر ابن خلدون ٠

ويعد القسم الخاص بتاريخ البربر أقوى الاقسام أصالة وأكثرها تحقيقا وتجديدا وطرافة معا ٠ وأكبرها فضلا على بحوث التاريخ ٠ وذلك أن معظم ما جاء في هذا الكتاب لم ينقل عن مراجع مدونة وانما سجله ابن خلدون نفسه لاول مرة من مشاهداته في أثناء اتصاله بمختلف قبائل البربر وتنقله بين دول المغرب ولذلك كان كتابه هذا أهم مرجع للباحثين في تاريخ هذه الدول والشعوب في العصور التي يتحدث عنها ٠ ولعظيم أهميته كان أول قسم ترجم الى لغة أوروبية ترجمة كاملة ٠ نقله ده سلان الى الفرنسية ونشره في الجزائر في السنوات 1852 ـ 1854 ـ 1856 ـ 1856 في أربعة مجلدات ٠ وأعيد طبعه في باريس في السنوات 1925 ـ 1927 ـ 1934 ، أعيد طبع ثلاثة مجلدات من أربعة ٠ وأعيد طبع المجلدات الاربعة : الاول في 1968 والثاني والثالث والرابع في 1969 ـ واعتمد ده سلان في ترجمته على النص العربي لتاريخ البربر الذى نشره في باريس سنة 1847 ـ 1850 في مجلدين كبيرين في نحو ألف صفحة كبيرة وسماه كتاب الدول الاسلامية في المغرب ٠ والجدير بالذكر أن ده سلان ضم الى الترجمة ملاحظات وتعاليق مفيدة وتفاسير ضرورية للاعلام البربرية وذيله باخبار عن البربر ترجمها عن غير ابن خلدون ٠ منها فتح المغرب لابن عبد الحكم وفصول للنويرى وأخيرا مقالة في لغة البرابرة ٠ واقتطعوا من التاريخ أيضا الجزء المختص بأخبار بني الاغلب في افريقية وصقلية الى حين استيلاء الافرنج عليها ٠

(4) أنظر في :

التنسي وكتابه نظم الدر والعقيان

1 ـ أزهار الرياض ، أنظر فهرست الاعلام في الجزءين الاول والثاني .
2 ـ الاعلام القاهرة 1954 ـ 1959 116/7 .
3 ـ البستان ـ الجزائر ـ 1908 ـ ص 248 .
4 ـ تعريف الخلف برجال السلف ـ الجزائر 1907 161/1 .

5 ــ تاج العروس ــ مادة تنس .
6 ــ دائرة المعارف الاسلامية ــ مادة التنسى ، بقلم ليفى بروقنصال .
7 ــ شجرة النور الزكية القاهرة 1349 هـ ص 267 .
8 ــ الضوء اللامع ــ محمد بن عبد الرحمن السخاوى 8/120 ــ بيروت بلا تاريخ .
9 ــ نيل الابتهاج ــ القاهرة 1351 هـ .
10 ــ مقال الدكتور مولاى بلحميسى فى مجلة تاريخ وحضارة المغرب العدد 5 ص 30 ــ 34
كلية الآداب ــ الجزائر 7/1968 .

(11) L'Abbé Bargès : *Histoire des Beni Zeiyan, rois de Tlemcen.* Paris 1852.

(12) Ben Cheneb : *Etude sur les personnages mentionnés dans l'Idjâza du cheikh Abdelkader El-Fasy.* Extrait du tome IV des actes du XXIe congrès international des orientalistes 1 vol. in 8°, Paris, 1907, p. 154.

(13) Brock. S. 2 : 241.

(5) أنظر فى زهر البستان فى دولة بنى زيان مقال محمود بوعياد بعنوان : مخطوطات لم تكتشف : زهر البستان فى دولة بنى زيان ، مجلة الثقافة العدد 13 فيفرى ــ مارس 1973 ص 55 ــ 66 .

(6) مقدمة ابن خلدون تحقيق د. على عبد الواحد وافى الطبعة الثانية ، 3/ص 1219 .

(7) الفهرست لابن النديم ص 265 .

(8) نفح الطيب 9/332 .

مصـــادر ومــراجع

1 ــ أحمد المقرى ــ نفح الطيب ــ تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد • القاهرة 1949 الجزء 9 ص 327 ــ 337 •

2 ــ جرجى زيدان ــ تاريخ آداب اللغة العربية ــ تحقيق شوقى ضيف القاهرة 1957 • الجزءان الثانى والثالث •

3 ــ خير الدين الزركلى ــ الاعلام ــ القاهرة 1954 ــ 1959 •

4 ــ عبد الرحمن الجيلالى ــ تاريخ الجـــزائر العـــام ــ الجزائر 1955 ــ الجزء الثانى • ــ عبد الرحمن بن خلدون •

5 ــ المقدمة ــ تحقيق د. على عبد الواحد وافى ــ الطبعة الثانية القاهرة 1965 ــ 1968 .

6 ــ التعريف بابن خلدون ــ تحقيق محمد بن تاويت الطنجى ــ القاهرة 1951 •

7 ــ عادل نويهض ــ معجم أعلام الجزائر بيروت 1971 •

8 ــ قسطنطين زريق ــ نحن والتاريخ ــ الطبعة الثانية ــ بيروت 1963 •

9 ــ المجانى الحديثة ، الجزء الثالث فى العصر العباسى ــ بيروت ، 1948 •

10 ــ مجلة الاصالة العدد 27 ــ سبتمبر ــ أكتوبر 1975 •

(11) Henri pérès : *Essai de bibliographie sur la vie et l'œuvre d'Ibn Khaldoun.*

(12) Ibn an-Nadim : *Kitab Al-Fibrist.* Publié par Gustav Flügel, Leipzig, 1871.

نظم الدر و العقيان
في بيان شرف بني زيان

محمود بوعياد
مدير المكتبة الوطنية

ملخص الرسالة :

يعتبر المؤرخ والاديب محمد بن عبد الله التنسى المتوفى سنة 899 هـ/1494 م من الاعلام البارزين الذين أنجبتهم تربة المغرب الاوسط فى العصور السالفة وتناساهم لسبب أو لآخر - ابناء العصر الحاضر وغمطوهم حقهم ، فلم يحظ هذا المؤرخ حتى أيامنا هذه بدراسة ذات بال • ولم يلتفت الباحثون المعاصرون الى أى أثر من آثاره ليحققوه ويضعوه بين أيدى الدارسين وجمهور المثقفين المتعطشين الى معرفة ماضى بلادهم وحياة من ساهموا فى تكوين ثقافة هذا الوطن •

ومع أن هذا العالم قد خطى بمكانة مرموقة بين معاصريه فى القرن التاسع وكذلك عند من تبعهم من أهل العلم فى القرنين التاليين ، فان المؤرخين المعاصرين من أبناء وطننا لم يعرفوه الا بفضل ترجمة باللغة الفرنسية لقسم من كتابه « نظم الدر

والعقيان ٠٠٠ » ومن هذه الترجمة استمد هؤلاء المؤرخون ما انفرد به التنسى من أخبار عن ملوك المغرب الاوسط من بنى زيان ٠ وكانت غزارة اطلاعه فى العلوم الدينية من أهم أسباب شهرته اذ اثنى عليه معاصروه لوفرة معارفه فسموه بالحافظ التنسى ٠ كما أن المترجمين له أشادوا بطول باعه فى الادب واللغة والتاريخ ٠ وقد بدا تشعب معارفه وغزارتها وتجلت مواهبه الادبية فى ذروتها حينما ألف كتابه « نظم الدر والعقيان فى بيان شرف بنى زيان » ، وهو أشهر كتبه كما سنرى ٠

أسباب الاختيار :

وقد لفت نظرى الى أهمية هذا الاثر ، وأنا بعد فى التعليم الثانوى ، تقريظ أحد الاساتذة له وقوله انه عازم على تحقيقه ٠ ومرت الايام والكتاب قابع فى زاوية مظلمة من زوايا المكتبات ٠ وقد كان الدافع الاول لاختيارى تحقيق هذا الاثر ، تكوينى الجامعى فى التاريخ ومزاولتى للعمل فى المكتبات منذ أكثر من ثلاث وعشرين سنة وبالتالى احتكاكى المباشر والدائم بالمخطوطات فى تلك المدة كلها ٠

وكان العامل المباشر الذى جعلنى أختار هذا الموضوع بعينه هو أهمية ما كتب التنسى عن بنى زيان ، فان كتابه مصدرنا الوحيد كما سنرى لاكثر من سبعين سنة من تاريخ الدولة التى أسسها يغمراسن بن زيان فى المغرب الاوسط ٠

ولم يقتصر كتاب التنسى على التاريخ وانما ضم الى ذلك قسما كبيرا فى الادب اذ قسم كتابه الى قسمين متعادلين : الاول فى التاريخ والثانى فى الادب ٠

وقد احتوى القسم الادبى الذى مازدت على أن حللت مضمونه على أدب مشرقى معروف جاء على غرار الموسوعات الادبية المتداولة بين الناس ٠

ومن أهم أبواب القسم الاول وهو محور الرسالة الباب الخاص بتاريخ بنى زيان الا أن المؤلف قد قدم له بأبواب أخرى خصصها لاخبار اسلافهم حسبما ذهب اليه ٠

ومما هو جدير بالملاحظة أن التنسى قد ساهم فى تخليد تلك الاسطورة التى جعلت بنى عبد الواد أو بنى زيان كما يسمون أيضا من سلالة فاطمة الزهراء ، فكتب عن قريش ، وآل البيت وعن على بن أبى طالب وعن ابنيه الحسن والحسين الى أن وصل

الى تاريخ الادارسة الذين جعل بنى زيان من سلالتهم ، وقد ضم الباب الخاص ببنى زيان أهم الاحداث فى تاريخ دولتهم ابتداء من الفترة التى سبقت سقوط الدولة الموحدية فى النصف الاول من القرن السابع الى ان ينتهى بعهد السلطان المتوكل معاصر التنسى فى النصف الثانى من القرن التاسع • ومن بين أبواب هذا الكتاب الضخم وقع اختيارى على الباب الخاص بتاريخ الدولة الزيانية ، فاقدمت على تحقيق نصه والتعليق عليه منفردا لانه من ناحية ، اطول وأهم قسم فى الكتاب ، ولان ما سبقه من تاريخ لم يأت بجديد يستحق على ما أرى ، ما يتطلب من جهود لاخراج نصه ومقابلته بأمثاله من كتب التاريخ • وهذا الباب من ناحية أخرى ، وحدة متماسكة الاطراف يتيسر فصلها عن باقى الكتاب ، أى عما تلاه من أبواب فى الادب والملح ، والنوادر ، وأيضا عما سبقه من تاريخ •

وحتى يسهل استعمال هذا المصدر التاريخى قدمت له بدراسة ضافية عن المؤلف وعصره •

أقسام الرسالة

فجاءت الرسالة مقسمة الى قسمين :

القسم الاول خاص « بالتنسى وآثاره » ويتكون من بابين الاول منهما **موضوعه** عصر التنسى ويحتوى على ستة فصول هى على التوالى :

أولا : الحياة السياسية •

ثانيا : نظم الدولة الزيانية •

ثالثا : الحياة الاقتصادية •

رابعا : الحياة الاجتماعية •

خامسا : الحياة الفكرية بما فيها الحياة الدينية •

سادسا وأخيرا : الحياة الفنية •

وقد بينت على الخصوص فى هذه الفصول أن الحياة السياسية فى المغرب الاوسط قد امتازت فى عصر التنسى بتدهور الدولة الزيانية وتسرب الضعف الى أكثر مرافق الحياة فيها رغم وجود بعض الملوك ممن اعادوا بسالة أجدادهم فى الدفاع عن كيان القطر . وقد بينت أيضا أن وحدة شعب المغرب الاوسط قد تمت فى العهد الزيانى وذلك بامتزاج عناصره وبانتشار الحضارة الاسلامية فى أوساطه المختلفة وكذلك باتخاذه اللغة العربية لغة للتخاطب فى أغلب المدن والسهول ولغة للكتابة لافراد الامة كلهم مهما كان مستواهم الثقافى ومهما كان موقع سكناهم .

ومع أن هذا العصر قد حظى بظهور عدد من كبار العلماء ، فان الثقافة كانت تحمل فى ثناياها عوامل التدهور والانحطاط لان البحث العلمى لم يكن موجها الى المستقبل والى الابتكار والاجتهاد ، بل كان كله تقديسا للماضى وتقليدا لانتاج السلف . فقلما خلف علماء العصر مؤلفات مبتكرة بل كرسوا جهودهم لشرح آثار القدامى وتلخيصها والتعليق عليها .

وتعرض **الباب الثانى** من هذا القسم الى « حياة التنسى وآثاره » وهو مقسم الى فصلين : الاول فى حياته وقد تحدثت فيه على التوالى عن مولده ونسبه ووفاته ثم عن شيوخه وتكوينه وتلاميذه وأخيرا عن منزلته بين معاصريه ، وأود أن أنبه الى أن التنسى رغم المنزلة المرموقة التى احتلها بين معاصريه وتردد اسمه فى كتب المتأخرين مثل « نفح الطيب » و « أزهار الرياض » لمواطنه أحمد المقرى الذى سماه « بشيخ شيوخ شيوخنا » وورود ترجمة قصيرة له فى بعض كتب التراجم مثل « نيل الابتهاج » لاحمد بابا التنبكتى و « البستان فى ذكر الاولياء والعلماء بتلمسان » لمحمد بن مريم ، فاننا لا نعلم الا النزر اليسير عن حياته . وما سقته من معلومات فى هذا الفصل حصلت على أكثره من تراجم بعض معاصريه ومن كتب مختلفة . وقد لجأت أحيانا للتخمينات والمقارنات والاستنتاجات .

وقد حللت فى الفصل الثانى آثار التنسى التى وصلتنا وتحدثت عن الكتب التى توفرت لدينا المعلومات عنها ولم تصلنا .

وأولها « الطراز فى شرح الخراز » وهو شرح لقسم من أرجوزة فى ضبط القرآن تحمل العنوان التالى : « مورد الظمآن فى رسم القرآن » لناظمها أبى عبد الله محمد الشريشى الشهير بالخراز ، وما زال هذا الكتاب مخطوطا ٠

والكتاب الثانى هو « راح الارواح فيما قاله المولى أبو حمو من الشعر وقيل فيه من الامداح ، وما يوافق ذلك على حسب الاقتراح » وهذا الكتاب فى حكم المفقود ٠ وقد نقل المقرى قطعة منه فى « نفح الطيب » وفى « أزهار الرياض » ٠

الاثر الثالث ليس فى الحقيقة كتابا ٠ فهو حسب تعبير من ترجم للتنسى ، « جواب مطول » فى قضية دينية وسياسية فى الوقت نفسه اثارها مواطن التنسى ومعاصره محمد بن عبد الكريم المغيلى فى ناحية توات من جنوب القطر ٠ وقد أورد الونشريسى فى « المعيار » هذه الفتوى الطويلة للتنسى كما أورد له فتاوى أخرى أيضا ٠

أما الاثر الرابع فهو كتاب « نظم الدر والعقيان فى بيان شرف بنى زيان ٠ وذكر ملوكهم الاعيان ، ومن ملك من اسلافهم فيما مضى من الزمان » ، وقد فضلت تناول هذا الكتاب بعد المؤلفات السابقة مع أنه أهم آثار التنسى ـ لانه محور هذا البحث كله وكذلك حتى تكون دراستى له وحدة مع النص المحقق الذى يتلوها ، ولم أكتف بتحليل محتوى الكتاب وعرض أبوابه وفصوله كلها ، وانما ركزت اهتمامى على القسم الذى قمت بتحقيقه وهو الباب السابع « فى بيان شرف بنى زيان ، وتتبع دولهم الى دولة مولانا المتوكل فخر الزمان » ٠ وهو أطول باب فى الكتاب ، وأهمها أيضا كما ذكرت منذ قليل ٠ فخصصته بدراسة مفصلة ، متناولا المصادر التى اعتمدها المؤلف لتدوين تاريخ بنى زيان فطريقة تصنيفه للباب ، فالقيمة التاريخية لهذا القسم من الكتاب ثم انهيت الفصل بالكلام عن أسلوب التنسى فى نثره وشعره اذ انه أورد ختاما لهذا الباب قصيدة طويلة له قالها فى مدح السلطان المتوكل وهى اثره المنظوم الوحيد الذى بلغنا ومكننى من دراسة شعره ٠ ورغم أن أكثر المعانى فى هذه القصيدة مبتذلة فقد وجدت أن شعره يتميز بعذوبة الفاظه وبأنغامه الموسيقية الرقيقة وذلك فى عصر ندر فيه من أجاد الشعر ٠

وبما أن هذا القسم من الكتاب هو الذى قمت بتحقيق نصه ، والتعليق على غوامضه لم أر من الضرورى القيـام بتحليل محتـواه بالتفصيل ، فاقتصرت عـلى التنبيه الى مميـزاتـه ٠

جاء هذا القسم من « نظم الدر » على شكل تاريخ مختصر شمل أهم مراحل تاريخ الدولة الزيانية وبدأ المؤلف كلامه بالحديث عن ظروف استيلاء بنى عبد الواد على الحكم بتلمسان وتأسيس يغمراسن للدولة سنة 633 هـ/1236 م ٠ وانهى أخباره فى سنة 868 هـ/1464 م ٠ وان أكبر ميزة لهذا التاريخ هى كونه المصدر العـربى الوحيد لتاريخ دولة بنى زيان فى مدة تزيد على سبعين سنة كانت بدايتها من الفتـرة التى انتهت فيها أخبار كتاب « زهر البستان فى دولة بنى زيان » المجهول المؤلف واخبار « بغية الرواد فى ذكر الملوك من بنى عبد الواد » ليحيى بن خلدون ، وكتاب « العبر » لاخيه عبد الرحمن فى النصف الثانى من القرن الثامن ، وفيما عدا « نظـم الدر » لا يتوفر للمؤرخ مصدر آخر عربى أو أجنبى شامل لاخبار بنى زيان ، لدراسة تلـك الفترة من تاريخ دولتهم وتاريخ المغرب الاوسط ، ومما يسترعى الانتباه أن القسم الخاص بأخبار الفترة التى عاصرها التنسى وانفرد بذكر أخبارها هو فى الوقت نفسه أكثر أقسام الباب افادة ، وأحسنها اتقانا ولا شك فى ان المؤلف قد اعتمد عـلى مشاهداته الخاصة وعلى ما روى له بصفة مباشرة شهود عيان ٠ أما أخبار الفتـرات السابقة لها فان صاحب « نظم الدر » قد استمد مادته لتدوينها من مصادر بعضهـا معروف « كبغية الرواد » أو « زهر البستان » وقد سبق ذكرهما ، وبعضها لم يبلغنا ٠ واذا كان التنسى قد نقل أحيانا نقلا حرفيا من هذه الكتب نراه أحيانا أخرى يفاضل بين روايات المصادر التى استقى منها وينقدها ٠

ومن ميزات هذا الكتاب ذكره فى هذا الباب الخاص بتاريخ بنى عبد الواد لعدة قصائد قالها شعراء مغاربة فى مناسبات مختلفة ٠ وقد انفرد التنسى فى ايراد بعضها منقذا هكذا شطرا من أدب البلاد ٠

وبالاضافة الى هذه المحاسن التى ذكرت بعضها أشـير الى ميـزة أخـرى خاصة بصياغة الكتاب لا بمضمونه ٠ فقد امتاز هذا التاريخ بالوضوح وحسن العرض كما

ان متنه جاء مقسما تقسيما منطقيا بينا زاد من جلائه ، ومثل ذلك يقال عن أسلـوب الكتابة ، فقد امتاز على العموم برصانته وبجودة المعنى والسبك ٠

وفي مقابل هذه الفضائل الكثيرة ، نجد لهذا الباب الخاص بتاريخ ملوك بنى زيان بعض العيوب والنقائص ٠ وأكبر العيوب التى تستوقف نظرنا هى افراط المؤلف فى التملق لبنى زيان ، والمبالغة فى سرد خصال ملوكهم ، ومزاياهم ، وتعمد أغفال ذكر عيوبهم ، وكل ما يسىء بسمعة دولتهم ٠

وكان اثبات شرف بنى زيان من أهم الامور التى تملق بها المؤلف للاسرة المالكة ، وقد جعل بيان هذا الشرف الهدف الاول من تصنيف كتابه مفصحا عن نيته بدءا من العنوان ، فسماه « نظم الدر والعقيان فى بيان شرف بنى زيان ٠٠٠ » كما أن القسم الاول من هذا الكتاب مبنى على تأكيد هذه الفكرة اذ انه بدأ بالكلام عن العرب ثم تدرج الى الكلام عن قريش ثم عن بنى مناف ثم عن بنى هاشم الى أن وصل الى الادارسة الذين جعل بنى زيان من سلالتهم الا أن التنسى لم يتوصل الى اقناعنا بصحة هذا النسب الذى اعتبر جميع بطون بنى عبد الواد من زناتة واستثنى بطنا واحدا وهم بنو القاسم فعده من الاشراف ، والى بنى القاسم هؤلاء قد انتسب ملوك تلمسان ، ومن المعروف ان عبد الرحمن بن خلدون كان قد رفض ادعاء بنى القاسم أو « أيت القاسم » كما سماهم ، فقال ان هذا النسب « لا مستند له » وذلك قبل ان يصنف التنسى كتابه لبيان شرف بنى زيان بأكثر من قرن ٠ وأود أن أنبه الى أن هناك عددا آخر مـن النسابين والمؤرخين بالاضافة الى صاحب « نظم الدر » قد الحقوا ملوك تلمسان بالادارسة ٠ ونذكر منهم المؤرخ لسان الدين بن الخطيب ٠

وقد كانت هذه المغالاة فى المدح والاطراء نتيجة حتمية لوضعية المؤلف لانه كتب « نظم الدر » اعترافا بجميل معاصره السلطان محمد المتوكل، وجزاء على ما أولاه من معروف حسبما ذكر فى مقدمة الكتاب،ولان الظروف التى كتب فيها ما كانت لتسمح له ان يقول كلاما مخالفا لهذا ٠ فاذا كانت الدولة قد ارادت لاسباب سياسية واضحة ان تدعم مركزها فى البلاد بربط نسبها بنسب ادريس وجده الحسن بن على ، فما كان فى امكان التنسى ان يتجاهل هذا الاتجاه الرسمى وبالاحرى ان يخالفه فى كتاب

تاريخى صنفه تقربا للدولة وجزاء للسلطان الزيانى على ما أولاه من معروف • ومما تجدر ملاحظته فى هذا الصدد ان التنسى مع أنه كتب توددا لملوك بنى زيان قد امسك عن الطعن فى اعداء الدولة ومنافسيها ولا حتى بقصد التملق • وهذا خلافا لكثير من مؤرخى الدول المغربية الاخرى •

القسم الثانى : الباب السابع من « نظم الدر »

أما القسم الثانى الذى يضم النص المحقق فهو مقسم الى بابين :

الباب الاول منهج التحقيق : وقد خصصت أولهما لمنهج التحقيق • وبدأت فى الفصل الاول من هذا الباب بعرض النسخ المخطوطة المختلفة « لنظم الدر والعقيان » التى اعتمدتها لتحقيق النص أو حاولت اعتمادها • وهى ثلاثة أنواع : نسخ رئيسية، ونسخ ثانوية ، ونسخ لم أتوصل الى الحصول عليها •

أما النسخ الرئيسية فهى النسخ التى تبين لى بعد فحصها والتنقيب فيها ، انها ستفيدنى فى تحقيق النص ، فاحتفظت بها واعتمدت عليها فى هذا العمل • وهى ثلاث أولها النسخة الاصلية وهى بالاضافة الى معاصرتها للمؤلف نسخة جيدة متقنة • لهذا جعلتها اساسا لتحقيق النص ، وجعلت النسختين الباقيتين رديفا لها • وقد استفدت منهما لمقابلتهما بالنسخة الاصلية •

وهناك نسخ أخرى تبين لى بعد فحصها ومقابلتها بالنسخ الثلاث السابقة ، انها لا تصلح اساسا للتحقيق والنشر ، فلم أر من الصالح أن اثقل على المطلع وأرهقه بتراكم الروايات فى الهوامش من نسخ ملئت بالتصحيف والتحريف والاخطاء النحوية والإملائية • فلم أرجع اليها الا فى القليل النادر وسميتها نسخا ثانوية •

والنوع الثالث هو النسخ التى لم أتوصل الى الحصول عليها وهى نسخ عرفت انها محفوظة فى بعض المكتبات فى الخارج وعرفت أيضا أرقامها بفضل الفهارس احيانا أو بعد أن نقبت بنفسى فى تلك المكتبات أحيانا أخرى • غير أننى لم أتوصل الى الحصول على افلام مصغرة لها ، رغم المساعى العديدة •

وبالاضافة الى النسخ الرئيسية استعنت لضبط بعض الكلمات والعبارات الواردة فى نص التنسى بكتاب « بغية الرواد » لحيى بن خلدون وبكتاب « العبر » لاخيه عبد الرحمن ، كما لجأت أيضا لمخطوط « زهر البستان فى دولة بنى زيان » ، وكذلك « لنفح الطيب » و « أزهار الرياض فى أخبار عياض » لاحمد المقرى ٠

أما الفصل الثانى من هذا الباب فقد خصصته لبسط الطريقة التى سلكتها فى تحقيق النص ٠

وأود أن أنبه باديء ذى بدء الى اننى جعلت نصب عينى وانا بصدد تحقيق النص ، ان اخرج صورة من الكتاب تكون اقرب ما يمكن للنسخة التى خلفها التنسى فى القرن التاسع ، فلم أدخل أى تغيير على هذا النص ما عدا بعض الاضافات الضرورية كعناوين الفصول وبعض العلامات والارقام التى لا تمس المضمون أو المظهر الخارجى بقليل أو كثير ٠

وفيما يلى اعرض أهم المبادىء التى اتبعتها لضبط النص :

جعلت اقدم النسخ واحسنها فى الوقت نفسه ، اصلا أى اننى لم امس النص المنقول منها الا نادرا ، وذلك عندما لاحظت فيها نقصا أو اكتشفت تحريفا أو تصحيفا واضحين ٠

اننى فى اثناء تحقيق الالفاظ قد اكتفيت فى الهامش بذكر الرواية التى قد تفيد الباحث مهما كان اختصاصه ، أما الروايات الاخرى التى اتضح لى انها اغلاط فاحشة فلم أر فائدة من أن أوردها ٠

اشرت دائما الى النقص متى وجد وأيا كانت النسخة التى سقط منها الكلام ، وذلك دائما فيما يتعلق بالنسخ الرئيسية ، أما فيما يخص التعليق على متن المؤلف فكان المنهاج كما يلى :

بما اننى هدفت الى محاولة اعادة النص الى الحالة التى تركه عليها مؤلفه ، لم أر من الضرورى أن اشرح ما قد يغمض من الالفاظ ، ولم أذكر معنى مثل هذه الالفاظ الا عند تعليلى لتفضيل رواية على أخرى ٠

تيسيرا لعمل المؤرخين ، آثرت التعليق على اسماء الاشخاص والاماكن ، وقـــد جمعت اسماء الاماكن فى كشاف مستقل لتكررها فى المتن وفى الهامش .

ولافادة المــطلع وتقويم محتوى الكتاب ، قابلت نص التنسى بالمصادر التى تناولت باسهاب موضوع تاريخ بنى عبد الواد فذكرت روايات تلك الكتب عن الاحـــداث نفسها ، كلما خالفت التنسى .

ومن التعاليق أيضا ذكرت فى الهوامش تاريخ استلام الملوك لمقاليد الحكم وتاريخ نهاية دولهم .

أما الباب الثانى من هذا القسم الثانى فقد ضم النص المحقق مع تعاليقه وقد أتبعت النص المنشور :

1 ـ بكشاف اسماء الاماكن الواردة فيه .

2 ـ بجـدول لملـوك بنى زيـان .

3 ـ بخريطـة للمغـرب فى العهـد الزيـانى .

4 ـ واخيرا بمخطـط تقريبى لمدينة تلمسان فى القرن التاسع .

وختمت الكتاب كله بالفهارس التاليــة :

1 ـ فهرس اسماء الاشخاص والقبائل والدول .

2 ـ فهرس اسماء البلدان ، والاماكن ، والانهار .

3 ـ فهرس اسماء الشعراء .

4 ـ فهرس القوافى .

5 ـ واخيرا ـ فهرس عناوين الكتب والمقالات والمجلات .

والحقت بهذه الفهارس ثبتا عاما للمصادر والمراجع وختمت الدراسة بفهرس مفصل للموضوعات .

نتيجـــة البحـــث

هذه هي أهم النقاط التي تناولتها في هذه الدراسة التي هدفت من ورائها الى التعريف بهذا الاديب والمؤرخ الذى انجبته بلادنا والى التعريف بآثاره والى الحديث بهذه المناسبة عن عصره وجوانب الحياة فيه • وأود أن أؤكد ان الدهر بتناسيه فضل التنسى على تاريخ وحضارة المغرب الاوسط وعلى أدبه ، قد غمطه حقه ، وهو الـذى بلـغ درجة عالية فى العلم والمعرفة وتجلى تبحره فى اللغـة وجودة اسلوبه فى عصر ندر فيه المتضلعون فى اللغة والادب كما ندر المتذوقون لهما •

اننا رأينا أن التنسى قد انقذ اخبار نحو سبعين سنة من مسيرة شعبنا اذ لولاه لبقيت حقبة من تاريخ المغرب الاوسط فى زوايا النسيان ولاعتبرنا القرن التاسع ليلا طويلا قاتما ، فكان كتابه « نظم الدر » بمثابة المصباح الذى اضاء تلك العتمة ومكن المؤرخ من السير فيها واننا نرى هذا المؤرخ يضيع فى الظلام من جديد يوم يتوقف التنسى عن تدوين الاخبار ، وهذا مما يزيد من شعور الباحث الدارس لتاريخ بنى زيان وتاريخ المغرب الاوسط فى هذا العصر بقيمة ما خلف التنسي واهميته •

وأملي أن أكون قد وفقت فى بعث هذا الكاتب وفى اخراج قسم من آثاره للناس فى حلة حاولت أن أجعلها علمية ليوضع أمام الباحثين مساهمة منى فى اثراء الدراسات التاريخية ، وفى كشف الخفايا لفترة زمنية طويلة نسبيا من ماضى بلادنا ومساهمة منى أيضا فى أحياء ما خلف أجدادنا من تراث أدبى وعلمى •(1)

(1) رسالة لنيل الدكتوراه للدور الثالث من جامعة الجزائر • وعنوان الرسالة الكامل هو : « نظم الدر والعقيان فى بيان شرف بني زيان ، وذكر لملوكهم الاعيان » ، تأليف محمد بن عبد الله التنسى مع نشر الباب الخاص « ببيان شرف بني زيان ، وتتبع دولهم الى دولة مولانا المتوكل فخر الزمان » •